تاريخ مصر وحضارتها
فى الحقبة البيزنطية القبطية

دكتـــــورة

ليلى عبد الجواد إسماعيل

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقـــافة العربيـــة

٣ ش المبتديان - السيدة زينب

٢٠٠٨

رقـــم الإيــــداع : ٢٦٦٣٠/ ٢٠٠٧
الترقيم الدولي :٥-١-٣٠١-٢٢٢-٩٧٧

مقدمة

يعد تاريخ مصر وحضارتها خلال الحقبة البيزنطية – القبطية مرحلة هامة فى سلسلة تاريخ مصر عبر العصور المختلفة، فهو بمثابة الرابطة القوية التى تربط تاريخ مصر فى العصر الرومانى بتاريخ مصر فى العصر الإسلامى. كما أنه يمثل المرحلة التى لبست فيها مصر رداء المسيحية القشيب، وتزينت بهذا الدين الجديد، الذى ما لبث أن أصبح الدين السائد خلال تلك الحقبة، لذا يحلو للبعض أن يطلق عليها الحقبة القبطية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن كلمة قبطى تعنى مصرى، وهى من اليونانية Aigyptos وتعنى مصر ونهر النيل معاً، ومن ثم فإن كلمة قبطى لا يقصد بها المسيحى بل المصرى.

ويمتد تاريخ مصر فى العصر البيزنطى – القبطى بين عامى ٣٣٠م و ٦٤١م ويمثل العام الأول ٣٣٠م العام الذى دشن فيه الإمبراطور قسطنطين العظيم حاضرته الجديدة – مدينة القسطنطينية – على ضفاف نهر البوسفور، أما العام الثانى فهو ٦٤١م ويمثل دخول القائد العربى المسلم عمرو بن العاص أرض مصر، وبداية حلقة جديدة فى سلسلة تاريخها.

ويلقى كتاب تاريخ مصر وحضارتها فى الحقبة البيزنطية – القبطية أضواء كاشفة على ميلاد هذه الحقبة التاريخية، ثم يركز على مظاهر الحضارة فيها بداية من الحياة الدينية وما يندرج تحتها من ظهور المسيحية، وانتشارها، والمذاهب الدينية، التى ظهرت على أثر ذلك،

والصراعات مع كنيسة القسطنطينية، مع الحديث عن جذور الرهبانية والديرية ومؤسسيها، وأنواعها، وأنظمتها المختلفة. ويتناول هذا الكتاب كذلك ملامح النظام الإدارى والمالى، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مختلف النواحى – مع إلقاء الضوء على الأدب البيزنطى والفن القبطى فى أسلوب سهل بسيط يسهل على القارئ استيعابه دون جهد كبير.

والله اسأل التوفيق والسداد،

ليلى عبد الجواد إسماعيل
القاهرة ٢٠٠٨م

مصر فى عصر الرومان (٣٠ق.م- ٣٣٠م)

أمست مصر ولاية رومانية، بعد معركة اكتيوم البحرية ٣١ ق. م. بين كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة فى مصر والقنصل الرومانى ماركوس انطونيوس وهزيمتها على يد زميله أوكتافيانوس أغسطس (المبجل أو المهيب)، هذا ولم تلق لفظة ولاية قبولاً لدى بعض الباحثين، وقد استند هؤلاء إلى أن السجلات المعاصرة ومنها السجلات المعروفة (بأثر أنقرة)(*) جاء فيها على لسان أوكتافيانوس " ضمت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى " أى لم ترد لفظة ولاية على الإطلاق، ولم يقرن اسم مصر بكلمة ولاية، ومع ذلك فإن هناك فريق آخر من المؤرخين يطلق على مصر بعد أن تحولت لسلطان الرومان لفظة ولاية . وقسمت ولايات الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : ولايات تابعة للسناتو (مجلس الشيوخ) وأخرى تابعة للإمبراطور (القائد الأعلى للجيش) وقد ضمت مصر إلى الولايات التابعة للإمبراطور نظرًا لأهميتها، إذ كانت مصر ولاية - إذا جاز لنا التعبير - ذات طابع فريد ومتميز، ويرجع ذلك لأهميتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية .

وقد عبر المؤرخ جونز Jones عن أهمية مصر الاقتصادية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية بقوله : " لو أننا سألنا أيا من الأباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالإمبراطورية لأجاب على الفور: القمح والنقود".

وأكد الخطيب الرومانى بلينيوس Plinius هذا الأمر بقوله صراحة : " أن مدينتنا (أى روما) لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تقيم أودها دون ثروة مصر"، وتنطق هذه العبارات بأهمية مصر الاقتصادية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية

(*) اكتشف بالقرب من مدينة انقرة بآسيا الصغرى سنة ١٥٥٥م وتحتوى هذه الوثيقة على موجز بالأعمال التى قام بها الإمبراطور اغسطس فى الميادين العسكرى والمالى.

فهى مستودع القمح ومخزن الغلال الذى لا غنى عنه لإطعام الشعب الرومانى، خاصة وأن ما كانت تنتجه إيطاليا من القمح كان لا يكفى لسد حاجات هذا الشعب هذا من ناحية، من ناحية أخرى أدرك الرومان أهمية مصر كمورد للأموال التى تمد بها الإمبراطورية، والتى توفر الدخل للخزانة الإمبراطورية، وتعمل على تدعيمها وخاصة وأنها خوت من جراء الحروب الأهلية التى تعرضت لها الإمبراطورية مرارًا وتكرارًا .

أما عن أهمية مصر السياسية والعسكرية فترجع إلى موقعها الاستراتيجى الممتاز وحدودها الطبيعية الآمنة التى تجعل محاولة غزوها من الخارج عسيرة ومهمة الدفاع عنها يسيرة فهى بلد يسهل الدفاع عنه، وفى وسع من يتحكم فى مداخلها أو مفاتيحها أن يصد أى هجوم ويستقل بها، ويمنع ما قد يصل إلى روما من قمح وأموال فيصهر إيطاليا بمجاعة أو يقطع عليها طريق الاتصال مع الشرق .

ونظرًا لأهمية مصر الاقتصادية والسياسية والعسكرية بالنسبة للرومان فقد وضعوا لها نظامًا عسكريا وإداريًا محكمًا يختلف عن سائر الولايات الأخرى، فمن الناحية العسكرية، قام أغسطس بوضع أعداد كبيرة من الفرق الرومانية والقوات المساعدة فى مصر أكثر مما تستلزم الحاجة للدفاع عنها، لضمان عدم وقوعها فى يد أى عدو . عسكرت حامية عسكرية فى شرق الإسكندرية وأخرى فى بابليون (مفتاح الوجه البحرى) وثالثة فى طيبة مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة. أما القوات المساعدة فقد وزعت فى الأماكن الحساسة مثل مدينة بلوز أو بلوزيوم (على مقربة من بورسعيد الحالية)، وفى كبتوس (قفط) وفى أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية، وفى برايتونيوم (مرسى مطروح حاليا) Peraetonum.

أما عن النظام الإدارى الذى وضعه الرومان لمصر فيتلخص فى:

أولاً فى العاصمة (الاسكندرية) :

عين أوغسطس على مصر والياً من طبقة الفرسان الرومان ولـيس مـن الطبقة الارستقراطية أو من السناتو (مجلس الشيوخ) وذلك لأن ثقته فى الفرسان كانت أكبر، كما أنهم بحكم خبرتهم العملية فى شئون المال والتجارة وممارستهم منصب (مدير تموين العاصمة) قبيل مجيئهم إلى مصر مباشرة كانوا أقدر مـن السناتو على إدارة شئونها الاقتصادية التى كانت تأتى فى المقام الأول. وقد عبر المؤرخ تاكيتوس – مؤرخ الرومان المشهـور – عـن ذلـك بقولـه : «تولى مصر منذ أيام أغسطس المؤله فرسان رومان فى منزلة الملوك».

حرم أغسطس على السناتو زيارة مصر إلا بتصريح خاص منه وذلك لعدم الثقة فيهم، والخوف من أن يدفع الطمع أحدهم إلى الاستقلال بمصر معتمدا علـى وفرة أموالها ومواردها إلى جانب مناعتها وقوة حصانتها أو تحصـينها . وهـذا يعنى أن الرومان حاولوا عزلة مصر، وقد عبر تاكيتوس عن ذلك بقولـه : " إن أوكتافيانوس أغسطس عزل مصر مخافة أن يحتلها أحد فيصهر إيطاليا بمجاعة".

وحمل حاكم مصر لقبًا من ألقاب الفرسان وهو لقب Praefectus وتعنـى والى أو حاكم وعرف هذا الوالى رسميًا باسم (والى مصر وأحياناً والى مصر والإسكندرية)(*) كما حمل الوالى ألقاباً أخرى منهـا القائـد والـرئيس وتـولى الإشراف على السلطتين المدنية والعسكرية، ومع ذلك لم تكن سلطته مطلقة، بل كانت سلطته خاضعة لسلطة الإمبراطور، فهو لا يعين إلا بأمر منه، كمـا أنـه يتبعه تبعية مباشرة، ويكون بمثابة نائبه فى مصر ووكيلـه فـى إدارة شـئون الولاية، ويقوم مقامه، ويستمد سلطته منه ويعتبر مسئولاً أمامه وحـده . هـذا

(*) لأن الرومان فرقوا بين مصر والإسكندرية، ولكن لم تكن الأخيرة فى نظرهم جزء من مصر بل متاخمة لها.

فضلاً عن أن الوالى لا يمارس سلطته إلا وفقا للقواعد العامة التى يسنها الإمبراطور كما أن احتفاظه بمنصبه كان رهنًا بمشيئة الإمبراطور .

أما مدة حكم والى مصر، فكانت لا تزيد عن ثلاث سنوات، فى الغالب وإن كانت هناك بعض الاستثناءات طولاً وقصراً وذلك حتى لا يمكن الوالى لنفسه فى مصر ولا يغريه طموحه ويدفعه إلى الاستقلال بها وإعلان الثورة والتمرد على الإمبراطورية . أما عن سلطات الوالى فكانت عديدة منها : أنه رأس الجهاز العسكرى فقد كان القائد العام للجيش والفرق الرومانية والقوات المساعدة فى مصر، كما كان الرئيس الأعلى للإدارة والمال فيقوم بتعيين جميع موظفى الإدارة المحلية وبصفة خاصة مديرو الأقاليم (الاستراتيجوس) والكاتب الملكى فلا يكاد موظف يتولى عمله إلا بقرار من الوالى باعتباره الرئيس الإدارى فى الولاية. كما يقوم الوالى بفحص كشوف الضرائب وبإصدار قرارات الإحصاء (التعداد) وتحديد ضريبة الرأس، كما يشرف على سائر الضرائب العينية والنقدية وإرسالها إلى روما. وكان الوالى يهيمن أيضا على الجهاز القضائى ويعقد مجلسه القضائى ثلاث مرات فى السنة للنظر فى قضايا شرق الدلتا ومصر الوسطى وغرب الدلتا. ويقوم بالفصل فى القضايا المدنية والجنائية ، وكان يتمتع بحق مصادرة الأملاك وإصدار أحكام الإعدام لو اقتضى الأمر. كما كان للوالى الحق فى تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر.

ويساعد الوالى فى ممارسة مهامه عدد من الموظفين منهم : رئيس ديوان الحساب الخاص (الاديولوجوس Idioslogos) ويختص هذا الموظف بالإشراف على إدارة الأراضى والممتلكات التى تم مصادرتها لصالح الدولة بموجب القانون، سواء كانت هذه الأراضى هجرها أصحابها أو عجزوا عن دفع الضرائب المقررة عليها. ثم آل إليه الإشراف على ممتلكات المعابد. ورئيس القضاء أو المستشار القضائى (اليوريديكس Juridicus) وكان هدف هذه الوظيفة تزويد الإدارة فى مصر بخبير قانونى نظراً لأن الوالى كان من طبقة الفرسان وليس لديه خبرة بالقانون الرومانى. وكان نائبا عنه فى بعض الأحيان،

أما الموظف الثالث فهو الحاكم العام (الابستراتيجوس) وهى وظيفة مدنية لا علاقة لها بالشئون العسكرية ومع ذلك فإن اغسطس قصرها على رجال من طبقة الفرسان، وكان الابستراتيجوس واسع النفوذ فيما يتعلق بالأعباء الإلزامية سواء أن كانت مدنية (كالخدمة العسكرية) أو بدنية كأعمال السخرة (إقامة السدود وحفر الترع وزراعة أرض الدولة). ويعين الحاكم العام من قبل الإمبراطور مباشرة، ولم يكن الوالى يملك عزله. وكان هذا الموظف مع باقى الموظفين الآخرين، يشكلون غصة فى حلق الوالى، وذلك لأنه كان منهم كالقاضى الأعظم أو رئيس القضاء كان رقيباً على تصرفات الوالى حتى لا تتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادئ القانون العام فى روما. كما كان جاسوسًا عليه ومستشارًا قانونياً له فى آن واحد.

ثانياً : الإدارة فى عواصم الأقاليم :

قسمت مصر من الناحية الإدارية إلى ثلاثة أقسام كبرى هى الدلتا – مصر الوسطى (ارسينوى) طيبة. وعين على رأس كل منها (مدير أو حاكم من الفرسان بلقب استرايتجوس Strutegees) وكانت سلطته مدنية فقط وليس له أى مهام عسكرية، لأن السلطة العسكرية مركزة فى يد الوالى بوصفه القائد الأعلى للجيش الرومانى فى مصر، ويتم اختيار مدير الإقليم من أفراد الطبقة الإغريقية ومن مواطنى عواصم الأقاليم، ويشغل منصبه لمدة ثلاث سنوات ويتقاضى راتبا سنوياً عن عمله. ويشرف مدير الإقليم على جميع شئونه الإدارية والمالية، ويرأس جهاز الشرطة والأمن به، لذلك كان له الحق فى القبض على مخالفى القانون، والنظر فى الشكاوى، والتحقيق فى القضايا.

ويلى مدير الإقليم الكاتب الملكى وهو بمثابة مساعد للمدير ونائبا عنه وساعده الأيمن، ويحصل كذلك على مرتب سنوى مثله وله اختصاص اجتماعى وآخر مالى، فهو الذى يستدعى المكلفين بأداء الالتزامات العامة، ويتسلم شهادات الميلاد والوفاة من الأهالى ، وترفع إليه تقارير مسح الأراضى الزراعية أى قياسها

لتقدير ما عليها من ضرائب، وقوائم بأسماء المرشحين للمناصب المحلية، ويساعده فى أداء مهامه هيئة من الكتبة. ونظراً لأهمية هذه الوظيفة فقد كان صاحبها يختـار من طبقة المصريين المتأغرقين مثل الاستراتيجوس. وكان هناك موظف أرشـيف فى كل عاصمة أو إقليم يشرف على دار حفظ الوثائق والسجلات الرسمية، وكـان يعد المساعد المباشر للكاتب الملكى. وتجدر الإشارة إلى أن الإقاليم انقسـمت إلـى مراكز وقرى ومدن ولكل منها جهاز إدارى.

أما عن نظام ملكية الأرض فقد أبقى أوغسطوس على تقسيم الأراضى كما كانت عليه فى العصر البطلمى فقسمت إلى نوعين : أ- الأراضى التى تمتلكهـا الدولة. ب- الأراضى التى يمتلكها الأفراد.

وتشمل أراضى الدولة : ١) الأراضى الملكية وظل مزارعوها يحملـون لقب مزارعى الأرض الملكية.

٢) الأراضى العامة وهى الأراضى الرملية الواقعة إلى جوار الصحراء وهى ضعيفة الإنتاج.

٣) أراضى الوسايا (الضياع الإمبراطورية) وجاءت نتيجة دعوة أوغسطوس لأفراد الطبقة الارستقراطية فى روما والإسكندرية إلى استثمار أموالهم فى استصلاح الأرض وزراعتها.

٤) أراضى المعابد، وقد قام أوغسطوس بمصادرة أملاك المعابد التى حصلوا عليها فى العصر البطلمى، والحقها بملكية الدولة، ووضعها تحت إشراف رئيس الحساب الخاص، وذلك رغبة منه فى تقليم أظافر الكهنـة. كـذلك خصص أوغسطوس للمعابد مساحات من الأرض تعرف باسم (الأراضى الملكية التابعة للمعابد).

الأراضى التى يمتلكها الأفراد (الأملاك الخاصة) : تعتبر من أهم معـالم سياسة الرومان التى تهدف إلى إيجاد طبقة من أصحاب الملكيـات المتوسـطة،

يتوافر لديهم نصاب مالى معين يمكنهم من شغل بعض وظائف الدولة الإلزامية مثل وظيفة كاتب القرية، أو محصلو الضرائب النقدية والعينية، كذلك الوظـــائف الشرفية فى عواصم الأقاليم، وكانت هذه الوظائف تشترط إلى جانـــب الكفـــاءة والمقدرة، حصر موارد دخل المرشح لها لضمان توريد الضرائب وجمعها دون عجز. ونمت الملكية الخاصة بصورة تسترعى النظر فى العصر الرومانى، فإلى جانب الضياع ذات الصبغة الإمبراطورية، شجع أوغسطوس على استثمار رأس المال الخاص فى الزراعة عن طريق شراء الأرض، فامتلك أثرياء الإسكندرية أراضى كثيرة عن هذا الطريق، ثم زادت الأملاك الخاصة خلال القرنين الثانى والثالث للميلاد عن طريق الميراث والرهن (ضماناً للــدين) والشــراء والهبــة والزواج وغيرها.

وانصب اهتمام أوغسطوس على العناية بالزراعة بعــد أن أهملــت فــى أواخر عصر البطالمة، فشجع الملكية الخاصة والاستثمارات الفردية بأنواعهــا المختلفة مع الاهتمام بمشروعات الرى، كتنظيف القنوات الرئيسة والفرعية من الرمال والأعشاب والإشراف على إصـــلاح الجســور والقنــوات وملاحظــة الفيضان، وحراسة السدود، مما ساعد على انتعاش الزراعة. كــذلك ازدهــرت الصناعات التى اشتهرت بها مصر كصناعة الورق من نبات البردى، وإذا كان البطالمة قد احتكروها فإن الرومان أطلقوا يد الصناع مقابــل ضــريبة نقديــة وأخرى عينية وهى عبارة عن مقادير من الورق ترسل إلى روما لسد حاجاتهــا منه. ولم تحتكر الحكومة الرومانية صناعة النسيج كذلك، ولكنها أشرفت عليهــا إشرافاً كاملاً، فكان لها مصانعها الخاصة، وأخضعت باقى النساجين لإشــرافها الكامل، مع دفع ضريبة نقدية، وأخرى عينيــة يــدفعها النســاجون وأصــحاب المصانع للدولة. كذلك ازدهرت صناعة الزجاج فــى مصــر لتــوافر الرمــل والصودا فى أرضها بشكل كبير، وكانت الإسكندرية أهم مراكزها.

وساهمت عدة عوامل فى ازدهار تجارة مصر فى عصر **الرومـان** إلـى جانب موقع مصر الفريد ومنها : وجود عدد من الموانئ **الصالحة** للملاحة على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر، الاهتمام بتجارة **الشرق الأقصـى** ومـا ترتب عليه من تأمين موانئ البحر الأحمر، وتأمين الطرق **الطرق** بينها وبـين النيل، كما قام الإمبراطور تراجان (٩٧-١١٧م) بتطهير **القناة التى** تصل النيـل بالبحر الأحمر بعد أن طمستها الرمال. لذلك كله شهدت تجارة مصر مع الشرق الأقصى انتعاشا وإن كانت قد ذبلت خلال القرن الثالث الميلادى.

الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر الرومان : قسم الرومان المجتمع إلى عدة طبقات هى : الرومان – الإسكندريون – المصريون.

تكونت **الطبقة الحاكمة** (الرومان) من الرومان الذين عينهم الإمبراطـور فى المناصب العليا بالإدارة المصرية، ومن رجال الأعمـال **الرومـان** الـذين حضروا إلى مصر من أجل ممارسة نشاطهم التجارى، ومن الجنود الذين شكلوا الحامية الرومانية فى مصر. وطعمت هذه الطبقة بدماء جديدة مـن اليونـانيين ومن المصريين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية عن طريق العمـل فـى القوات المساعدة أو فى البحرية الرومانية عدة سنوات. **وأفراد هذه** الطبقة هـم سادة المجتمع، يختار من بينهم موظفى الإدارة، وأعفوا مـن الضـرائب وفـى مقدمتها ضريبة الرأس. وتأتى **طبقة الإسكندريين** فـى المرتبـة الثانيـة بعـد الرومان، وحصل هؤلاء على الاعفاء الكلى مـن ضـريبة الـرأس، وانقسـم **المصريون** (الطبقة الثالثة) إلى المصريين الذين تجرى فى عروقهم دماء يونانية (مصريون غير وطنيين) والمصريين الخُلص أو الوطنيين. واعتبر اليونـانيون مصريين لأنهم ذابوا فى المجتمع المصرى وحملـوا ملامحـه، وأصـبح مـن الصعب التميز بين من هو يونانى وبين من هو "مصرى". **وأهم** ما يميز هـذه الطبقة هو : خضوع المصريين واليونانيين لضريبة الـرأس ولكـن بأنصـبة

متفاوتة بحسب المكانة، فاليونانيون الأكثر ثراء والمتأغرقون من مواطنى عواصم الأقاليم كانوا يدفعونها بحسب منزلتهم الاجتماعية، ومستواهم الثقافى. أما غالبية المصريين من الفلاحين الفقراء فكانوا يدفعونها كاملة غير منقوصة إلى جانب الأعباء الأخرى.

أما الأسرة فكانت ترتبط بروابط قوية ممثلة فى صلات الدم والمودة والرحمة، وكان رب الأسرة يهتم بشئون أسرته وأحوالها المالية، وعاشت بعض الأسر فى مصر الرومانية حياة لا تخلو من الترف، فكان لدى بعض الأسر عبيد كثيرون، ولديهم طاه ومربية أطفال وبستانى ومحام وطبيب خاص. ولقد اقتصر الزواج الرسمى على أرقى الطبقات الاجتماعية من الرومان والإسكندريين واليونانيين، وكثُرت لدى المصريين عقود الزواج المكتوبة وليست مسجلة، وكانت تنص على حسن العشرة، فلا يجوز أن يسئ الزوج معاملة زوجته، ولا يحق له أن ينجب أطفالاً من غيرها، أما الزوجة فعليها السمع وحسن الطاعة، وألا تتورط فى علاقة مع رجل آخر. وكان لحفلات الزواج تقاليد وعادات منها : إرسال الدعاوى المكتوبة للمدعويين قبل موعد الاحتفال، وتقديم الهدايا من الأهل والأقارب والجيران للعروسين، وإحياء الحفل بالموسيقيين والراقصات والمغنيات.

أما عن الأعياد والاحتفالات فى مصر الرومانية فكان منها ما هو دينى مثل الاحتفال بعيد الإله سرابيس ومنها ما هو عام مثل الاحتفالات التى تقام بمناسبة دخول الأبناء معهد الجمنازيوم[1] أو تخرجهم منه، والاحتفالات بمناسبة زيارة الأباطرة وكبار الشخصيات الرومانية لمصر، وإقامة المسابقات الرياضية، والنشاط المسرحى فى مدينة الإسكندرية وغيرها.

---

[1] تم إنشاء هذه المؤسسة التعليمية فى عصر البطالمة، وهو الذى خرج أبطال الرياضة فى مصر الرومانية وحشد من كبار موظفى الإدارة، فضلاً عن دوره الثقافى والاجتماعى؛ حيث كان مركزاً للحضارة الهلينية.

الحياة الثقافية فى مصر الرومانية :-

كان التعليم يتم فى المدارس الخاصة التى يشرف عليها "معلـم" أو عـن طريق إحضار المعلم إلى المنزل إذا كانت الأسرة ميسورة الحال، ليقوم بتعلـيم الصغار نظير أجر يدفع له. ويتعلم الصغار فى البداية حروف الأبجدية اليونانية – لغة البلاد الرسمية التى تصدر بها الأوامر والقرارات. أما اللغة اللاتينية (لغة الرومان) فقد اقتصر التعامل بها على شئون الجـيش الرومـانى، لأن غالبيتـه العظمى كانت من الرومان. وبعد تعلم الأبجدية اليونانية واتقان القراءة والكتابة، يتدرج منهج الدراسة فى مراحل مختلفـة ليشـمل النحـو، البلاغـة، الأدب، الرياضة، الفلسفة، مع دراسة بعض القصص الأخلاقية إلى جانـب القصـص التمثيلى والشعر والخطابة. ويتلقى الشـباب مـن طبقـة الجمنـازيوم البيـان والموسيقى إلى جانب تدريباتهم الرياضية. وبعد إتمام المراحل الأولى للتعلـيم، يستطيع الطالب الالتحاق بجامعة الإسكندرية، وتشمل كل من المجمـع العلمـى (الموسيون) والمكتبة. وقد اهتم الرومان بأمرهما، وبباحثى الموسيون، وأولـوه عناية ورعاية، ويدل على ذلك ازهار العلوم فيه، كما كان يقصده الطلبـة مـن داخل مصر وخارجها. أما التعليم الدينى فتخصصت فيـه المعابـد المصـرية، وارتكز على اللغة والكتابة المصرية وطقوس الديانة.

وبلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لهـا فـى القـرنين الأول والثانى الميلاديين، وضمت داخل حدودها أنهار مثل نهـر الـراين والـدانوب والفرات والنيل، وامتدت حدودها من المحيط الأطلنطى غربًا إلى الفرات شرقًا. وكان القرن الثانى الميلادى أكثر عصور الإمبراطورية سلامًا، ولكـن مـا أن اقترب القرن الثانى من نهايته حتى بدأت تنتاب الإمبراطورية أزمات شتى سواء كانت سياسية أم اقتصادية، وسرعان ما أخذت فى الضعف والانحلال بعد القوة والاتساع .

أما عن أسباب هذا الضعف والانحلال فمنها ما هو سياسى، خاصـــة وأن الإمبراطورية فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث بدأت تعانى من عـــدم الاستقرار السياسى ومن ضعف الحكومة المركزية وظهور الحكم الاســـتبدادى العسكرى لدرجة تدخل قادة الفرق العسكرية فى ولايات الإمبراطورية فى تعيين الأباطرة وفى عزلهم، فطغى بذلك سلطانهم على سلطان الحكومة وترتب على ذلك أن أصبح الأباطرة ألعوبة فى أيدى رجال الجيش . يضاف إلى ذلـــك تصدع النظام الإدارى فى الولايات، وانقسام ولاء الجند بين أدعياء العرش مما أدى آخر الأمر إلى تعاقب الحروب الأهلية .

أما من حيث الظروف الاقتصادية التى سادت الإمبراطورية خلال تلـــك الفترة فقد عانت الإمبراطورية من أزمة مالية حادة، وتدهور فى شتى المجالات الصناعى منها والتجارى وانخفضت قيمة العملة، إذ اضطر الأباطرة إلـــى تزييفها بزيادة نسبة المعادن الرخيصة بها، وترتب على ذلك اختفـــــــاء العمـــــلات الجيدة من السوق، وتداول العملات الرديئة، وحدث بذلـــــك نوعًا من التضخم المالى، وارتفعت الأسعار بشكل لم يؤلف من قبل .

وليس أدل على ذلك من أن هناك وثيقة بردية نادرة المثال عثر عليها فى البهنسا بصعيد مصر، وفيها يطالب النساجون فى تلك البلدة بزيـــادة الأســـعار لإنتاجهم بسبب زيادة أسعار المواد الخام، وزيادة أجور العمال، ونتيجة للتضخم المالى وانخفاض سعر العملة هجرت الدولة الاقتصاد المالى الذى كانت العملـــة أساس التعامل فيه إلى الاقتصاد العينى إلى حد بعيد، بحيث أصبحت كثير مـــن الضرائب تجمع عينًا من السلع والمحاصيل، كذلك كانت أجزاء كبيرة مـــن المرتبات تصرف عينًا فى صورة ثياب أو مواد تموينية .

كما ألم بالإمبراطورية تدهور اجتماعى كان من أسبابه أن الرخاء الـــذى شهدته الإمبراطورية فى القرنين الأول والثانى نتج عنه ظهور طبقـــة جديـــدة

أثرت بسرعة فائقة وهى الطبقة البرجوازية التى أدى ظهورهـا إلـى اختفـاء الطبقة الوسطى، التى ذابت وسط طبقتين هما : الطبقة الأرستقراطية والطبقـة البرجوازية . وقد ترتب على ظهور الطبقة البرجوازية أصابة مجتمع الولايات الرومانيـة بعدم الاستـقرار الاجتماعى، وتفشى روح القلق داخـل هـذا المجتمع .

تزايدت إغارات القبائل الجرمانية علـى الإمبراطوريـة وبـدأت هـذه القبائل تتوغل داخل أراضيها وخطوط دفاعها وفـى نفـس الوقـت تعرضـت الإمبراطورية لخطر آخر من جانب دولـة الفـرس الساسـانية التـى أخـذت تهدد أرمينية وبلاد ما بين النهـرين وسـوريا تهديـدًا خطيـرًا ومسـتمرًا . وهكذا انتهز الجرمان والفرس حالة الضعف والإعيـاء التـى كانـت تعـانى الإمبراطورية منها وشنوا إغـاراتهم المسـتمرة علـى حـدودها وأطرافهـا ولذلك لا عجب أن أطلق على تلك الفترة مـن تـاريخ الإمبراطوريـة وهـى من أواخر القرن الثـانى وبدايـة القـرن الثالـث اسـم « المحنـة الكبـرى للإمبراطورية الرومانية".

وهكذا أصاب الضعف والانحـلال الإمبراطوريـة الرومانيـة وشـمل كافة مرافقها، ولم يحل القرن الثالـث المـيلادى، إلا وكانـت الإمبراطوريـة الرومانية قاب قوسين أو أدنى من التدهور التام، وفى ذلـك الحـين ظهـرت على مسرح أحداث الإمبراطوريـة الرومانيـة شخصـية دقلـديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) الـذى اسـتطاع أن يكتسـب ولاء الجنـد وأن يعلـن نفسـه إمبراطورا، واسـتطاع بشخصـيته القويـة أن يعيـد الحيـاة للإمبراطوريـة الرومانية وأن يمنحها عشرين سنة من السلام النسـبى، وهـى فتـرة حكمـه إذ استطاع خلالها أن يقيم بناءًا إداريًا محكمًـا مـنح الإمبراطوريـة فرصـة جديدة للحياة .

ولد دقلديانوس حوالى عام ٢٤٥م فى ولاية دالماشيا (فى شمال غـرب مقدونيا)، وكان والده يشغل وظيفة كاتب، سلك دقلـديانوس طريـق الجنديـة، وتدرج فى المناصب العسكرية حتى وصل إلى رتبة دوق (أى قائد الفرسـان) ثم حصل على القنصلية، وفى آخر المطـاف اختيـر قائـدًا لقـوات الحـرس الإمبراطورى أى حرس القصر، وأظهر دقلديانوس مهارة حربيـة فائقـة فـى حروب الإمبراطورية ضد الفرس، أكسبته هذه المهارة قلوب الجند ومهدت لـه الطريق إلى حكم الإمبراطورية .

اعتلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية فى نوفمبر من عام ٢٨٤م وعندئذ ألقيت على عاتقه مهمة من أشق المهام وأصعبها ألا وهى " إنقاذ الإمبراطورية من براثن الانحلال والضعف " ولذلك وضع دقلديانوس فور ارتقائـه العـرش برنامجًا ضخمًا للإصلاح ولعلاج مشاكل الإمبراطورية لذلك فهو يعتبر من كبار المصلحين الذين عرفتهم الإمبراطورية الرومانية . وتظهر جهـود دقلـديانوس الإصلاحية فى ثلاثة مجالات هى : الإدارة والجيش والمال .

إصلاحات دقلديانوس فى الإدارة

بدأ دقلديانوس إصلاحاته بإعادة تنظيم الجهاز الإدارى فى الإمبراطورية، بعد أن رأى أن النظـام السابق تعرض للتفكك والانهيار، ورأى من الصعب أن تدار أمور الإمبراطورية على اتساعها عن طريـق إدارة مركزيـة واحـدة ولذلك اتخذ الخطوة الأولى نحو تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين أساسين القسـم الشرقى والقسم الغربى، وجعل بذلك السلطة العليا فى الإمبراطورية فى يد اثنين من الأباطرة، يحمل كلاهما لقب (أغسطس) ويحكم أحدهما القسم الشرقى من الإمبراطورية ويحكم الآخر القسم الغربى منها .

أما الخطوة الثانية التى اتخذها دقلديانوس لإصلاح النظام الإدارى فهـى: أنه قرر عام ٢٩٣م توزيع السلطة الإمبراطورية على أربعـة، وبـذلك أوجـد

دقلديانوس النظام المعروف باسم " السلطة الرباعية أو التتراخيا Tetrachia وذلك بتعيين نائب له ونائب لشريكه ماكسيميانوس ليساعدهما فى إدارة شئون الإمبراطورية وفى حكمها، كلاهما بدرجة قيصر أو ولى عهد، فهما يحلان محل الإمبراطور فى حالة وفاته أو استعفائه . واختار دقلديانوس جاليريوس Galerius ليكون نائبه . أما ماكسيميانوس فقد اختار قسطنطينوس خلوروس Constantinus Chlorus ليكون وليًا له .

وقسمت الإمبراطورية بين هؤلاء الأربعة، فتولى دقلديانوس حماية المقاطعات الشرقية، وجعل (نيقوميديا) شمال غرب آسيا الصغرى عاصمة له ومقرًا . وأما جاليريوس فقد أشرف على حماية منطقة البلقان وجزء من آسيا الصغرى . وتولى ماكسيميانوس حماية المناطق الشمالية من الراين والدانوب، وجعل (ميلان أو ميلانو) فى شمال إيطاليا عاصمة له لأن ميلان كانت تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب، مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الإمبراطورية منها إلى غاليا وألمانيا، لصد أى هجوم أو إخماد أية فتنة . أما قسطنطينوس خلوروس فقد عهد إليه بحماية ولاية بلاد الغال وبريطانيا وأسبانيا . وكان كل من هؤلاء الأربعة مستقلاً فى شئون ولايته له تشريعاته الخاصة غير أنهم تعهدوا جميعًا بتقديم العون أحدهم للآخرين حفاظًا على مصالح الإمبراطورية . وعلى الرغم من تقسيم السلطة الإمبراطورية بين هؤلاء الحكام الأربعة، إلا أن الإمبراطورية ظلت وحدة سياسية واحدة، لأن الإدارة فيها كانت جماعية والقيادات واحدة .

وأعاد الإمبراطور تنظيم الولايات، فادمجها فى وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم دوقيات Dioceses وجعل على رأس كل دوقية موظف ليس فى يده إلا سلطة مدنية، وأطلق عليه اسم نائب حاكم

Vicarius أما القيادة العسكرية فى الدوقيات، فقد عهد بها دقلديانوس إلى الدوق Dux وأخضع سلطته العسكرية لسلطة الحاكم المدنى فى الدوقيات أو المقاطعات وبذلك فصل دقلديانوس السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وجعل كل منهما تعتمد على الأخرى فى نفس الوقت . ونجح بذلك فى القضاء على خطر محاولات التمرد والانقلابات التى تهدد السلطة المركزية . هذه هى أهم المعالم الرئيسية لإصلاحات دقلديانوس الإدارية، ومما لا شك فيه أنها حققت قدرًا كبيرًا من الكفاءة الإدارية ولكنها حققت ذلك بقدر أكبر من التكاليف لأن سياسة تفتيت المناصب الكبرى وإنشاء إدارات جديدة أضافت عبئًا ماليًا جديدًا على مالية الإمبراطورية المنهكة .

أما بالنسبة لإصلاح الجيش فقد اتخذ دقلديانوس إجراءات هامة من بينها :

١ – أعد دقلديانوس فرقة جديدة من الفرسان عرفت باسم " قوات الحرس الخاص " لتتولى حماية الإمبراطورية، ولتحل بذلك محل الحرس البرايتورى (الحرس الإمبراطورى) الذى لم يعد يتولى حماية الإمبراطورية كما كان من قبل .

٢ – قوى دقلديانوس (حرس الحدود Limitanei) الذين كانوا يستوطنون الأراضى الواقعة على حدود الإمبراطورية ويزرعونها ويتولون الدفاع عنها فى نفس الوقت .

٣ – فرض نظام التجنيد الإجبارى، وأعتمد على الجنود المرتزقة فى الجيش وخاصة من العنصر الجرمانى، وفتح أمامهم باب الترقى فى المناصب العسكرية شأنهم فى ذلك شأن باقى طبقات المجتمع الرومانى بقدر ما قل

نصيب الجندى من الحضارة بقدر ما ازدادت أهميته ومكانته . كذلك ألـزم أصحاب الإقطاعيات بإمداده بعدد معين من المتطوعين وإذا عجزوا عـن ذلك يدفعون مبالغ معينة تعادل العدد المقرر عليهم من المرتزقة . وذلك كله ليحل مشكلة النقص فى التجنيد . ومما لا شك فيه أن عدد أفـراد الجـيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس كما أصبح الطريـق مفتوحًـا أمـام الجندى ليصل إلى مرتبة القائد الأعلى للجيش . وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكـون شـجاعًا خبيـرًا بفنـه، مخلصًـا للإمبراطور .

٤ - جهز دقلديانوس مجموعات عسكريا سريعة الحركـة، يمكنهـا أن تتـولى الدفاع عن الإمبراطورية فى سرعة وخفة، وبذلك لم يعد للفرق الثقيلة قيمة كبيرة .

٥ - أوجد الإمبراطور قوة متحركة تكون تحت قيادته مباشرة وتصاحبه فى كل تنقلاته، ومن ثم عرفت باسم " قوة المعية Comitatus وكانت قـوة المعيـة هذه تشتمل على وحدات من بربر شمال أفريقية .

٦ - اهتم دقلديانوس بتحصين الحدود الإمبراطورية، وتظهر النقوش والآثـار الجهود الكبيرة التى بذلها فى بناء الطرق العسكرية والحصون فى شـمال أفريقية وسوريا، وحدود الجزيرة العربية، وعلى الراين والـدانوب وقـام دقلديانوس بإصلاح قلاع الحدود القديمة، وتشييد قـلاع جديـدة وإصـلاح أسوار المدن .

وتزايد عدد الجيش فى عهد دقلديانوس زيادة كبيرة على أن هذه الزيـادة إذا كانت قد حققت السلام على الحدود والأمن فى الداخل إلا أنها مثلـت عبئًـا اقتصاديًا وماليًا على الإمبراطورية . فقد نجح هذا الجيش فى إخضاع الثـورات المتأججة فى غاليا وبريطانيا وولاية أفريقيا ومصر، وصد البرابرة على امتداد

جبهتى الراين والدانوب، وهاجم الفرس واسترد منهم بلاد مــا بــين النهــرين، وامتدت بذلك حدود الإمبراطورية مرة أخرى حتى نهر دجلة شرقًا.

أما فيما يتعلق بالعملة والنواحى المالية والضرائب فقد قــام دقلــديانوس بإصلاح النقد وبذل جهودًا صادقة فى سبيل إقامة نظام سليم للعملة لعله يــتحكم بذلك فى الأسعار فأصدر عملة جديدة من الذهب والفضة، معلمة بأوزانها كذلك أصدر كمية كبيرة من العملة البرونزية المطلية بالفضة وحاول بذلك إيجاد نظام موحد للعملة من الذهب والفضة والبرونــز كالــذى وجــد قبــل أن تتعــرض الإمبراطورية للتضخم وحازت هذه العملة ثقة التجار والمتعاملين بها على حــد سواء .

وفى ٣٠١ م وضع دقلديانوس لائحة للحد من ارتفاع الأسعار وخاصــة أسعار السلع الغذائية كالقمح والشعير واللحوم والخضروات والفاكهة والسمك إذ ثبت بها سعر كل سلعة على حدة، وحدد فيها حد أعلى لكل سلعة . وقد شــملت هذه اللائحة أنواع المنسوجات والأدوات الكتابية وشملت حتى أجور الحرفيين . وأنذر دقلديانوس فى هــــذه اللائحة بالإعــــدام كل من يتعــــداهـــــا أو يخبئ سلعته من السوق .

سارع دقلديانوس كذلك إلى حماية مصالح الدولة المالية عند إصلاح نظام الضرائب، فقام أولاً بمسح شامل لكل ما تقع عليه الضريبة مــن أرض ودواب وسكان وذلك لإعادة تقدير الضرائب عليها، مراعيا فى ذلك مساحة الأراضـــي وما عليها . كذلك توسع دقلديانوس فى نظام الضرائب النوعيــة أو العينيــة أى التى تجبى فى شكل محصولات زراعية أو منتجات زراعية كالزيــت والنبيــذ وغيرها، وذلك بغرض تثبيت الأسعار وضمان ارتباط المــزارعين بــالأرض لزراعتها، وفى نفس الوقت القضاء على الغش فى العملات النقدية .

وهكذا نجح دقلديانوس بإصلاحاته أن يبعث الروح من جديد فـــى جســـد

الإمبراطورية الضعيف كما نجح فى أداء المهمة الشاقة التى ألقيت على عاتقه وهى إنقاذ الإمبراطورية من براثن الانحلال .

وفى مايو ٣٠٥م أعلن دقلديانوس تنحيه عن عرش الإمبراطورية، بعد أن أدى واجبه فى إنقاذها وتدعيمها فقد بلغ الستين من عمره، واستبد به المرض . وباعتزال دقلديانوس قامت حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة، ونشب صراع طويل حول العرش ومن خلال هذا الصراع برزت شخصية قسطنطين . ولد قسطنطين بن قسطنطين خلوريوسChlorus أى (الأخضر الشاحب) فى مدينة نيش – فى يوغوسلافيا الحالية – فى عام ٢٨٠م، ونشأ وتربى فى مدينة نيقوميديا، التى اتخذها دقلديانوس مركزًا له، وعندما بلغ الخامسة عشر من عمره التحق بالجيش وأظهر مهارة فائقة فى ميادين القتال. وعندما قامت الحرب الأهلية على أثر وفاة دقلديانوس، كان قسطنطين أحد المشتركين فيها، واستطاع قسطنطين أن يتغلب على منافسيه وخصومه الواحد تلو الآخر حتى انفرد بحكم الإمبراطورية . ومنذ ذلك الحين أخذ على عاتقه إتمام إصلاحات دقلديانوس لدرجة أصبح من الصعب معها الفصل بين أعمال كل منهما .

سار قسطنطين على نهج دقلديانوس فى إصلاحاته الإدارية، كما أحدث تغييرات هامة من بينها، إدخال مبدأ الوراثة فى تولى العرش الإمبراطورى أى أصبح منصب الإمبراطور وراثيًا فى أسرته، وعمل قسطنطين على زيادة جيش (المعية) تلك القوة الضاربة المركزية، التى كانت تتحرك مع الإمبراطور حين تدعو الحاجة ذلك . كما فتح الباب على مصرعيه أمام الجرمان لينخرطوا فى سلك الجيش الرومانى، يضاف إلى ذلك أنه جعل الحرف والأعمال وراثية، حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب، هذا إلى جانب أنه ربط المزارعين بأراضيهم وحرم عليهم الانتقال إلى ولايات أخرى . مما أدى إلى التعجيل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة إلى اقنان مربوطين بالأرض .

ونجح قسطنطين كذلك فى تثبيت العملة، إذ أصدر عملة ذهبية جديدة تسمى (الصولد Solidus)(*)، حافظت على وزنها ونقائها حتى القرن الحادى عشر، وهى عبارة عن قطعة من سبائك الذهب أو الفضة مدموغة بخاتمه أكثر من كونها عملة، أما عن المصادر التى حصل منها على الذهب لعملته الجديدة فكانت عن طريق جمع الضرائب بالذهب أو شراء الذهب من الأسواق، ولكن أهم مصدر من غير شك هو ما صادره قسطنطين من أملاك المعابد الوثنية التى توسع فيها بصورة مضطردة .

شهد عصر قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) حدثين هامين وهما :

١ - اعتراف قسطنطين بالمسيحية كاحدى الديانات المصرح بها فى الإمبراطورية ٣١٣م .

٢ - نقل عاصمة الإمبراطورية من روما على ضفاف نهر التيبر إلى روما الجديدة (القسطنطينية) على ضفاف البوسفور، وقد ساهم هذان الحدثان الهامان فى ظهور ما عرف فى التاريخ باسم " الإمبراطورية البيزنطية " وترتب عليهما أيضًا أن تحولت مصر من ولاية رومانية إلى ولاية بيزنطية.

ولذلك لابد من إلقاء الضوء على هذين الحدثين الهامين وبالنسبة للحدث الأول فسوف نتناوله بالتفصيل عند الحديث عن الحياة الدينية فى مصر فى العصر البيزنطى . أما الحدث الثانى وهو تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية وهى " بيزنطة أو القسطنطينية فسوف نتحدث عنه قليلاً .

الحقيقة أن هناك أسباب سياسية ودينية واقتصادية دفعت قسطنطين إلى

(*) الصولد يساوى ٤٠ جرام من الذهب وينقسم إلى ٢٤ قيراط كل منها سدس جرام من الذهب، وعرف بالنوميزما، وكان يزن أيام قسطنطين العظيم ٤٥,٥٠ جرام وأطلق عليه الصليبيون فيما بعد اسم (البيزنط) نسبة إلى بيزنطة.

نقل العاصمة من روما القديمة، ومن هذه الأسباب أن قسطنطين كان فى حاجة إلى تأييد سياسى وخاصة من أقاليم الشرق، والمعروف أن قسطنطين كان يحكم فى الغرب، فى حين أن مركز الثقل بالنسبة للإمبراطورية أصبح ينحصر فى الشرق منذ القرن الثالث الميلادى، ولذلك أراد قسطنطين أن يجعل عاصمة بلاده فى الشرق مثلما سبق وفعل ذلك الإمبراطور دقلديانوس الذى اتخذ من نيقوميديا مركزًا له . وأدرك قسطنطين أن المسيحية قد انتشرت فى الشرق، وهو فى حاجة إلى تأييد الشرق له، ولذلك كان لزامًا عليه أن يساند المسيحية والمسيحيين، وهذا لا يتحقق إلا ببناء عاصمة جديدة تقوم أساسًا على الدين المسيحى، بدلاً من روما مركز الوثنية وحصنها المنيع. يضاف إلى ذلك أن روما لم تعد عاصمة مأمونة وخاصة بعد أن تكررت هجمات الأعداء عليها من فرنجة وقوط وألمان وغيرهم . ولعل هذا الأمر هو الذى دفع دقلديانوس إلى نقل العاصمة من روما إلى ميلان، وهو نفس السبب الذى جعل قسطنطين يتخلى عن روما وميلان، ويتخذ عاصمة مأمونة وحصينة بدلاً منهما وهى القسطنطينية ذات الموقع الاستراتيجى الفريد. الذى جعلها تتحكم فى طريق تجارة البحر الأسود وبحر ايجة والبحر المتوسط إذ لم تلبث أن أصبحت مركزًا للتجارة العالمية . وأخيرًا لا ننسى العامل الشخصى لدى قسطنطين، فقد كان قسطنطين كما سبق أن ذكرنا شرقى المولد والنشأة فقد تربى فى نيقوميديا . كل هذه العوامل ساهمت فى جعل قسطنطين ينقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما الجديدةRoma Nova (القسطنطينية) .

كان أمام قسطنطين العديد من المدن التى كان من الممكن اختيار احداها عاصمة للإمبراطورية منها : نيقوميديا مقر حكم (دقلديانوس) ولكنه لم يتخذها مقرًا وعاصمة لأنها كانت مركزًا لصدور القرارات الخاصة باضطهاد المسيحيين، ومن ثم فهى تذكر المسيحيين بتلك الفترة السوداء فى حياتهم وتاريخهم. ومنها سالونيك فى البلقان عاصمة جاليريوس قيصر دقلديانوس،

ولكنه لم يختارها إذ أنها لم تتمتع بالصفات التى تؤهلهــا لأن تكــون عاصــمة للإمبراطورية كما كان فى استطاعته أن يختار أحــدى المــدن العريقــة مثــل الإسكندرية فى مصر أو انطاكية فى سوريا، وكلتا المدينتين كانتا مركزاً عظيماً للتجارة والحضارة، ولكل منهما موقع استراتيجى مميز، كذلك كان أمامه مدينة اثينا مهد الحضارة الإغريقية، ولكنه فضل أن يقطع صلته بالماضى تماماً، فترك كل هذه المدن الشهيرة، واختار مدينة مغمورة هى بيزنطــة. وكانـــت أشــبه بمثلث صغير من الأرض غائر فى البحر، ويرجع تأسيسها إلى القرن الســابع قبل الميلاد، وقد قام بتأسيسها جماعة من المهاجرين الإغريق وفدوا من مدينــة ميجارا Megara، وزعيمهم بيزاس Byzas الذى سميت المدينة بأسمه. وكانــت ذات موقع ممتاز فالبحر يحيط بها من ضلعيها، ولها ميناء طويل مقــوس مــن الشمال الغربى عرف باسم القرن الذهبى، لأنه كان فى شــكل القــرن، وفــى الجنوب الغربى منها يقع بحر مرمرة، وبينه وبين القرن الذهبى يوجد مضــيق البوسفور.

وكانت بيزنطة مدينة صغيرة حينما وقع اختيار قسطنطين عليها لتكــون عاصمة لامبراطوريته، ومن ثم بدأ فى إعادة تخطيطها وتعميرها فأنشــأ بهــا قصراً امبراطورياً فخماً، وســاحة كبــرى واســعة Forum كمركــز تجــارى واجتماعى وثقافى، كما أمر ببناء ملعب كبير لسباق الخيول التى تجرها العربات Hippodrome وكافة المرافق الإداريــة للحكومــة، ولرجــال الــبلاط وكبــار الموظفين. واشرف قسطنطين بنفسه على التخطيط العمرانى الجديد، وأمــر أن تحاط المدينة بسور عظيم، يبدأ من الساحل الشــمالى وينتهــى عنــد الســاحل الجنوبى، ودعمه بأبراج للحراسة تقام على مسافات معينة، وبنيت كذلك أســوار على طوال الساحل لحماية المدينة براً وبحراً.

وبذل قسطنطين جهدًا كبيرًا فى إتمام عمليــة البنــاء فجمــع كــل مــا يلزم البناء من عمال ومواد أولية وأحجار وتماثيــل اســتعملت فــى تجميــل العاصــمة الجديــدة . وبعــد أن انتهــت مرحلــة البنــاء والتشــييد، قــام

الإمبراطور قسطنطين بافتتاحها وسط حفل كبير فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م، وبعدها أقيمت الاحتفالات التى استمرت أربعين يومًا .

أما عن النتائج التى ترتبت على تأسيس القسطنطينية فتتمثل فى أن القسطنطينية قامت على أساس مدينة يونانية قديمة قريبة من مراكز الحضارة الهللينية مما ساعد على إنتعاش تلك الحضارة مرة أخرى، إذ أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية مالبثت أن احتضنت تلك الحضارة وجعلتها أساسًا لحضارتها، كما أن موقع هذه المدينة الحصين حطم كثيرًا من هجمات المسلمين، ومنع وصولهم إلى شرق أوربا، كما ساعد على تحطيم غزوات السلاف المتكررة، كذلك أدى قيام هذه العاصمة الجديدة على أسس مسيحية إلى انتشار الدين المسيحى . يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية أصبحت هى الوسيط التجارى بين آسيا وأوربا، وأصبحت هى العاصمة الوحيدة للإمبراطورية الرومانية بعد سقوط روما على يد الجرمان فى عام ٤٧٦م . هذا فضلاً عن أنه لولا قيام القسطنطينية لما استطاعت البابوية الوصول إلى ما وصلت إليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى .

وهكذا أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهى التى أطلق عليها اسم (الإمبراطورية البيزنطية) نسبة إلى مدينة بيزنطة (القسطنطينية) ومن ثم أصبحت الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية تأخذ اسم بيزنطية هى الأخرى، وكان من بين تلك الولايات مصر، التى أطلق على تاريخها فى تلك الفترة اسم تاريخ مصر فى العصر البيزنطى .

و على هذا النحو فإن تاريخ مصر فى العصر البيزنطى يبدأ فى عصر الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦ - ٣٣٧م) ويستمر حتى عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) حيث فتح المسلمون فى عهده مصر سنة ٢٠هـ/٦٤١ م، وانتقل بذلك حكم مصر من البيزنطيين إلى المسلمين .

الحياة الدينية

انتشار المسيحية فى مصر :

المسيحية ديانـــة شرقية نبتت فـــى فلسطيـــن حيــث ولد السيد المسيح(*) عليه السلام فى بيت لحم عام ٦ ق.م. وعاش معظم سنوات حياته فـــى قريـــة الناصرة(**) فى عصر الإمبراطور أغسطس (٢٧ق.م - ١٤م) وأخـــذت فـــى الانتشار التدريجى فى كل من الشرق والغرب، فدخلت المسيحية مصر واعتنقها عدد كبير من سكان مصر . والسؤال الذى يطرح نفســه هنــا كيــف دخلــت المسيحية مصر، وقد نبتت أصلاً فى فلسطين وكيف انتشرت بها؟

يمكن القول أن المسيحية دخلت مصر عن عدة طرق :

الطريق الأول : اليهود

يستخلص من سفر أعمال الرسل – أحد أسفار العهد الجديد – ومن الفصل الثانى منه أن يهود الإسكندرية كانوا على اتصال دائم ببنى جلدتهم بفلســطين، وفى الوقت الذى كان فيه السيد المسيح موجودًا بفلسطين زار يهود الاســكندرية أورشليم، وسمعوا بردود الفعل التى أحدثتها تعاليم السيد المسيح ومعجزاته، بل

(*) اختلفت الآراء حول تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح ومنها أنه خرج من بطـــن أمـــه ممسوحًا بالدهن، وقيل لأن جبريل عليه السلام، مسحه بجناحيه عند ولادته صوناً له من مس الشيطان، وقيل المسيح لأنه كان يمسح رءوس اليتامى وكان لا يمسح بيده صاحب عاهة ألا برأ، وقيل كذلك مسح بالبركة.

(**) عاش السيد المسيح معظم حياته فى هذه القرية، خاصة بعد أن هربت به أمه من بطش اليهود، وهو ابن عامين إلى مصر، ثم عادت إلى فلسطين بعد أربع سنوات لتســكن فـــى قرية الناصرة هذه الواقعة على جبل الجليل، لذلك يعرف المسيحيون باسم النصارى، لأن المسيح قضى بها معظم سنوات عمره حتى بلغ الثلاثين عامًا.

أن بعضهم رأوا بأعينهم المعجزات، وسمعوا بآذانهم ما فاه به السيد المسيح عن قوة الله وعجائبه، وشاهدوا إرشاده وتعليمه، ومنهم من مكث فى أورشليم حتى وقت صعوده إلى السماء. ومن الطبيعى أن هؤلاء اليهود أخذوا – بعد عودتهم إلى مصر – يقصون ما سمعوه وما راوه فى أورشليم على أقاربهم وذويهم. وهكذا أخذت أخبار المسيحية تنتقل إلى مصر عن طريق اليهود ويؤكد ذلك بعض المؤرخين المحدثين فمنهم من ذكر أن العديد من السكندريين خاصة الطائفة اليهودية كانت على علم بأخبار الديانة المسيحية.

الطريق الثانى : الجنود والفرق العسكرية التى كان يرسلها الرومان تبعاً إلى مصر برًا وبحرًا لحمايتها والدفاع عنها فقد كان من بين هؤلاء الجنود من اعتنق المسيحية أو لديه معلومات عنها، وباحتكاكهم بالمصريين، بدأ المصريون يتعرفون على هذا الدين الجديد.

الطريق الثالث : هو التجارة والتجار:

إذ كانت مدينة الإسكندرية عاصمة مصر فى عصرى البطالمة والرومان مدينة تجارية هامة، وفد إليها التجار من كل مكان من سوريا ومن آسيا الصغرى ومن بلاد اليونان، فضلاً عن ذلك كانت الإسكندرية أهم ميناء فى حوض البحر المتوسط الشرقى (بحر الروم) استقبل السفن القادمة من بلاد الشام، ومن موانى شرق البحر المتوسط وغربه . ومن المعروف أنه عن طريق التجارة وعبر الطرق التجارية تنتشر الأفكار والآراء والمعتقدات وتنتقل من مكان لآخر فى تلك الأزمان، ونتيجة لازدهار الحركة التجارية ونشاطها بين مدن الإمبراطورية فقد ازدادت الصلات التجارية بين بلاد الشام وخاصة بيت المقدس وبين مصر من ناحية، وبين روما ومصر من ناحية أخرى، ومما لا شك فيه أن التجار الذين قدموا إلى مصر فى تلك الفترة سواء من بلاد الشام أو من روما كان منهم من اعتنق المسيحية أو لديه على الأقل معلومات عنها وعما

تدعو إليه من أفكار ومعتقدات، كذلك ليس من المستبعد أن يكون عدد من التجار المصريين سواء كانوا من اليهود أم من الوثنيين ممن ذهبوا بتجارتهم إلى بيت المقدس أو إلى روما قد سمعوا وهم فى تلك البلاد عن هذه الديانة الجديدة ومن ثم بدأت تتزايد المعلومات فى مصر عن هذا الدين الجديد وبدأت المسيحية تأخذ طريقها فى الانتشار فى مصر، وبصفة خاصة فى مدينة الإسكندرية قلعة التجارة والتجار .

دخلت المسيحية إلى مصر على يد القديس مرقس الرسول حوالى منتصف القرن الأول الميلادى - وهو أحد رسل السيد المسيح السبعين، وجاءها من فلسطين مدفوعًا بحمية روحية وغيرة دينية ليدعو أهلها إلى ترك الوثنية واعتناق المسيحية التى كان يؤمن بها هو نفسه أشد الإيمان .

وهو يوحنا (هذا اسمه اليهودى) ويلقب بمرقس، فهو من أصل يهودى إذ ولد من أبويين يهوديين، ويدعى أبوه أرسطو بولس وتدعى أمه مريم - وكانا على جانب كبر من التقوى والصلاح متمسكين بشريعة أجدادهما، واستوطنا بادئ الأمر فى بلدة ابرياتولوس بإقليم المدن الخمس الغربية (وتقع فى إقليم طرابلس الغرب وبالتحديد فى برقة الحالية على حدود مصر) . وكان والدا مرقس يعملان بالزراعة، وحدث أن أغارت إحدى قبائل البربر على مدينتهما فى عهد أغسطس، فنهبت أهلها وسلبت منهم خلقًا كثيرًا كان من بينهم والدى القديس مرقس .

اضطر والدا مرقس إلى ترك البلاد والهجرة إلى فلسطين وذلك وقت ظهور السيد المسيح عليه السلام وأقامت أسرة يوحنا أولاً فى (قانا الجليل بالقرب من أورشليم). أما عن ميلاد القديس مرقس فهو موضع خلاف بين علماء الشرق والغرب، فيرى علماء الشرق أنه ولد فى بلدته إقليم المدن الخمس الغربية، وهذا ما أكده انجيله، بينما يرى علماء الغرب أنه ولد فى أورشليم بعد

هجرة أسرته إليها، والأرجح هو رأى علماء الشرق على أية حال نشأ القديس مرقس نشأة صالحة فى أحضان والديه ويبدو أنه تلقى تعليما طيباً، وصار على معرفة كافية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى جانب العبرية. وما لبث القديس مرقس أن اعتنق المسيحية على يد ابن عمه الأكبر وهو القديس برنابا كما كانت له صلة وثيقة بالقديس بطرس، الذى تبناه بعد وفاة أبيه ولقنه تعاليم المسيحية، وظل مرقس يتردد على بيت القديس بطرس بسبب صلة القرابة التى كانت تربطهما اذ كانت استرابولا زوجة بطرس بنت عم واند مرقس وهكذا كان فى حكم والده من جهة وقرب السكن من جهة أخرى، ولذلك اتيحت الفرصة لمرقس ليلم بأخبار السيد المسيح وتعاليمه ومعجزاته أولاً بأول، فازداد إيمانه بالسيد المسيح.

واستمر مرقس فى اتصاله بنسيبه بطرس، حتى صار الأخير يدعوه فى رسالته الأولى الجامعة بولده الحبيب، هذا فضلاً عن أنه جعله من جملة السبعين رسولاً .

وكان القديس مرقس من أوائل من تطوعوا لنشر المسيحية والتبشير بها وبدأ عملية التبشير مع الرسل السبعين حوالى سنة ٤٠م حيث رافق القديس بطرس فى أسفاره، فذهب معه إلى أورشليم، ثم إلى أنطاكية حوالى سنة ٤٥م، ثم ذهب إلى قبرص ثم إلى بعض جهات آسيا الصغرى، ثم عاد إلى أورشليم، ثم أرسله بطرس إلى مصر والإسكندرية خاصة ليبشر فيها بالمسيحية قائلاً له : « قم وامض إلى مدينة الإسكندرية لتزرع فيها الزرع الجيد الذى هو كلام الله » .

قصد القديس مرقس الديار المصرية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى وذلك عن طريق الصحراء الغربية وبعد أن بشر بالمسيحية فى موطن رأسه فى المدن الخمس الغربية، ووصل مرقس مصر فى عام ٥٨م وفى عهد

الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٩م) وأقام فى بابليون بعض الوقت، ثم غادرها إلى الإسكندرية فوصلها فى عام٦١م، وبدأ يبشر فيها بالسيد المسيح، واتخذها مقرًا ومركزًا لأنها تجمع أجناسًا مختلفة من مصريين ونوبيين ويونانيين وغيرهم، كما أنها عاصمة مصر ومركزًا هامًا للتجارة، فضلاً عن كونها مركزًا علميًا ممتازًا، يضاف إلى ذلك أنه كان بها حيان لليهود، فضلاً عن أن دعوة القديس بطرس له بالخروج كانت وجهتها الإسكندرية.

ونزل القديس مرقس أول الأمر بأحد الحيين اليهوديين على إسكافى يهودى إذ حدث أن تهرأ أو تمزق حذاؤه من طول السير، فطلب من هذا الإسكافى ويدعى أنيانوس أن يصلحه له، وأثناء قيام الإسكافى باصلاح الحذاء دخل المخراز فى أصبعه فادماها، فصاح الإسكافى مستغيثًا بعبارة (أيوس ثاوس) معناها (يا الله الواحد أو قدوس الله) وما أن سمع مرقس هذه الكلمات حتى اهتز فرحًا، ودعا الله أن يبرأ الإسكافى من جرحه بعد ان اتى بالطين ودهن به اصبع انيانوس فبرأ من جرحه . ثم دار حديث طويل بين القديس مرقس والإسكافى، واعتنق الإسكافى المسيحية على يديه وخاصة بعد أن استولى عليه العجب من أمر شفاء أصبعه فى نفس اللحظة . واتخذ القديس مرقس من بيته مركزًا لنشر المسيحية فى الإسكندرية، كما إن انيانوس سوف يصبح ثانى بطريرك للكنيسة بعد وفاة القديس مرقس.

ولم يكن عدد المسيحيين فى أول الأمر إلا قليلاً جدًا، ثم أخذت دعوة القديس مرقس إلى المسيحية فى الانتشار وذلك بفضل فصاحته وقوة إقناعه التى يمكن ملاحظتها من مطالعة انجيله المقدس، الذ يعد من أقدم الأناجيل على أغلب الظن وتزايد عدد أتباعه فى الإسكندرية وليس أدل على ذلك مما ذكره يوسيبيوس القيصرى فى كتابه (تاريخ الكنيسة) إذ يقول : "كان جمهور المؤمنين رجالاً ونساءاً يتزايد حتى أن "فيلون" اليهودى وجده أمرًا جديراً بالاهتمام أن

يصف جهادهم واجتماعاتهم وطريقة معيشهم فى كتاب "حياة التأمل" لذلك شرع القديس مرقس فى تأسيس أول كنيسة فى تاريخ المسيحية فى مصــــر، وهـــى الكنيسة المرقسية بالإسكندرية . هذا وإن كانت هناك بعض الآراء التى تشـــير إلى أن القديس مرقس ليس هو مؤسس تلك الكنيسة وانها بنيت بعد موته.

وأسس القديس مرقس أيضًا المدرسة اللاهوتية المسيحية بالأســـكندرية إذ رأى القديس مرقس ضرورة وجود مدرسة تناظر المدرسة الوثنيـــة المعروفـــة بالرواق الاسكندرى – وتقوم تلك المدرسة اللاهوتية بنشر المبادىء المســـيحية والتعاليم الإنجيلية وبالفعل أنشأ المدرسة اللاهوتية . وكانت مهمة هذه المدرســـة فى البداية قاصرة على درس الكتاب المقدس وتعليم الديانة المسيحية على طريقة السؤال والجواب، ثم ما لبث أن اتسع نطاقها بعد ذلك، وصارت تشتغل بـــالعلوم والآداب والفلسفة حتى فاقت المدرسة الوثنية، وجعل القديس مـــرقس العلامـــة يسطس رئيسًا لهذه المدرسة اللاهوتية، وكان منصب الـــرئيس يلـــى منصـــب البطريرك فى الرتبة والمنزلة .

على أن القديس مرقس ما لبث أن سافر إلى روما تلبية لـــدعوة القـــديس بطرس الرسول، وظل بها حتى عام ٦٧م، وهو العام الذى استشهد فيه القـــديس بطرس فى اضطهاد نيرون، ثم عاد القديس مرقس ثانية إلى مصر .

وبعد عودة القديس مرقس إلى الإسكندرية حقد عليـــه الوثنيـــون وعلـــى المسيحية فدبروا مكيدة للقبض عليه، وفى أثناء احتفال القـــديس مـــرقس بعيـــد الفصح فى ٢٦ إبريل ٦٨م وكان يوافق اليوم الذى يعبد فيـــه الوثنيـــون الههـــم سيرابيس – الذى كانت عبادته من أكثر العبـــادات شـــيوعًا – فلمـــا اجتمعـــوا للاحتفال بعيد سيرابيس أثارهم الحكام ضد مرقس ؛ لذلك خرج الوثنيون بعد أن انتهت شعائر الاحتفال، مندفعين نحو الكنيسة واقتحموها ووثبـــوا عليـــه أثنـــاء وجوده فى الهيكل، وقبضوا عليه، ووضعوا حبلاً فى عنقه، وراحوا يلفوا به فى

طرقات المدينة، ثم وضعوه فى السجن،ثم اخرجوه من السجن فى اليوم التالى، وراحوا يسجلونه فى الطرقات حتى توفى، وبينما كان الغوغاء يعتزمـــون احراق جثته، هبت عليهم عاصفة فرقت شملهم، وتركوا الجسد خلفهم وهنا جاء المسيحيون فحملوه خلسة ودفنوه تحت جزع الكنيسة، فى بوكاليا وهو المكان الذى أقام فيه المسيحيون فيما بعد الكنيسة المرقسية .

عوامل انتشار المسيحية فى مدينة الإسكندرية وخارجها

وعلى الرغم من وفاة القديس مرقس إلا أن المسيحية انتشـــرت فـــى الاسكندرية بسرعة وزاد عدد أتباعها ومعتنقيها ويرجع ذلـــك إلـــى عـــدة **عوامل** من بينها :

١ – سمو المبادىء التى تدعو إليها المسيحية، وهى المحبة والمساواة والإخـــاء والعدالة، وهى مبادىء سامية لم تعرفها الديانات الوثنية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت مما رغب العديد من السكان فى تلك الديانة للتمتـــع بتلـــك المبادىء التى تساعدهم على تحقيق حياة أفضل.

٢ – الحصار الذى فرضه اليهود على أنفسهم، وحالوا به بين الديانة اليهوديـــة وبين انتشارها، فقد اعتبر اليهود أنفسهم فئة تختلف عن سائر فئات المجتمع المصرى، ورفضوا الإندماج داخل هذا المجتمع، مما أدى إلـــى عـــدم انتشـــار الديانة اليهودية، وساعد فى نفـــس الوقـــت علـــى انتشـــار المسيحية. وهناك عوامل اخرى ادت الى عدم انتشار اليهودية ومنها: ان اليهود لم يقوموا الا بنشاط تبشيرى قليل، كما ان الكثير من اسرار الديانة اليهودية ظل غامضا بالنسبة لمعظم اهالى الامبراطورية ومنهم المصريين.

٣ – الفراغ الروحى الذى عايشه المصريون فى تلك الفترة خاصة بعد أن فترت (ضعفت) الديانة المصرية القديمة فقد أمست تعانى أشـــد حـــالات الفســـاد

والضعف وتعرضت لكثير من التهكم مـن جانـب اليهـود واليونـانيين والرومان المقيمين بالاسكندرية لما فيها من خيالات وخرافات، وحل محلها عدد من الديانات أو الآلهة اليونانية مثـل زيـوس كبيـر الهـة اليونـان والرومانية مثل جوبتر وعبادة الامبراطور، وجاءت المسيحية لتفوق سائر الديانات الأخرى بتعاليمها الأخلاقية التى انفـردت دون سـائر الـديانات الأخرى، علاوة على أن العبادات الوثنية كانت بعيدة عن الواقع غارقة فى الأساطير، لا تهتم بالفرد وقضاياه ومشاكله، وكان الفرد يطلـب الخـلاص وينتظر المخلص، وكانت المسحية هى طريق الخلاص.

٤- استخدم المبشرون بالمسيحية اللغة اليونانية فى التبشير بها وكانت لغة العالم انذاك مما ساعد على انتشار المسيحية.

٥- ساعدت نظرة الرومان الأولى إلى المسيحية على نمو بذورها فـى العـالم أجمع وفى مصر بصفة خاصة، فقد نظر الرومان إلى المسيحية فى بدايـة أمرها على أنها مجرد نزعة دينية يهودية لا شأن لهم بها، لذلك فلا خـوف منها ولا ضرر، واعتبروا المسيح عليه السلام رجل يهودى جـاء ليكمـل (الوحى) الناموس. كذا لم يرالرومان فى المسيحية فى بادئ أمرها ما يثير مخاوفهم منها. ولكن سرعان ما تبددت هذه النظرة بعد أن كشفت المسيحية عن نفسها وأنها ديانة جديدة لا تعترف بقيصر كإله ولا بآلهة الرومان وإنما تؤمن بالله الواحد خالق السماء والأرض، لذلك سرعان ما اعتبر الرومـان المسيحية ديانة محرمة وأنه لا حق للمسيحيين فى الحياة والوجود.

ساعدت هذه العوامل على انتشار المسيحية (داخل) مدينـة الإسـكندرية عاصمة مصر فى تلك الفترة، ومن ثم كان طبيعيًا أنه بانتشار المسـيحية فـى الإسكندرية أن تنتشر فى سائر أنحاء مصر، وذلك لأن معظـم سـكان مصـر ارتبطوا بعاصمتهم ارتباطًا وثيقًا، ووفدوا إليها إما تجارًا حيث كانت الإسكندرية

أكبر سوق تجارى بمصر، وإما لقضاء مصالح إدارية وإما للزيـارة والمتعـة والترويح عن النفس، وأما للتعليم فقد كانت منارة للعلم والعلماء. ويدل هذا كلـه على أن الصلة بين سكان مصر وبين عاصمتهم لم تنقطع، ونظرًا لأن المسيحية بدأت تنتشر بتلك العاصمة، فإنه كان طبيعيًا أن يسمع المصريون الوافدون إلـى مدينة الإسكندرية بتلك الأفكار الجديدة التى تنادى بها المسيحية، وينقلونها معهم إلى مدنهم وقراهم . وعن هذا الطريق بدأت المسيحية تنتشر من الإسكندرية إلى سائر أنحاء القطر المصرى .

هذا وترجع سرعة انتشار المسيحية فى مصر إلى أن كثير من معتقـدات المسيحية كانت لها أشباه ونظائر فى الديانـة المصـرية القديمـة، فقـد أمـن المصريون القدماء بوجود الـه واحـد وأنـه ازلى أبدى وذلك زمـن أخناتون (١٣٧٠-١٣٤٩ق.م) كما أمنوا بأن هذا الاله هو أصل الكائنـات وهـو الـذى أوجدها وهو بذاته موجود فيها وهذا الإله هو "آتون" الذى لا شريك له. كـذلك نادت المسيحية بالإله الواحد الذى لا شريك له. كما أن فكرة البعـث والخلـود، والثواب والعقاب فى العالم الآخر، كانت من أسس الديانتين، كذلك فكرة الثالوث المقدس فى المسيحية يقابلها الثالوث المصرى القديم، الذى يجمع بين أوزيريس وإيزيس وحورس، أيضًا فكرة ولادة المسيح من عذراء بكر يقابلها فكـرة ولادة أبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الإله بتاح، وأن "حور محب" أخـر ملـوك الأسرة الثامنة عشر هو ابن آمون من عذراء. كما أن العماد بالمـاء المقـدس معروف فى الديانتين . هذا فضلاً عن أن الصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان هو رمز الخلود عند المصريين القدماء، إذ صـورت آلهـتهم وفى يدهم ذلك الصليب المعقوف الرأس وهو علامة عنخ ورمز الحياة عنـدهم. لذلك استطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصـريين، ولـم يجـدوا أيـة غضاضة فى تقبلها وفهمها.

دلائل انتشار المسيحية فى مصر

وليس أدل على انتشار المسيحية فى أنحاء القطر المصرى فـــى القـــرن الثانى الميلادى من اكتشاف أربع برديات حفظت لنا نصان من إنجيل القـــديس يوحنا، وترجع كتابتها إلى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى، كما عثـــر أيضًا على نسخ من العهد القديم مكتوبة باليونانية، وكذلك ما جاء فـــى برديـــة أهناسيا (بنى سويف) من أقوال السيد المسيح " ...... ارفع قطعة الخشب فسوف تجدنى، واقلب الحجر تجدنى ... " وهذه كلها دلائل علـــى انتشـــار المســـيحية ومعرفة السيد المسيح فى بلدان مصر فى أوائل القرن الثانى الميلادى الذى مـــا كاد ينتهى حتى انتشرت المسيحية فى الوجه القبلى أيضًا وفى سائر أنحاء القطر المصرى .

الاضطهادات الدينية

وكان أكبر خطر هدد المسيحية هو ذلك الاضطهاد والتعذيب الذى أنزله الرومان بمعتنقيها . والحقيقة أن الأباطرة الرومان لم يكونوا أعداء للمسيحية كديانة، فقد اشتهر هؤلاء بتسامحهم الدينى تجاه مختلف الديانات الموجودة داخل الإمبراطورية الرومانية، تلك الإمبراطورية التى ضمت عددًا كبيرًا من الشعوب التى اختلفت عقائدها ودياناتها . ومع ذلك لم تحاول الإمبراطورية أن تستأصل أى عبادة جديدة إلا إذا كانت تتنافى مع المبادىء الأخلاقية أو تتعارض مع السياسة العامة . ومن ثم فإن حركة الاضطهاد الدينى التى نزلت بالمسيحيين والمسيحية نبعت من أسباب أخرى بعيدة عن التعصب الدينى للأباطرة الرومان. ومن هذه الأسباب ما يلى :

١ - رفض المسيحيون مشاركة الرومان فى ممارسة شعائر الديانة الرسمية للدولة، كما رفضوا عبادة الإمبراطور وتأليهه وتقديس صوره وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، لأن عبادة الإمبراطور تتنافى مع ما تدعو إليه المسيحية من عبادة الله، لذلك أدرك الأباطرة الرومان أن المسيحية خطر يتهددهم شخصيًا .

٢ - العزلة التى فرضها المسيحيون على أنفسهم، إذ اعتزلوا المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة، فلاهم يشتركون فى حفلاته ولاندواته العامة، ولاهم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل أغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى أشاعها آباء الكنيسة أو المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وضرورة الزهد فيها . واعتبر الوثنيون اعتزال المسيحيين للشئون الدنيوية هروب من الواجبات المدنية وإضعاف للروح القومية . ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين خارجين عن النظام العام للمجتمع وعن الحياة الرومانية وتقاليدها وأنهم أمسوا يشكلون خطرًا عليها ولهذا

وقفت منهم موقفًا معاديًا .

٣ – أثار تجمع المسيحيين وخلواتهم الشك فى نفوس السلطات الحاكمة التى اعتبرتهم جمعيات سرية تدعو ضد الإمبراطور الرومانى وتشكل خطرًا على أمن الدولة وسلامتها . فقد عاش المسيحيون فى شكل جماعات صغيرة وكبيرة لكل منها رئيس يختلف لقبه بحسب كبر الجماعة أو صغرها فالجماعات الصغيرة رئيسها (راعىShepherd) والجماعة الكبيرة رئيسها (أسقفBishop)، وكلاهما يشرف على شئون جماعته ؛ وله سلطان أوسع من سلطان الإمبراطور، وليس لأحد عليه نفوذ سوى الكتاب المقدس وطاعة الله .

٤ – رفض المسيحيون فى بادىء الأمر الاشتراك فى الخدمة العسكرية للدفاع عن الإمبراطورية واعتبروا أنهم بأدائهم العمل العسكرى إنما ينخرطون فى العبادة الوثنية . هذا فضلاً عن أن انتشار المسيحية بين الجند يؤدى إلى القضاء على ولاء الجيش للإمبراطور، وبالتالى لا يعد للرومان هيبة .

٥ – رفض أغنياء المسيحيين وأثريائهم تولى المناصب العامة فى الدولة، فاعتبر ذلك تهربًا من تحمل مسئوليات المجتمع، وجعل ذلك الأباطرة الرومان ينظرون إليهم بعين ملؤها الشك والريبة .

٦ – طالب المسيحيون بالمساواة بين سائر الطبقات الاجتماعية فى المعاملة، خاصة فيما يتعلق بتحسين أحوال العبيد والنساء، ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على هدم الدعائم التى قام عليها المجتمع فى ذلك الوقت .

٧– تحريض اليهود الدائم ضد المسيحية، خاصة أن شطراً كبيراً من اليهود كان ذا ثقافة إغريقية يونانية رفيعة، خاصة يهود الإسكندرية الذين كرهوا المسيحية، واعتبروها أكبر عدو للوثنية الإغريقية ذات الأصول الفلسفية المرتبطة بالثقافة الإغريقية.

يتضح من هذه الأسباب أن الأباطرة الرومان والسلطات الرومانية لم تقف موقفًا معاديًا من المسيحية ذاتها بل من سلوك المسيحيين أنفسهم، ولذلك اعتبرت اعتناق تلك الديانة جرمًا فى حق الدولة، وبدأت تنظر إلى المسيحيين على أنهم منشقين مبتدعين لديانة جديدة غير مرغوب فيها . ولذلك حرمت اجتماعات المسيحيين، وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم . هذا ولم يقم بموجة الاضطهاد هذه الأباطرة الطغاة والمتعسفين أمثال نيرون (٥٤ - ٦٩م) بل قام بها أيضًا أباطرة خيرين مصلحين أمثال تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس .

أما عن اضطهاد **نيرون** فقد حدث عام ٦٤م أى فى العام العاشر من حكمه، ففى هذا العام حل بروما حريق كبير، قضى على ما فيها من معابد وقصور وتماثيل، ولم يسلم من ألسنة النيران سوى أربعة أحياء من أحياء المدينة الأربعة عشر، واتجهت أصابع الاتهام نحو نيرون خاصة بعد أن قام بذبح اخيه وأمه وزوجته اوكتافيا واستاذه سينيكا، ولكن لكى يبرأ الإمبراطور نفسه، اتهم المسيحيين بهذه الفعلة، وراح ينزل بهم أشد وأنكى أنواع الاضطهاد. وزج بالمئات منهم فى السجون لمحاكمتهم بتهمة الخيانة والاتيان بأفعال تتنافى مع السياسة العامة للدولة، وإثارة الاضطرابات فى أنحاء الإمبراطورية، ونال المسيحيون مختلف صنوف العذاب. وقد استشهد فى هذا الاضطهاد فى روما بولس وبطرس تلميذا السيد المسيح.

وحدث اضطهاد **تراجان** (٩٧-١١٧م) الذى تولى عرش الإمبراطورية فى عام ٩٨م، فى العام الثامن من حكمه أى فى عام (١٠٦م)، فقد نظر هذا الإمبراطور إلى المسيحيين على أنهم شيعة يهودية خطرة، ونظرًا لأن اليهود اشعلوا العديد من الثورات ضد الإمبراطورية الرومانية، واعملوا فيها تخريباً وتدميراً، لذلك اضطهد تراجان المسيحيين مع اليهود لظنه أنهم منهم، ونتيجة لذلك تعرض المسيحيون فى الإسكندرية ومصر لاضطهاد عنيف .

واضطهد **هادريان** (١١٧-١٣٨م) المسيحيين فى عام ١١٧م، حينما قـام بزيارة لمدينة الإسكندرية، وأخذ يتجول فى أنحائها، وحمل على المسيحيين فيها، فقتل منهم خلقا كثيرين، حتى خيل للناظر أنه أفناهم جميعًا، وأصدر أمرًا بتعميم عبادة الأوثان، وإرغام المسيحيين بشكل خاص على السجود لها .

أما عن **اضطهاد ماركوس أوريليوس** (١٦١ - ١٨٠ م) اتبع ماركوس أوريليوس فى بداية عهده أى عام ١٦١م سياسة التسامح تجاه المسيحيين، حتى أنه شبه فى نظر البعض بالسيد المسيح فى أخلاقياته وحبه للخير والسلام، وعلى الرغم من أنه لم يكن مسيحياً إلا أنه قرأ كل ما كتب عن السيد المسيح وأتباعـه وحوارييه، كما تعرف على معالم المسيحية لدرجة دفعت البعض إلى التشكك فى وثنيته. وقد دفع ذلك المسيحيون إلى أن يستبشروا خيراً، ويأملوا فـى مرحلـة جديدة من التسامح والاستقرار الدينى خلال حكم هذا الإمبراطور.

ولكن هناك من المؤرخين من يذكر أنه انتشرت فى عهد هذا الإمبراطور الأوبئة والمجاعات نتيجة الفيضانات فأرجع سبب ذلك إلى الدين الجديـد (أى المسيحية) وأقدم على اضطهاد المسيحيين، وأمر بقتل آباء الكنيسة باعتبـارهم رأس الأفعى .

اضطهاد سبتميوس سفيروس فى مصر (١٩٣-٢١١م)

وكان أول حادث هام فى تاريخ كنيسة الإسكندرية هو اضطهاد سبتميوس سفيروس (١٩٣ - ٢١١ م)، وهو أول اضطهاد رسمى تقوم به الإمبراطورية الرومانية ضد المسيحيين فى مصر بصفة خاصة . وتـتلخص حـوادث هـذا الاضطهاد فى أن سفيروس قام بزيارة لمصر فى عام ٢٠٢م وأثناء هذه الزيارة هاله وأفزعه ما أحرزته المسيحية من انتشار سريع، وخشى مـن كثـرة عـدد المسيحيين فى مصر على الإمبراطورية الرومانية لذلك عهد سفيروس إلى والى مصر الرومانى وكان يدعى ليتوس بأن يمحو آثار ذلك الدين، وبذل الوالـــى

الرومانى جهده لكى يجعل هذا الاضطهاد قاسيًا، وركز على الاسكندرية بنـوع خاص باعتبارها مركز المسيحية وذلك طبقا لرغبة الامبراطور.

واستمر هذا الاضطهاد طول مدة بقاء سفيروس فى مصر ولم يتوقف الا بعد مغادرته لها، وقد أقام بمصر سبع سنوات، حدث خلالها الاضطهاد.

واغلقت المدرسة اللاهوتية المسيحية أبوابها نتيجـة لهـذا الاضـطهاد، وتشتت شمل طلابها، ولازموا بيوتهم، كما فر أساتذتها وروادها الـى الخـارج نجاة بانفسهم، وكان على رأس هؤلاء فى ذلك الحين العلامة كلمنت السـكندرى واوريجين السكندرى خاصة بعد ان توفى والده المدعو ليونيداس؛ كذلك حـرم المسيحيون من الامتياز الذى تمتع به اليهود فى الاسكندرية وهو إعفاءهم مـن احراق البخور أمام تمثال الامبراطور فـى المناسـبات . وضـاعف الـوالى الرومانى ليتوس الأضطهاد للشعب، وهاجمت حملـة مـن الجنـود الرومـان البطريركية، ونهبوا أمتعتها وسلبوا الأوانى الفضية والذهبية وكل ما فيها مـن غال ونفيس، وقبض على البطريرك ديمتريوس (١٩٠-٢٣٣م) نفسه ونفى إلى اوسيم (بالجيزة) وظل بها حتى خفت حدة الأضطهاد .

وتعرض المسيحيون لصنوف شتى من العذاب، فكانوا يصلبون أو تقطـع رؤسهم، أو يحرقون بالنار أحياء، أو يلقون فى السجون، ويظلون بها حتى تفتك بهم الامراض، أو يرسلون للاسود والحيوانات المفترسة ويقال انـه فـى هـذا الاضطهاد كانت النساء تعذبن عذابا اليما . أما الرجال فتقطع رؤسهم، ورغـم ذلك واجه المصريون الاضطهاد بثبات و اصرار و عناد .

وقد ركز سفيروس هذا الاضطهاد على مصر بالذات لمعرفته بثراء مصر وثروة أهلها من القبط، وكثرة علومهم و معارفهم، فضلا عن انهم اذا اتحـدوا فسوف يمكنهم الوقوف فى وجه الرومان، خاصة وأن المسيحية بـدأت تجمـع شملهم وتؤلف كلمتهم .

ولم يؤت هذا الاضطهاد بالثمار المرجوة منـــه بـــل علـــى العكـــس زاد المسيحيين ايمانا بدينهم واصرارا وعنادا على التمسك به، كذلك لم يزد المسيحية الا انتشارا . وبذلك ذهبت جهود الامبراطور للقضـــاء علـــى المســـيحية أدراج الرياح، وليس أدل على ذلك من ان عدد اساقفة الاسكندرية ارتفع من ثلاثة الى عشرين أسقفا فى نهاية حكم سفيروس وعند نهاية حكم البطريرك ديمتريـــوس (١٨٨-٢٣٠م).

وفى عهد الامبراطور **دكيوس** (٢٤٩ - ٢٥١م) جرت عـــدة محـــاولات للقضاء على المسيحيين. فقد حكم الإمبراطورية قبل دكيوس الإمبراطور فيليب العربى وكانت زوجته مسيحية، وساد اعتقاد بأن فيليب كـــان أول إمبراطـــور اعتنق المسيحية وآمن بها، وهنأ المسيحيون فى عهده، وأن كان البعض يتشكك فى ذلك، لذلك شن دكيوس حربا لا هوادة فيها علـــى المســـيحيين اكليروســـا و شعبا، وأصدر فى عام ٢٥٠م مرسوما عرف باسم "مرسوم التحريم" حرم فيـــه دكيوس (القول بالنصرانية) وكان هذا المرسوم يحتم على المواطنين حمل شهادة تتضمن الاشارة الى أن حاملها قام بقديم القرابين والاضاحى للالهـــة الوثنيـــة، وسكب الزيت أمامها، وتذوق طعم الذبيحة كنوع من الولاء للامبراطور، وهـــذا يعنى أنه غير مسيحى لان المسيحيين رفضوا تقديم القرابين، ولتنفيذ هذا القرار خصص فى كل مدينة من مدن الامبراطورية لجنة تتكون من خمســـة أفـــراد، وتصدر هذه اللجنة أوامرها الى أى فرد - مشكوك فيه وفى أمر عقيدته - بأن يقدم الاضاحى للآلهة و من بينها الامبراطور بطبيعة الحال وعندما يـــتم ذلـــك على نحو ترتضيه اللجنة تعطيه الشهادة أو البراءة من أى اتهام وقد تم العثـــور على عدد كبير من هذه الشهادات، جاء معظمها من الفيوم.

أما اذا تمسك المسيحى بعقيدته ورفض ما أمر به توجـــه اليـــه التهمـــة، ويقبض عليه ويلقى به فى السجن ويترك بدون طعام أو شراب لارغامه علـــى الارتداد عن عقيدته . وفى بعض الاحيان كان عقاب من يرفض تقديم الذبيحـــة

أن يكون هو الذبيحة التى تقدم للأوثان . ونتيجة لذلك اضطر بعض المسـيحيين لتقديم القرابين والاضاحى، فى حين حصل بعضهم على تلك الشهادات(*) عـن طريق الرشوة . وأطلق على هؤلاء حملة (البراءات المـزورة) أمـا الغالبيـة العظمى من المسيحيين فقد تحملوا الاضطهاد والتعـذيب والضـرب بالعصـى والرجم بالحجارة والاحراق بالنار، حتى استشهد الكثيرون مـنهم فـى سـبيل عقيدتهم، ولجأ بعضهم الى الهرب والاختفاء فى الصحراء، ويقول ديونيسـيوس أسقف الاسكندرية فى وصف أضطهاد دكيوس هذا :"وهل هناك حاجة الى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا فى الصحارى والجبـال، وهلكـوا مـن الجـوع والعطش والامراض أو بفعل اللصوص والوحوش الضارية".

وكان اضطهاد دكيوس اضطهادا عاما اذا أستشهد فيه أسقف روما وأسقف أورشليم وأسقف أنطاكية وأسقف الاسكندرية كما شمل الامبراطورية بأسـرها، هذا فى حين كان الاضطهاد يتسم فيما سبق بالطابع المحلى . على أيـة حـال أنتهى اضطهاد دكيوس فى عام ٢٥١م بنتائج عكسية اذا ساعد علـى انتشـار المسيحية فبطولة الشهداء جذبت عددا كبيرا من الوثنيين الى هذا الـدين حتـى يذهب البعض الى القول بأن "دماء المسيحيين تعتبر البذور التى نبتت ونشـأت منها المسيحية " وكذلك عمل من هرب من المسيحيين الى الصحراء والجهـات النائية على نشر المسيحية فى تلك الاماكن .

مراسيم التسامح :

مرسوم التسامح الاول ٢٦١م :

وما لبثت المسيحية أن نعمت بفترة من الهدوء والسلام بعد ما عانته من

(*) الشهاده او البراءة تتضمن أسم صاحبها وأسم والده، والمكان الذى ولد فيه، وتوقيع كاتبها؛ والشهادات أم فرديه يصدق عليها مندوب واحد،أو جماعه يصـدق عليهـا اثنـان مـن المندوبين أو اكثر .

اضطهادات، ودامت فترة الهدوء هذه أربعين عامـــا، اذا أصـــدر الامبراطـــور جاللينوس (٢٥٣ - ٢٦٨م) قرارا فى عـــام ٢٦١م بالتســـامح مـــع أصـــحاب الديانات المختلفة بما فيهم المسيحيين. ومن الأسباب التـــى دفعتـــه الـــى ذلـــك الأخطار الخارجية التى كانت تهدد الامبراطورية فى عهده،ومنها هجوم القـــوط علي الحصون الدفاعية على طول الراين والدانوب،وتعرض بلاد الغال واسبانيا لهجمات الجرمان وخاصة الفرنجة،كذلك تعرضت مناطق البلقان واسيا الصغرى وسواحل بحر ايجه لهجماتهم .اما في الشرق،فقد تعرضت حدود الامبراطورية لهجمات الفرس بقيادة شابور الاول الذى شن هجماته على بلاد ما بين النهرين و بلاد الشام وقبادوقيا الى جانب مشاكل الامبراطورية الخاصة ممثلة في انتشار قطاع الطرق في الاحراش والصحاري لقطع الطريق علـــي القوافـــل،وتعرض الامبراطورية لزلازل وبراكين كما حدث فى أسيا الصغرى وايطاليا وانتشـــار الاوبئة الفتاكة ببعض اقاليمها ومنها مصر التى ظهر فيها الوباء وانتشر منهـــا الى باقى ارجاء الامبراطورية. وقد ترتب على تلك الكـــوارث انهيارالاقتصـــاد الامبراطورى. واعترف فى هذا المرسوم بأن المسيحية مسموح بها، وســـمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم مع عدم تعرض الوثنيين لأماكن عبادتهم، وأمـــر كذلك بأن يرد للمسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم .

ونتيجة لذلك دخل عدد كبير من الأغنياء فى المسيحية، وشيدت الكنـــائس الضخمة فى كثير من المدن ؛ وهناك قائمة رسمية ترجع الى عام ٣٠٠م تشـــير الى وجود كنيستين فى أهناسيا (بنى سويف). هذا وتـــولى أثريـــاء المســـيحيين بعض الوظائف العامة، بل أصبحوا حكاما للولايات، واحتل عدد منهم المناصب العليا فى البلاط الامبراطورى . كما أتاحت فتره السلام والهدوء هذه للكنيسة أن تستكمل بناءها وتنظيمها الداخلى.

وهكذا أقدم الامبراطور جالينوس على خطوه جريئة لـــم يســـبقه اليهـــا إمبراطور، وسبق بها ما صدر فيما بعد من مراسيم للتسامح فـــى عـــام ٣١١ م على يد جاليريوس . وفى عام ٣١٣ م على عهد قسطنطين و ليكينيوس.

الاضطهاد زمن دقلديانوس (٢٨٤ -٣٠٥ م)

وبعد فترة التسامح والهدوء والسلام التى نعمت بها المسيحية و التى استمرت أربعين عاما،شهد العالم المسيحى أكبر موجة من موجات الاضطهاد والتى تعرضت لها المسيحية من قبل وذلك فى عصر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ -٣٠٥م) .

يختلف المؤرخون حول تحديد أسباب هذا الاضطهاد الذى شهده عصر دقلديانوس فيرى أحد المعاصرين أن سبب الاضطهاد إنما يرجع الى النزاع العقائدى الذى نشأ بين الفرق المسيحية المختلفة، على أن هذا لا يبدو معقولا لأن الاختلاف حول مشاكل العقيدة لا يهم الدولة فى شي وبالتالى لا يمكن أن يكون بأى حال من الاحوال سببا فى الاضطهاد .

ويسوق لنا مؤرخ معاصر آخر حادثة طريفة يعتبرها شرارة البدء فى هذا الاضطهاد، فيذكر أن الامبراطور أراد استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للامبراطورية، وذلك أثناء قيامه مع قيصره جاليريوس بتقديم الأضاحى للألهة، وتصادف فى ذلك الحين وجود عدد من المسيحيين من موظفى البلاط أثناء الاحتفال . غير أن العرافين عجزوا عن التنبؤ بشئ فأعادوا الكره ثانية دون جدوى، وأخيرا ذكروا أن ذلك أنما يرجع الى وجود أفراد ملحدين مدنسين فى الاحتفال. وعندئذ جن جنون دقلديانوس -كما يذكر ذلك المؤرخ- وأمر بأن يقدم كل من يقيم فى القصر -وليس الموجودين فى الاحتفال فحسب- القرابين للالهه وأن يجلد كل من يرفض عمل ذلك ولم يكتف الامبراطور بذلك، بل أصدر أوامره الى قادة الجيش بأن يتأكدوا من تنفيذ الجنود جميعا لهذه التعليمات وإلا تعرضوا للطرد من الخدمة نهائيا، وتم ذلك تحت ضغط وإلحاح من جانب جاليريوس .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن السبب الذى دفع دقلديانوس الى

اضطهاد المسيحيين هو اكتشافه مؤامرة دبرها بعض المسيحيين ترمى الى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة . على انهم لا يذكرون دوافـــع المســـيحيين لتدبير هذه المؤامرة، وهو الذى أبدا لهم من التسامح الكثير خلال فتره طويلـــة من عهده . ويرى فريق آخر أن عددا ليس بالقليل من أفراد الجيش كـــان قـــد أعتنق المسيحية، وامتنع بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنيـــة وخاصـــة تقـــديم الاضاحى وإحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور، وكان هذا الأجراء يدل على الولاء للإمبراطور رأس الدولة . ولهذا أدرك دقلديانوس أن هذه العقيدة ســـوف تعصف بولاء الجنود لشخصه، وهذا أخشى ما كان يخشاه الامبراطور.

هذا فى حين يرى فريق ثالث أن عددا من موظفى القصر والخـــدم مـــن المسيحيين كانوا يخشون عاقبة ما سيحدث لهـــم عنـــدما يخلـــف جـــاليريوس الامبراطور دقلديانوس على العرش، وذلك لما يعرفونه عنه من عداء للمسيحية والمسيحيين، فسعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافـــة العرش،وتعيين من يميل الى المسيحية والمسيحيين،وآثار ذلك ارتياب جاليريوس فيهم، وكان على علم بما يحمله له المسيحيون من حقـــد دفـــين، ولـــذلك عقـــد جاليريوس اجتماعات سرية مع الامبراطور أقنعه من خلالها بـــأن المســـيحيين يتآمرون عليه .

ومن ثم حاول البعض إبعاد التهمة عن دقلـــديانوس وإلصـــاقها بقيصـــره جاليريوس الذى كان الد أعداء المسيحية وقد تأثر جاليريوس بأمه التـــى كانـــت تهوى آلهة الجبال وتضحى لها باستمرار، وحدث ذات مرة أنها لم تجد أحدا من أفراد أسرتها يشترك معها، لأنهم دخلوا المسيحية جميعا لذلك تســـلطت عليهـــا رغبة جامحة للخلاص من المسيحيين، وأوحت الى أبنها جـــاليريوس بـــذلك . وتعرض دقلديانوس لضغط وإلحاح من جانب جاليريوس بضـــرورة استئصـــال شأفة المسيحيين، ونظرا لأن دقلديانوس كان يخشى جاليريوس،ويقيم له اعتبارا

منذ انتصاره على الفرس فان دقلـديانوس أقـدم علـى اضـطهاد المسـيحيين لارضائه. ولكن هل يعقل أن رجلا مثل دقلديانوس قام بحركة إصلاح واسـعة النطاق أنقذ بها الامبراطور من الانهيار، رجل تمتع بمقدرة اداريه فائقة، هـل يعقل أن يستسلم ببساطه لإلحاح أحد اتباعه ويقدم على اتخاذ خطوات غاية فـي الخطورة لا لشيء سوى لأن قيصره أراد ذلك ؟

أما عن الاضطهاد فقد تضمن اربعة مراسـيم، يقضـي المرسـوم الاول بتدمير الكنائس المسيحية، واحراق الاناجيل والكتب المقدسة، ومصادرة امـلاك الكنائس، وحرمان المسيحيين الاشراف من التمتع بامتيازات هذه الطبقـة التـي ينتمون اليها، هذا فضلا عن انه اعتبر المسيحيين جميعا خارجيين عن القـانون وحرمهم بذلك من حق الدفاع عن حقوقهم امام المحاكم. اما المرسـوم الثـاني والثالث فينصان على القبض على كفة رجال الاكليروس بمختلف طبقاتهم، وعدم الافراج عنهم الا بعد أن يقدموا القرابين والأضحيات للآلهة وقد صدرت هـذه المراسيم الثلاثة فى عام ٣٠٣م. اما المرسوم الرابع فيلزم كل فرد فـي الدولـة بتقديم الاضحيات للآلهة وبتعذيب كل من يتمسك بالمسيحية، واطلاق سراح من يكرم الآلهة وصدر هذا المرسوم فى عام ٣٠٤م.

وعندما أذيع المرسوم الأول بتدمير الكنائس ثار أحد المسيحيين وهو شاب يدعى مارجرجس الكبادوكى على هذا المرسوم، فقبض عليه الحرس، وأشـعلوا فيه النيرآن، ويقال أنهم قاموا باحراق جسده عضوا عضوا حتى الموت.

ومما زاد الأمر سوء اشتعال النيران مرتين على مـدى أسـبوعين فـي القصر الامبراطورى فى نيقوميديا بفعل حريق غامض وبطبيعة الحال وجهـت أصابع الاتهام نحو المسيحيين، خاصة وأن فكـرة إشـعال الحريـق ارتبطـت بالمسيحية منذ ظهورها. وبعد الحريق الثانى للقصر الإمبراطوري ألقى القبض على عدد كبير من المسيحيين وعذبوا حتى يعترفوا بارتكاب جريمـة الحـرق

العمد، كذلك صدر المرسوم الثانى الذى يقضى بالقبض على القساوسة والكهنة وجميع رجال الدين. ويعزو البعض تدبير حادثى الحريق إلى جاليريوس نفســه قائلا : "أنه أفتعلهما لاثارة دقلديانوس ضد المسيحية".

وما لبث الاضطهاد أن أصبح عاما وشاملا، فسيق القســس والمــوظفين وعائلاتهم من المسيحيين الى الحريق أو القتل زمرا، وامتلأت السجون بأعــداد كبيرة من المسيحيين. ويفصل المعاصرون لعمليات الاضطهاد هذه التى شهدها عهد دقلديانوس لدرجة أنهم يفردوا له فصولا بأكملها فى كتبهم .

اضطهاد دقلديانوس فى مصر

يجب أن نذكر فى البداية أن دقلديانوس بدأ حكمه بسياسة من اللين تجــاه أهل مصر وبخاصة مدينة الإسكندرية، فقد قام بتحصين بوابة مصر الجنوبيــة فى أسوان، لحماية أهل الصعيد من هجمات أهل النوبة.

كما قام دقلديانوس بتوزيع قدر من محصول القمح المصرى، الذى كــان يشحن إلى روما، على أهالى الإسكندرية عندما أصيبت المدينة بالمجاعة، وقــد قابل السكندريون هذه اللفتة الإمبراطورية الكريمة، بإقامة عمود من الجرانيت، وتمثال لدقلديانوس، ولا يزال هذا العمود قائما حتى اليوم ولكن التمثال قد زال.

لابد من القاء نظرة سريعة على اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين فى مصر بصفة خاصة والذي ترجع أسبابه إلى ثورة اخيليوس وزعيمها الحقيقى لوكيوس دومينوس، المكنى باسم اخيليوس. ذكر البعض أنه رومانى، وكان مــن طبقــة السناتو، وقيل أنه كان من كبار تجار الاسكندرية، وقيل أنه كان أحــد ضــباط الفيلق الرومانى بالإسكندرية، وقرر الكفاح من أجل مصر المستقلة. بدأت الثورة فى طيبة، وامتدت شرارتها حتى وصلت إلى الاسكندرية. أما عن أسبابها فكانت الإصلاح الإدارى الذى حدث فى الاسكندرية عام ٢٩٧م، وكذلك إلغاء العملــة الوطنية، الاستياء العام من الإصلاح النقدى، علاوة على أسباب اقتصادية منهــا

الركود الاقتصادى وغلاء الأسعار وسياسة الضرائب وغيرها.

ونجح أخيليوس بهذه الثورة فى الاستقلال بمصر، ونادى بنفسه حاكماً عليها، واتخذ من طيبة عاصمة له ومقراً، وأقام فيها أربع سنوات، لم يستطع جاليريوس خلالها أن يخضعه، فجاء دقلديانوس بنفسه إلى مصر ليقتص من اخيليوس على هذه الجرأة، ويخلص البلاد من يده. وفر اخيليوس بعد أن حاصر دقلديانوس الاسكندرية على مدى ثمانية أشهر، أصبيت المدينة خلالها بالخراب وكسدت بها حركة التجارة بشكل ملحوظ، وبعد أن قضى على الثورة فى كل أنحاء مصر قام بقطع إمدادات المياه عن الاسكندرية مما أصابها بالمجاعة، وأجبر أهلها على التسليم. وتصور دقلديانوس أن المسيحيين أثاروا هذه الفتنة وناصروا اخيلوس لذلك راح يضطهدهم، وقام بمصادرة ممتلكات عدد من أهل الاسكندرية ظنا منه أنهم كانوا عونا لاخيلوس.

وقد ارجع البعض سبب الأضطهاد إلى محاولة دقلديانوس إجبار الكنيسة على الخضوع للدولة شأنها فى ذلك شأن بقية الهيئات والمنظمات الأجتماعية فى الدولة الرومانية، أما كون الكنيسة هيئة مستقلة فأنها تصبح دولة داخل الدولة، وهذا أمر يتعارض مع مبدأ خضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة. ولهذا السبب راح دقلديانوس يفتك بالمسيحيين واوقع بهم وقتلهم وهدم كنائسهم، واستعمل معهم مختلف اساليب الظلم والجور، وعاث جنوده فى الأرض فساداً، وأهلكوا الحرث والنسل، وقتلوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهاراً . واستمر دقلديانوس يعذب المسيحيين بل وأرغمهم على السجود للأوثان مما دفع الكثيرين إلى الفرار .

وقد وصف يوسابيوس ذلك الاضطهاد بقوله : " أنه يصعب على الكاتب الماهر ان يصف ما تجرعه الشهداء في صعيد مصر من عذاب قاس وآلام تشيب لها النواصى، فقد كانوا يأتون بهولاء الشهداء ويمزقون أجسادهم

وينزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم، وهكذا يفعلون بباقى أجزاء الجسم الى ان يموتوا ." وذكر البعض أن عدد من قتلهم دقلديانوس من المسيحيين بلغ حوالى ثمانمائة الف شهيد، ومن بين الشهداء القديسة دميانة والعذارى الأربعين فى الدلتا، والقديسة كاترين فى الإسكندرية وعدد من أساقفة الإسكندرية .

أما عن **نتائج** هذا الاضطهاد فيمكن ان نوجزها فيما يلى:

١- استشهد عدد كبير من المسيحيين خاصة فى مصر نتيجة لهذا الاضطهاد، بدليل ما ذكره البعض من أنه لو وضع شهداء العالم كله فى كفة ميزان، ووضع شهداء مصر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة شهداء مصر، مما يدل على كثرتهم. لذلك لا عجب أن اعتبرت الكنيسة القبطية عصر دقلديانوس "عصر الشهداء" ولا زالت تؤرخ الأحداث بعصره، كما اعتبرت عام ٢٨٤ م الذى تولى فيه العرش بداية للتقويم القبطى.

٢- ازداد المسيحيون تمسكا بدينهم وعقيدتهم، كما ازدادت المسيحية انتشارا، فقد جذبت سير أولئك القسس والقديسين الشهداء وبطولاتهم عدد كبير من الوثنيين، ودفعتهم الى الدخول فى الديانة المسيحية واعتناقها.

٣- انتشار المسيحية فى المناطق النائية عن طريق أولئك المسيحيين الذين تعرضوا للنفى خارج الاسكندرية عقابا لهم على اعتناقهم المسيحية، فقام هؤلاء بنشر الدين الجديد فى تلك المناطق التى نفوا اليها.

على هذا النحو أتى الاضطهاد بنتائج عكسية اذ ساعد على انتشار المسيحية انتشار واسع النطاق وخاصة فى مدن مصر وقراها.

سياسة جاليريوس تجاه المسيحيين ومرسوم التسامح الثانى ٣١١م

أما عن سياسة **جاليريوس تجاه المسيحيين، فمن المعروف أنه كان يكن** للمسيحية والمسيحيين عداءا كبيرا منذ أن كان قيصرا فى عهد الامبراطور

دقلديانوس (٢٨٤ -٣٠٥ م)، وأنه كان المحرك الاول لعمليات الاضطهاد التـى حدثت فى عصره . هذا ويبالغ البعض فى اتهامه بأنه هو الذى دبر حريق قصر نيقوميديا ليثير كراهية دقلديانوس نحو المسيحيين. وعندما اعتلـى جـاليريوس العرش تمادى فى عدائه للمسيحيين، وصب جام غضبه عليهم فى كافة أنحـاء الامبراطورية ومن بينها مصر فأصدر فى عام ٣٠٦ م أمرا يقضى بالزام جميع الافراد بتقديم القرابين، وأمر بقتل كل من يرفض تقديم الاضاحى للآلهة الوثنية ويتخلى عن عقيدته الجديدة بما فى ذلك النساء والشيوخ والاطفال. كـذلك راح جاليريوس يتفنن فى وسائل تعذيب المسيحيين ابتداء من التشويه والتمثيل بهـم الى الاعمال الشاقة فى المناجم والمحاجر.

على أن جاليريوس ما لبث أن غير سياسته تجاه المسيحيين اذ اصدر فى ابريل عام ٣١١ م مرسوم التسامح الدينى، جاء فيه:٠٠٠ ونحـن نـأذن لهـم بالمجاهرة بمعتقداتهم الخاصة، وبان يمارسون طقوسهم الدينية فـى جمعيـاتهم دون خوف،ونحميهم من أن يتعرضوا للأذى، طالما انهم يظهـرون الاهتمـام الواجب للقانون والحكومة٠٠٠ ونأمل بقرارنا هذا بالعفو والتسامح للمسـيحيين سوف يدعوهم الى الابتهال للمعبود الذى يقدسونه لكى يمـن علـى شخصـنا بالسلامة وعليهم وعلى الامبراطورية جميعا بالسعاده والرخاء.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المرسوم صدر باسم كـل مـن جـاليريوس وليكينيوس وقسطنطين ولم يشترك ماكسيميانوس فى اصداره وذلك لأنـه كـان يحكم القسم الغربى من الامبراطورية، وهو القسم الذى سادته الوثنية على أوسع نطاق وبه روما قلعة الوثنية.

وهكذا سمح جاليريوس بمرسومه للمسـيحيين أن يجهـروا بمعتقـداتهم الخاصة ويمارسوا شعائرهم الدينية دون خوف وفتح كنائسهم فى جميع أنحـاء الامبراطورية، واصلاح ما تهدم منها بشرط أن لا يقوموا بأى عمل ضد القانون

أو ضد الحكومة أوضد النظام العام، وبشـرط اخـر هـو أن يـذكروا اسـم الإمبراطور فى صلواتهم بالخير ويدعون له وللامبراطورية بالرخاء والسـعادة والسلام، واصدار عفو شامل عن جميع المسيحيين واخراجهم من السجون. ومن ثم يعد هذا المرسوم اعترافا صريحا من جانب جاليريوس بما أقدم عليـه مـن تحديات للمسيحيين، كما أنه يعتبر فى نفس الوقت دليلا واضحا على فشل سياسة الاضطهاد، التى سار عليها جاليريوس خاصة وان هذه السياسة استمرت عـدة سنوات دون جدوى، كما أنها أدت إلى تعطيل مصادر الدخل فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة، وتدهور الحياة الاجتماعية، وانتشار المجاعات بين الطبقات الدنيا، هذا إلى جانب إضعاف الجيش مما جعل جاليريوس يدرك خطورة هـذه السياسة على الامبراطورية خاصة وانه ركز ضرباته ضد الجنود المسيحيين فى الجيش.

اما عن الدافع الذى حدا بجاليريوس الى اصدار هذا المرسـوم، فيـذكر المعاصرون أن جاليريوس دهمه مرض عضال، فاعتقد أن اله المسـيحيين قـد انتقم منه بهذا الداء. وفى اثناء مرضه ادرك عدوم جدوى الاضـطهاد، فقـرر وقف المذابح البشرية ضد المسيحيين، واصدر قراره بالتسامح فى عـام ٣١١م. غير أن هذا المرسوم لم ينفذ تماما فى كـل انحـاء الامبراطوريـة اذ تـوفى جاليريوس بعد اصداره بوقت قليل ،فى مايو من نفس العام.

المرسوم الثالث للتسامح المعروف خطأ باسم :-

مرسوم ميلان والاعتراف بالمسيحية (٣١٣م) :

وسرعان ما نالت المسيحية قسطا كبيرا من التأييد والانتشار، وذلـك بعـد اصدار المرسوم الذى عرف خطأ بمرسوم ميلان فى عام ٣١٣م،اذ أثبتت الدراسات التاريخية ان تسمية هذا المرسوم الذى اصدره كل من قسطنطين وليكينيوس والذى عرف بأسم "مرسوم ميلان" تسمية غير صحيحة وانه عبارة عن رسالة بعث بهـا

ليكينيوس الى حاكم نيقوميديا فى آسيا الصغرى يوضح فيها سياسة الحكومة تجـــاه المسيحيين فى تلك الانحاء، وهى عبارة عن تأكيد سياسة التسامح.

ويذكر بعض المؤرخين ان ما سمى بمرسوم ميلان لم يكن شيئا جديـــدا، انما هو تجديد لمرسوم التسامح الذى سبق ان اصدره جاليريوس فى عام ٣١١م.

على أية حال اصبحت المسيحية بمقتضى مرسوم ٣١٣م ديانة مـــرخص ومصرح بها داخل الامبراطورية الرومانية، ولم يعد اتباعها مهددين بالقتـــل أو التعذيب او الحرق. وتمتع المسيحيون بمقتضى هذا المرسوم بممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة، وفى اختيار المسيحية دينا لهم دون عقاب، كذلك اســـتعاد المسيحيون بمقتضى هذا المرسوم ممتلكاتهم، التى فقدوها اثناء فترة الاضـــطهاد وذلك دون طلب تعويض او دفع أى شئ، كذلك تم اعفاء رجال الدين المسيحى وفقا لهذا المرسوم من الالتزامات الاجبارية مع الاعتراف بالكنيسة وممتلكاتها. ومن ثم يعد هذا االمرسوم اعترافا حكوميا، غدت المسيحية بمقتضاه على قـــدم المساواة مع الديانات الاخرى داخل الامبراطورية، واضحت دينا شـــرعيا بعـــد ثلاثة قرون من الاضطهاد، وساد الكنيسة سلاما طلما تاقت اليه.

اختلف الباحثون حول **(الدوافع)** التى ادت الى اصدار هذا المرسوم، فمنهم من يعتبرها دوافع دينية، ومنهم من ارجعه الى اسباب سياسية.

اما عن الدوافع الدينية فيروى لنا المؤرخ الكنسى يوسيبيوس القيصـــرى وصديق الامبراطور قسطنطين أن قسطنطين قص عليه انـــه رأى فـــى ســـنة ٣١٢م قبيل خوضه معركة جسر ملفيان ضد خصمه ماكسنتيوس صليبا نورانيا على قرص الشمس يحيط بالأفق عند الغروب، مكتوبا عليـــه بهـــذا ستنتصـــر En hoc vinces، وفى الليلة التالية واثناء نوم قسطنطين شاهد فى رؤياه الســـيد المسيح حاملا معه نفس الشارة، ومخبرا الامبراطور بأن يتقدم الـــى المعركـــة ومعه الصليب. ويقال ان قسطنطين استطاع أن ينتصر بالفعل فى معركة جسر

ملفيان، التى اتاحت له السيادة على الغرب بفضل هذه الشارة، ولـذلك اعتقـد قسطنطين بأن اله المسيحيين كان عونا له فى قتاله مع خصمه.

ويقال أيضا أن قسطنطين تأثر بأمه القديسة هيلانة التى اعتنقت المسيحية وزارت بيت المقدس، حيث وزعت الهبات بسخاء، وساهمت فى تشييد الكنائس. ويقال ايضا انها اكتشفت صليب الصلبوت، الذى يقال أن السيد المسيح صـلب عليه أثناء زيارتها لبيت المقدس، وعادت به إلى بلادها. غير أن المعاصرين لم يذكروا شيئا عن دور هيلانة فى مسألة العثور على خشبة الصليب، كما يـرجح بعض الباحثين انها توفيت قبل اكتشافه، على أى حال كان لهذا الخبر تأثير كبير على المسيحيين، ومن ثم رفعتها كنيسة الروم الارثوذكس إلى مصاف القديسات وأصبحت تسمى باسم القديسة هيلانة.

أما عن الـدوافع السياسـية فيـرى الـبعض أن قسـطنطين وجـد أن الامبراطورية سوف تعتمد بشكل رئيسى فى مواردها المالية على ولاياتها فـى اسيا الصغرى والشام ومصر حيث انتشرت المسيحية، ولذلك رأى قسطنطين أن من الضرورى كسب ولاء سكان الولايـات الشـرقية حفاظـا علـى وحـدة الامبراطورية.

كذلك شعر قسطنطين بالخطر الذى يهدد الامبراطورية نتيجة للانقسـام الذى شهدته وأحس أنه يمكن توحيدها عن طريق الدين، وذلـك فـى حالـة اذا مااعتنق شعبها دين واحد له نظام واحد، وقد وجد قسطنطين فى المسيحية هدفه المنشود، ووجد فى المسيحية خير عون له فى كفاحه المقبل ضد منافسيه علـى السلطة وكفاحه من أجل توحيد الامبراطورية،وقد استعان قسـطنطين بالفعـل برجال الكنيسة فى تسكين خواطر رعايا الامبراطورية،كما ساعدوه في تحقيـق الامن والاستقرار.

كان قسطنطين يسعى للخلاص من شـريكه ليكينيـوس لينفـرد بحكـم

الإمبراطورية، وكان فى حاجة ماسة إلى أنصار وأعوان يناصروه ويـــؤازروه، فوجد فى المسيحيين قوة كبيرة ومؤثرة فى ساحة الصراع، كما كان معجباً بغيرة المسيحيين الشديدة على دينهم بدرجة تفوق الأديان الأخرى التى كانت سائدة فى ذلك الحين فى الإمبراطورية، ورأى قسطنطين أن هذه الغيرة هى التى ســتربط الإمبراطورية برباط قوى، لأنه كان يسعى إلى ربط الإمبراطوريـــة واشـــلائها المتداعية برباط قوى ومتين مهما كان الثمن، حتى ولو كان هذا الربـــاط هـــو المسيحية، لذلك شرع فى إصدار مرسوم ميلان.

كذلك أدرك قسطنطين بذكائه أن المسيحية سوف تصبح قوة عالمية بدليل أن اضطهاد المسيحيين لم يعق انتشارها بل زاد انتشارها وزاد المسيحيين تمسكا بها. كما ادرك أن المسيحية أكثر انتشارا بالشرق أى فى ولايات آسيا الصغرى ومصر والشام، وهذه الولايات هى عصب الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية، اذ تمدها بالموارد المالية وخاصة القمح والنقود، لذلك رأى من الضرورى كسب ولاء سكان هذه الولايات وذلك بتأييد المسيحية والاعتراف بها.

كما أن ماتدعو إليه المسيحية من مبادئ عظيمـــة كالمســـاواة والمحبـــة والايثار تستطيع بهذه المبادئ أن تشبع حاجات الناس النفسية مع قصور الوثنية فى ذلك الوقت.

أما عن **(النتائج)** التى ترتبت على الاعتراف بالمسيحية ديانة مـــرخص بها فى الامبراطورية فهى تثبيت دعائم المسيحية وتمهيـــد الارض لازدهارهـــا وانتشارها، ازدادت الكنائس غنى نتيجة ما كان يصل اليها من هـــدايا وامـــوال وهبات وارض واملاك من الدولة ومن سكان الامبراطورية، واعفى المسيحيون من حضور حفلات الوثنية، بل ويقال أن قسطنطين امر بتشييد عدد كبير مـــن الكنائس فى كافة انحاء الامبراطورية مثل كنيسة القديس بطرس فـــى رومـــا، وكنيسة الصعود وشيدت على جبل الزيتون، وكنيسة المهد فى بيت لحم وغيرها

من الكنائس، التى تم تشيدها في انطاكية ونيقوميديا وغيرها،فضلا عن ذلك تمتع رجال الدين من المسيحيين بنفس الامتيازات التى تمتع بها الكهنة الوثنيون .

كنيسة الاسكندرية والجدل حول طبيعة السيد المسيح:

صحب ظهور المسيحية فى مصر وانتشارها ظهور عدد من المذاهب حول طبيعة السيد المسيح، ولم ترتبط هذه المذاهب بكنيسة الاسكندرية فحسب بل ما لبثت أن انتشرت فى جميع انحاء القطر المصرى بل وفى الامبراطورية الرومانية كلها.

شهدت كنيسة الاسكندرية خلافا دار حول العلاقة بين الاب والابن خلافا دار بين مذهبين هما مذهب أريوس (٢٥٦-٣٣٦م) ومذهب اثناسيوس (٢٩٦-٣٧٣م).

أولا: مذهب اريوس (الاريوسية) Ariusism

اريوس هو احد قساوسة الاسكندرية وكان من اصل ليبى اذ ولد فى ليبيا سنة ٢٥٦م وتعلم فى انطاكية على يد معلمه لوقيانوس Lucianus،(*)- ثم ام الاسكندرية حيث انخرط فى سلك الكهنوت، وكان واسع الاطلاع والعلم، حتى قيل أنه لم يغادر من المعرفة صغيرة ولاكبيرة الااحصاها، كما كان واعظا مؤثرا يجيد الاقناع والوعظ والارشاد وكان عالما زهدا متقشفا، ولذلك التف حوله عدد من المؤمنين، لاسيما عذارى الاسكندرية اللواتى نذرن أنفسهن للعمل

(*) لوقيانوس Lucianus كان كاهناً لكنيسة انطاكية (ت٣١٢م) يتحدث عنه جيروم فيذكر "أنه كان رجلاً صاحب عقلية متقدة الذكاء، متعمقاً فى دراسة الكتاب المقدس وتفسيره بل لازالت بعض نسخه حتى الآن تحمل اسم لوقيانوس. ترك العديد من المؤلفات من أهمها كتابه (عن الإيمان) ووصفه يوسيبوس بأنه كان "أعظم من عرفهم معرفة بالعلوم الإنسانية، معتدلاً فى حياته" وقام لوقيانوس بتحقيق وتنقيح نص التوراة، كما لعب دوراً كبيراً فى تقدم دراسة اللاهوت فى مدرسة انطاكية.

الصالح، الى جانب عدد من رجال الاكليروس الذين فضلوا الاصغاء اليه والعمل بنصائحه. ويبدو انه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل. ورسم أريوس فى عام ٣١٠م شماسا(*) على يد بطرس بطريرك الاسكندرية. ورقى عام ٣١٣م الى مرتبة القسيس بعد وفاة بطرس بطريرك الاسكندرية.

ونظرا لتعلم أريوس فى مدرسة انطاكية، فقد ظل محافظا على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها فى الاسكندرية، وسرعان ماصاغ آراء مستقلة فى العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة. فاعتقد أريوس فى المذهب القائل بأن المسيح ليس الا مخلوقا جاء من العدم، وليس من نفس المادة الالهية، وأنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الاله لأنه من صنيعته وبالتالى فهو اقل مرتبة منه. أى أن الابن لايساوى الأب فى الجوهر. وينكر أريوس بذلك لاهوت المسيح أى أنه ليس الها حقا، وانه كان يريد بتعاليمه وآرائه هذه أن يؤكد وحدانية الله.

على أن افكار أريوس وآرائه هذه كانت تتعارض مع بعض العقائد السائدة التى كانت تؤكد الوهية السيد المسيح وأنه (الكلمة) وأنه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه فى ذلك شأن الأب والروح القدس، ومن هنا حدث انقسام فى كنيسة الاسكندرية، فراح فريق يؤكد آراء أريوس وفريق أخر يعارضها وكان على اسكندر بطريرك الاسكندرية ان يتدخل لحسم الخلاف بين اتباع مذهب أريوس وخصومه، وعقد بالفعل فى عام ٣١٩ -٣٢٠ م مجمعا فى الاسكندرية، شهده قساوسة مصر وليبيا، وكان برئاسة اسكندر ومستشاره اثناسيوس، وناقش هذا المجمع آراء أريوس وفى النهاية أدان هذا المجمع أريوس، وقرر حرمانه من الكنيسة بل وطرده من مصر، كما قرر حرمان

(*) من مهامه خدمة الفقراء والمحتاجين، والقيام بالوعظ والتبشير، فهو خادم فى الكنيسة.

جميع القساوسة الذين أيدوا آراء أريوس وأفكاره.

وعلى الرغم من ادانة تعاليم اريوس الا أن افكاره لاقت رواجا بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الاسكندرية، هذا بالاضافة الى أن كثير من المثقفين قد اتخذوا جانب اريوس ايمانا منهم بأن عقيدته هى الحــق، بينمـــا تعاطف معه فريق آخر وضع فى اعتباره أن اتبـــاع أريـــوس أنمـــا أســـيئت معاملتهم، وأن حرمانهم ليس من العدالة فى شئ . كذلك سعى انصار أريـــوس الى نشر تعاليم الأريوسية خارج مصر، أى فى مدن الامبراطوريـــة الاخـــرى، فارسلوا مندوبين الى تلك المدن، وزودوهم بمكاتيب بمغزى وفحوى عقيـــدتهم . ونتيجة لذلك انتشرت الأريوسية فى فلسطين وليبيا وآســـيا الصـــغرى انتشـــارا واسعا، وبدأ بطريرك الاسكندرية يشعر بالقلق من انتشار تعاليم أريوس، ولذلك راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس فى الولايات الشرقية، وحـــثهم علـــى مقاومة دعوة اريوس فى مناطقهم بكل ما اوتوا من قوة . كذلك عقد مجمعا آخر فى عام ٣٢١م فى مدينة الاسكندرية، حضره اكثر من مائة اسقف، وتقرر فـــى هذه المجمع لعن أريوس واتباعه.

ولم ييأس اريوس، ورحل من الاسكندرية واتجه نحو فلسطين، ومنهـــا الى نيقوميديا حيث يوجد صديقه يوسيبيوس الذى كان يحتل مركزا مرموقا فـــى القصر الامبراطورى، وراح يشكو اليه ما نزل به وبرفاقه من اضطهاد على يد اسكندر بطريرك الاسكندرية . ولذلك قرر يوسيبيوس عقد مجمع فى عام ٣٢٢م ضم اساقفة بيثينيا، وقرر هذا المجمع اتخاذ جانب أريوس، ودعا الاساقفة الـــى نصرته والى أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة اريوس ثانية الى الكنيســـة. على أن اسكندر عارض عودة أريوس الى الكنيسة، وارسل الى الاساقفة يوضح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدته . فعد الأريوسيون رفض اسكندر هذا اهانة بالغة لهم وازدادوا تمسكا بعقيدتهم وتأييدا لها، ومالبث أريوس أن عاد الى الاسكندرية

ثانية، فعم المدينة السخط والاضطراب، وعقد أنصـــار الفــريقين العديــد مـــن المجامع لاصلاح ذات البين، على أن هذه المجامع اسفرت فى النهاية عن تعميق هوة الخلاف والنزاع بين الفريقين .

ورأى الامبراطور قسطنطين أن يتدخل – وكان فى ذلك الوقت قد فرغ من مشاكله السياسية بالانتصار على آخر منافسيه وهو ليكينيوس(٣٢٣م)- من أجل حل المشكلة الدينية التى تهدد وحدة الامبراطورية. فارسل اولا هوسيوس(١) مستشاره فى الدين مبعوثا الى كل من اسكندر وأريوس فى الاسكندرية بعــد أن قررا سويا الكتابة لكل من أريوس واسكندر، وأن يذهب هوسيوس بنفســه الـــى الاسكندرية للتحقيق من القضية الماثلة وتوجيه النصح للفــريقين، وقــد حمــل الامبراطور هوسيوس رسالة الى كل منهما، تتضمن رغبة الامبراطور وحرصه على احلال السلام فى ربوع الامبراطورية، وأوضح فيها مدى ماشعر به من الم وحزن لما حل بالكنيسة من انقسام، وان الواجـــب يقضـــى بتســـاهل الفـــريقين للوصول الى حل مرض . غير أن هوسيوس اخفق فى مسعاه وهـــو محاولـــة التوفيق بين اسكندر واريوس، اذ عقد فى الاسكندرية مجمعا فـــى عـــام ٣٢٤م، قرر حرمان أريوس واتباعه، وعاد هوسيوس بخفى حنين.

ثم رأى قسطنطين بعد ذلك ضرورة عقد مجمع مسكونى لوضع حد لهذه النزاعات .يذهب البعض الى القول بأن أنقرة حددت اولا كمكان لعقد المجمع، ولكنها مالبثت أن عدلت الى نيقية لأن مناخها الطف من أنقرة، كما انها اقـــرب الى نيقوميديا مقر حكم الامبراطور . وكذلك حتى يتمكن اساقفة ايطاليا وبـــاقى كنائس اوربا من حضور هذا المجمع . وبالفعل عقد هذا المجمع فى نيقية عـــام ٣٢٥م بناء على دعوة وجهها قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية، فـــى

(١) هو اسقف قرطبة الاسبانية وكان صديقا قديما للامبراطور، والاسقف هو المشرف على الكنيسة والمسئول عن الإدارة داخلها.

محاولة جديدة وجريئة منه لحل الخلاف والشقاق الذى حدث فى الكنيسة، ولحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم ذلك العدد من رجـال الكنيسـة فـى الشرق والغرب، واراد قسطنطين من ناحية ثالثة أن يثبـت أن سـلطانه فـوق الكنيسة، وان يظهر بمظهر الحريص على العقيدة، وتخليصها من أية شائبة.

اختلف المؤرخون حول تقدير عدد الاساقفة الذين حضروا هذا المجمـع، فقدره بعضهم ٢٥٠ اسقفا وقيل ٢٧٠ اسقفا فى حين قدره البعض الاخـر ٣٢٠ اسقفا، وفريق رابع بـ ٣١٨ اسقفا والاجماع على العدد الاخير . وكان هـؤلاء الاساقفة من سوريا وقيليقيا، وبلاد العرب وفلسـطين ومصـر وطيبـة وليبيـا وميسبوتاميا (مابين النهرين) وآسيا فريجيا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا ابيـروس وتراقيا واسبانيا، كما حضره مندوبون من فارس وبونطس .

وافتتح المجمع جلساته يوم ٢٠ مايو بعد أن حضر جميع الاساقفة ووقـع اختيار الاساقفة على هوسيوس اسقف قرطبة والاب الروحى للامبراطور واكبر الأساقفة سنا ليرأس هذا المجمع، فجلس هوسيوس عن يمين الامبراطور ورجال الدولة الذين حضروا المجمع.

ودار النقاش فى هذا المجمع حول نقطتى الخلاف بين الفريقين **اولهمـا**: مساواة الابن بالاب فى الجوهر والازلية، وبينما رأى اتباع اريـوس أن الابـن غير مشابه فى الجوهر وليس مساويا له فى الازلية، تمسك مناهضو الاريوسية بمساواة الاب بالابن فى الجوهر والازلية معا. **وثانيهمـا**: القـول بـالخلق أو الولادة، ولم يفرق اتباع اريوس بين كلمتى مولود أو مخلوق وهم يسـتخدمون اللفظين للتعبير عن معنى واحد . أما مناهضو ألاريوسية فيرون استخدام كلمـة مولود بدلا من كلمة مخلوق لأن الاخيرة تنسحب على سائر الاشياء، التى خلقت بالابن ولايصح أن يكون الابن شبيها بها . وعلى هذا فهو ليس بشـئ مخلـوق شأن ماخلقه بيده، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق . وفى هذا المجمـع

شرح اثناسيوس-الذى حضر المجمع برفقة اسكندر بطريرك الاسكندرية، الـذى رسمه قسا أثناء المجمع ليعطيه الكلمة أمام الحاضرين- شرح معنى الايمـان، وفند اراء اريوس فى براعة واقناع، اندهش لهما الحاضرون،حتى انهم اخـذوا بارائه،ومنذ ذلك الحين اكتسب الشاب اثناسيوس الذى كان فى التاسعة والعشرين من عمره شهرة عالمية ومكانا عليا .

وبعد نقاش طويل، قرر المجمع فى النهاية أن الابن مسـاو لـلاب فـى الجوهر والازلية، وحرم كل من يقول بغير ذلك، وقرر كذلك حرمان أريـوس واتباعه، ومنعهم من دخول الاسكندرية، وتمسك المجمع بأن المسـيح مولـود غير مخلوق قبل كل الدهور، وهو اله حق من اله حق . وبعد أن اقر المجمـع هذه الصفة اقترح قسطنطين اضافة لفظة واحدة، تصف العلاقة بين الاب والابن وهى أنهما من طبيعة واحدة.

بدأ الامبراطور فى تنفيذ قرارات مجمع نيقية بالفعل فأمر بنفى أريـوس وأتباعه خارج الاسكندرية، كما أرسل الى الاساقفة والاهالى فى كل مكان مـن الامبراطورية، يخبرهم بأن أريوس واتباعه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الامبراطور والاساقفة اجمعين، وأن كتابات الاريوسيين ومقالات أريوس يجـب أن تحرق، وأن من يضبط وهو يخفى أى منها سوف يموت جـزاء الخطيئـة. وظن الامبراطور قسطنطين أنه نجح بذلك فى اعـادة السـلام الـى الكنيسـة والامبراطورية ولكن ما حدث هو العكس فقد ازداد السخط، واسـتمر الخـلاف والنزاع الدينى، نحو نصف قرن.

وفى ابريل من عام ٣٢٨م مات اسكندر بطريرك الاسكندرية وتم انتخاب مستشاره اثناسيوس بطريركا وخليفة له على بطريركية الاسكندرية.

ثانيا: مذهب اثناسيوس

ولد اثناسيوس فى عام ٢٩٦م وينتمى الى أسرة مسيحية، وكـــان أبـــوه يعمل فى احدى الكنائس، وقضى اثناسيوس طفولته فى احدى الكور المجـــاورة لاخميم (بانوبوليس) بصعيد مصر، وكثيراً ما كان يتردد على أخميم مع رفاقه من الأطفال. وقد تعلم فى صباه صنعته حسب تقليد أهل مصر وهى فن البناء، ثم نزح فى صباه مع أسرته إلى ضواحى الإسكندرية. وعكف اثناسيوس علـــى تعلم اللغة اليونانية، ودراسة اللاهوت والأدب والفلسفة اليونانية السائدة آنـــذاك ويبدو أنه درس هذه العلوم فى مدرسة الاسكندرية، منارة اللاهوت والفلسفة فى ذلك الوقت، وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره الف اول كتابين له وهما : الأول بعنوان " ضد الوثنيين" ودعا فيه الوثنيين إلى ترك الوثنية والثانى بعنوان " تجسد الكلمة" وعرض فيه فكرا لاهوتيا بأسلوب علمى عن التجسد الإلهى، ثم تعرف اثناسيوس على اسكندر بطريرك الاسكندرية، ودخل فى خدمته كأبن لـــه وكسكرتير، وكان اسكندر أستاذه، وراعيه فى آن واحد اذ تلقى منـــه الرعايـــة كاملة فكرا وحياة . هذا فضلا عن أن اثناسيوس مارس حياة النسك والرهبانيـــة وكانت تربطه بالرهبان فى مصر علاقات مودة وصـــداقة وخاصـــة القـــديس انطونيوس. وبعد وفاة اسكندر سنة ٣٢٨م ارتقى اثناسيوس عرش بطريركيـــة الاسكندرية.

أما عن مذهبه فقد كان اثناسيوس يؤمن بما جاء فى مجمع نيقية ٣٢٥م من أن للمسيح طبيعة الهية، وانه مساو للأب فى الجوهر والازلية، وانه مولـــود وليس مخلوق، وقد أخذت عقيدته هذه اسم الاثناسيوسية نسبة الى اسمه. وكانت هذه العقيدة تناقض آراء أريوس، لذلك ما ان اعتلى اثناسيوس عرش بطريركية الاسكندرية فى يونيه ٣٢٨م حتى اشتد فى معاملة الأريوسيين، وأنزل بهم الوان الاضطهاد، وطرد البقية الباقية منهم من كنائسهم.

وأحس الامبراطور قسطنطين أن مجمع نيقية ٣٢٥م لم ينجح فى القضاء على الاريوسية، وأن الاريوسية لم تمت بنفى زعيمها وأن خطرها لازال باقيا، ورأى ضرورة ايجاد نوع من التوازن، وهذا ربما يتحقق باعادة أريوس الى الكنيسة واصدار العفو عنه، فبدأ يكتب له يدعوه للعودة الى حظيرة الايمان القويم. وتحت ضغط والحاح الامبراطور جاء أريوس الى القسطنطينية، فاستقبله الامبراطور وسأله عما اذا كان موافقا على قانون الايمان النيقى، فاعطاه اريوس موافقته. على أن صيغة الايمان، التى قدمها أريوس كانت فى" جملتها مختصرة وماكرة " على حد تعبير أحد المؤرخين لانها كانت خالية من عبارة " من نفس الجوهر" وعبارة " مولود غير مخلوق" وهما العبارتان اللتان دار حولهما الجدل فى مجمع نيقية.

ورفض اثناسيوس بطريرك الاسكندرية الانصياع لأوامر الامبراطور باعادة اريوس واتباعه الى الكنيسة والى وظائفهم الدينية، مما اغار صدر الامبراطور عليه، ومما دفع الاخير الى أن يكتب رسالة ويبعث بها الى الاسكندرية وبطريركها اثناسيوس، يهدده بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة الى الكنيسة من الاريوسيين. غير أن اثناسيوس أصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور قسطنطين، وكتب اليه فى محاولة منه لاقناعه بأنهم هراطقة(*) ولايمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية.

أنتهز الاريوسيون هذه الفرصة، ووضعوا خطة لايغار صدر قسطنطين على اثناسيوس . تتمثل هذه الخطة فى اثارة غضب الامبراطور على اثناسيوس بطريرك الاسكندرية، ومحاولة اشاعة السخط والتذمر بين الاساقفة

(*) من الهرطقة وهى كلمة يونانية الأصل (Airesis) ومعناها الرأى الفردى الخاص الذى لا يتفق مع أراء أباء الكنيسة، ومن ينحرف عنها فهو (مهرطق) أو (أخ قد فسد).

جميعا على اثناسيوس .

ولما كان من العسير تنفيذ هذه الخطة عن طريـــق اتهـــام اثناســـيوس بالهرطقة لذلك لجأ الاريوسيون الى طريق آخر غير العقيدة، وتمثل ذلــك فـــى اتهامه بتهم اخرى من بينها : أنه فرض ضريبة على المصريين يؤدونها مـــن الكتان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى، وأنه تم جباية هذه الضريبة عنوة، وعـــد الامبراطور هذا الاتهام اعتداء على سلطانه، وارسل يستدعى اثناسيوس علـــى الفور ليبرأ نفسه من هذا الاتهام . وانتهز الاريوسيون مجـــئ اثناســـيوس الـــى البلاط الامبراطورى، واعدوا له اتهاما جديدا يتعلق بحياة الامبراطور نفسه، اذ اذاعوا أن اثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور، وانه ارسل صندوقا ملئ بالـــذهب الى رئيس الحرس لتنفيذ مخططه. غير أنه مالبث أن اتضـــح للامبراطـــور أن اثناسيوس برئ من هذه التهمة، لذلك سمح له بالعودة الى الكنيسة معززا مكرما. ومع ذلك فقد كان الامبراطور يدرك تماما أن وجود اثناسيوس بعدائـــه للفريـــق الأريوسى يعد مصدر خطر حقيقى، وكان يدرك أيضـــا أن الوقـــت لـــم يحـــن للتخلص منه.

تابع الفريق الأريوسى تنفيذ خطته ضد اثناسيوس باثارة الأساقفة عليـــه، وذلك باظهاره فى صورة رجل الدين الذى لايحتـــرم زمـــلاؤه، ويحتقـــر ذوى المرتبة الثانية منهم وذلك بأن زينوا للامبراطور بأن اثناسيوس يجب أن يبـــرئ ساحته أمام مجمع من الاساقفة يدعى لهذا الغرض . وصادفت هذه الفكرة هوى فى نفس الامبراطور اذ كان يظن أن فى ذلك قضاء تاما علـــى الاضـــطراب، وعلى هذا الاساس دعا فى عام ٣٣٣م الاساقفة للاجتماع فـــى قيســـارية فـــى فلسطين لفحص الاتهامات الموجهه ضد اثناسيوس، وطلـــب مـــن اثناســـيوس حضور هذا الاجتماع.

رفض اثناسيوس دعوة الامبراطور لحضور مجمع قيسارية وبرفضه هذا اضاع من يده فرصة كسب الامبراطور الـــى صـــفه ثانيـــة، اذ جـــاء رفـــض

اثناسيوس هذا تحديا لسلطان الامبراطور، أما الاساقفة فـايقنوا أن اثناسـيوس يسخر منهم ولايعيرهم اهتماما، وبذلك أثار اثناسيوس كـل مـن الامبراطـور والاساقفة فى آن واحد. وعندئذ قرر الامبراطور عقد مجمع للاساقفة فى صور (٣٣٥م) وكتب الى اثناسيوس يأمره بالذهاب الى صـور، وامتثـل اثناسـيوس للامر على مضض منه وكره، اذ توعده الامبراطور بأنه اذا لم يحضر طواعية فسوف يحضره للمجمع عنوة وكرها.

وعقد مجمع صور فى عام ٣٣٥م، وحضره ستين اسقفا، وفيـه وجهـت العديد من الاتهامات الى اثناسيوس من بينها أنه عزل اسـقف بلوزيـوم مـن منصبه، وعين بدلا منه شخصا آخر ووضعه تحت حراسـة عسـكرية، وراح يذيقه الوان العذاب . واتهم اثناسيوس ايضا بتعطيل ابحار القمح المصرى الذى كان يرسل الى القسطنطينية كل عام، ثم تأييده لثورة قامت ضد الامبراطور فى مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥م هذا فضلا عن أن اثناسـيوس رفض الانصياع لأوامر الامبراطور بحضور مجمع قيسارية متحديا له ومستخفا بالاساقفة، كما أنه حضر مجمع صور وبصحبته عدد كبير من الاتباع، من أجل اثارة الشغب والفوضى والاضطراب فى المجمع.

ومع أن اثناسيوس استطاع أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات الا أن مجمع صور قرر فى جلسته الختامية ادانة اثناسيوس وعزله، بل وطلب نفيه من مصر، وأن يذهب الى بلاد غالا أى الى القسم الغربى من الامبراطوريـة، وقد ألف اثناسيوس خلال فترة نفيه فى الغرب العديد من الكتب ومنها : "الـرد على الاريوسيين" وآخر بعنوان "الأحاديث ضد الاريوسـيين" وثالـث بعنـوان "تاريخ الاريوسيين". وقد صنفه لأصدقائه الرهبان. على أية حال فـإن مجمـع صور لم يناقش المشكلة الاساسية وهى اعادة أريوس الى الكنيسة.

انتهز الامبراطور فرصة عقد الاساقفة مجمع فى اورشليم عـام ٣٣٥م، وارسل أريوس الى هذا المجمع بعد أن اطلع على وثيقة ايمانه التى قدمها اليه،

وانه مقتنع بما جاء فيها، وطلب الامبراطور من الاساقفة اعادة قبول أريوس فى الكنيسة، واعادته الى الاسكندرية، وكان أن أصدر المجمع قراره بقبول أريوس ورفاقه فى الكنيسة، واعادتهم ثانية الى كنيسة الاسكندرية . غير أن أتباع اثناسيوس بطريرك الاسكندرية، رفضوا الامتثال لقرارت المجمع، مما أدى الى حدوث الاضطراب من جديد فى الاسكندرية.

ارسل الامبراطور يستدعى اريوس على الفور الى القسطنطينية وما أن وصل أريوس اليها حتى دخل فى صراع مع بطريركها اسكندر، الذي نمى الى علمه أن الفريق الاريوسى يرغب فى أن يقوم بطريرك القسطنطينية بقبول أريوس فى الكنيسة، حتى يكون نموذجا تحتذيه بقية كنائس الامبراطورية . وترتب على ذلك أن عمت الفوضى مدينة القسطنطينية، التى انقسمت الى فريقين أحدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى، والآخر يناضل من اجل أريوس . وادرك الامبراطور خطورة هذا الموقف، فدعا كل من أريوس واسكندر، وطلب من الاول أن يعترف بقرارت مجمع نيقية ٣٢٥م، وأن يقسم على صحة ايمانه، ففعل أريوس، وقبل الامبراطور صيغة ايمانه، وطلب الامبراطور من اسكندر بطريرك القسطنطينية أن يقبله فى الكنيسة، ولم يكن اسكندر يرغب فى ذلك الا انه احرج من الامبراطور . وتعقدت المشكلة ولكن حلها القدر بوفاة أريوس فى نفس اليوم الذى حدد ليتم فيه قبول اسكندر لأريوس فى الكنيسة، ففى أحد أيام من عام ٣٣٦، احتشد الناس حتى ملأوا فناء الكنيسة بالمدينة (القسطنطينية) ورجال الاكليروس يقدمون للرب الابتهالات والضراعة.. أما إسكندر بطريرك القسطنطينية فقد بدا الشحوب على محياه، بعد ليلة طويلة قضاها يقيم بينه وبين نفسه الصلوات التماساً لعون الإله فى الغد.

وبينما تجرى الإجراءات على قدم وساق لمقدم الإمبراطور لحضور هذه اللحظات الحاسمة التى سوف يعلن فيها أسقف القسطنطينية سقوط قرار الحرمان عن اريوس وعودته إلى الكنيسة، وقبل أن تحين اللحظة الحاسمة دخل قس

الإسكندرية إلى أحد الأماكن ليقضى فيها حاجته وطال انتظار الجمع له .. ولكن الرجل لم يعد، فلما طلبوه، وجدوه ملقى على الأرض صـريعاً، وهكـذا مـات اريوس وانتهت حياة قس الإسكندرية الشهير بلغز محير وسر دفين. ولكن ماهو السر وراء تحول تأييد الامبراطور من اثناسيوس لأريوس ؟

أدان قسطنطين أراء أريوس فى البداية، وأيد مجمع نيقية، وذلك رغبة فى كسب ود الغرب وتأييده، لأنه كان لازال يقيم فى الغرب، وكانت روما بايطاليا هى عاصمة الامبراطورية حتى ذلك الحين . ومن المعروف أن مذهب اريوس لم يكن سائدا فى الغرب، فإذا أيد الامبراطور قسطنطين مـذهب أريـوس فـى مجمع نيقية، كان هذا يعنى أن السخط سوف يعم معظم أنحاء الغرب الاوربى . ولذلك فضل قسطنطين أدانة مذهب أريوس، ونفيه بدلا من معارضـة أهـالى الغرب الاوربى.

وعندما تغير الوضع فى الامبراطورية الرومانية، وتم نقل عاصمتها من روما الى القسطنطينية على شواطئ البوسفور، كان هذا يعنى أن الامبراطـور أصبح فى حاجة الى تأييد الشرق، ولذلك كـان مـن الضـرورى أن يسـعى قسطنطين لارضاء القسم الشرقى من الامبراطورية وذلك بالعفو عـن أريـوس واعادته الى الكنيسة هو واتباعه . وبذلك يتضح الدافع وراء تحول قسـطنطين من تأييد اثناسيوس الى تأييد أريوس.

على أية حال اذا كانت الاحوال قد هدأت فى مدينة الاسكندرية بعد مجمع صور ومجمع اورشليم فى عام ٣٣٥م كذلك فى القسطنطينيه بوفاة أريوس فى العام التالي ٣٣٦ م، الا فى هذه الاحوال ما لبثـت أن اضـطربت بعـد وفـاة الامبراطور قسطنطين ٣٣٧ م، واستمر النزاع فى الاسكندرية بين أتباع مذهب أريوس واتباع مذهب اثناسيوس لمدة طويلة، واستمرت حتى وفاة اثناسيوس فى عام ٣٧٣ م.

الرهبانية والديرانية :

ارتبط بانتشار المسيحية ظهور حركات دينية جديدة عرفت باسم الرهبانية أو الديرية، وظهرت هذه الحركات الدينية أول ما ظهرت على أرض مصر فى القرن الثالث الميلادى.

تعريف الرهبانية

وكلمة الرهبانية أو الرهبنة فى اللغة العربية، قيل أن أصلها من الرهبة أو الخوف، وترهب الرجل إذا صار راهباً يخشى الله، كما ذكر ابن منظور فى لسان العرب. وجاء فى القرآن الكريم : قال تعالى : "وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله"(*)ولفظة راهب باللغة القبطية هى "موناخوس" وقد نقلتها اللغات الأوربية الحديثة كما هى عن القبطية.

والرهبانية عبارة عن أن فرد أو جماعة تترك مجتمعها، وتهجر الحياة الدنيا بمتاعها ومباهجها، وتنقطع عن العالم، وتعيش فى عزلة، عيشة تقشف وزهد وصلاة وتعبد تقربا الى الله.

جذور نظام الرهبانية

والواقع أن فكرة العزلة أو الانقطاع عن العالم لتحقيق رغبة دينية فكرة مصرية قديمة، عرفها المصريون قبل ظهور المسيحية، ففى القرن الثانى قبل الميلاد، كان معبد السيرابيوم فى ممفيس ملئ بالخلوات والزوايا، التى خصصت لعدد كبير من الاتقياء، الذين فضلوا العزلة عن المجتمع الصاخب ووهبوا أنفسهم لخدمة الاله سرابيس وأطلق على هؤلاء طائفة (المنقطعين Katachoi)،

(*) سورة الحديد آية ٢٧.

وقد استخدموا مصطلح الأب والأخ مثلما فعل الرهبان فيما بعد. ولكن هؤلاء لم يهجروا العالم تماماً بل كانوا على صلة به إذ كانوا يرجعون إليه بعد قضاء عدة سنوات فى السيرابيوم. وكان هذا الانقطاع ذا صبغة دينية لأنهم أنقطعوا لتأدية فروض عبادة هذا الاله.

كذلك مارس اليهود هذه العزلة وذلك الانقطاع، اذ وجد فى ضواحى الاسكندرية جماعة من اليهود، عرفوا باسم المتأملين فى الالهيات، تركوا كل ما يملكون من متاع الدنيا، وكانوا يعيشون فى شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الاسكندرية. ونظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبانية الاولى، فكانوا رجال ونساء يهجرون المجتمع وما فيه من روابط اجتماعية، ويمتنعون عن شرب الخمر واكل اللحوم، وينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة، وكانوا يعيشون فى أماكن متفرقة، ولهم دار عامة يجتمعون بها للصلاة عامة.

وظهرت الرهبانية فى مصر كذلك عند دخول الديانة المسيحية بها، وقيل أن الرسول مرقس هو الذى علمها لمسيحى مصر، اذ انه بث روح الفضيلة بطهره وعفافه فى قلوب كثير من المصريين، لذلك اعتزلوا العالم ولجأوا الى الكهوف والمغاور، يسبحون الخالق ويتغنون بذكره. هذا فضلا عن ان بذور حياة الزهد والتقشف والاعراض عن متاع الدنيا، كانت موجودة فى اصول المسيحية الاولى، ويظهر ذلك من خلال أقوال القديس بولس من حث على حياة العذوبة، التى تعتبر ركنا من أركان حياة الزهد والرهبانية ومن هذه الاقوال:" من يتزوج يفعل حسن ومن لا يتزوج يفعل أحسن". وجاء فى انجيل مرقص : ١٠ (٢٨-٣٠) على لسان السيد المسيح عليه السلام "الحق أقول لكم ليس أحد يترك بيتا، أو أخوة، أو أخوات، أو أبا أو أما أو أولادا أو حقولاً لأجلى، ولأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مائة ضعف".

أما عن الدوافع والأسباب التى ساعدت على ممارسة حياة العزلة

والانقطاع عن العالم والمجتمع فى مصر فهى:

رغبة بعض الافراد فى البعد بأنفسهم عن المجتمـع الملـيء بالمفاسـد، والنجاة من الوقوع فى مفاسد هذا المجتمع. فيـذكر جـونز Jones أن قـانون الأخلاق المسيحى كان صعباً جدًا إذ يحتوى على قائمة من المحرمـات مثـل : تحريم الزنا واللواط، وتحريم الطلاق، تحريم اتخاذ عشيقة أو محظية، هذا إلـى جانب تحريم حفلات المسرح وعروض المصارعة وسباق الخيل، وحتى ارتياد الحمامات العامة اعتبر من الأمور المثيرة للغرائز وغيرها لذا كان من الصعب على الإنسان العادى أن يعيش فى تلك الظروف، بل من المستحيل على الرجـل أن يحافظ على أخلاقه الفاضلة وهو يعيش فى المدينة لذلك كان مـن الأفضـل الانسحاب والعيش فى الجبال والكهوف والمغاور.

ومن الأسباب الأخرى التى أضافها جونز تأخير سن التعميد إلى ما قبـل الوفاة حتى لا يرتكب الإنسان أخطاء أو آثام، وكان رد فعل ذلك هو لجوء بعض الناس إلى الصحراء لقمع الشهوات، من خلال الصلاة والعبادة والتأمل وممارسة حياة التنسك. كما أن الانقطاع عن المجتمع يجنب أفراده الانغماس فى الحروب، فى عصر كثرت فيه الحروب الأهلية، كما يجنبهم أيضاً العمل الشاق وبالتـالى عدم الالتزام بدفع الضرائب والخدمة فى الجيش. ومن ثم كان الانقطاع يعنـى الهروب من مسئوليات المجتمع. كما أن الاضطهاد الدينى الـذى تعـرض لـه المسيحيون والذى بلغ ذروته فى أواخر عهد دقلديانوس(٢٨٤ -٣٠٥م) جعـل عدد كبير من المسيحيين يفرون بدينهم، حتى لا يتعرضوا للتعـذيب علـى يـد السلطات الرومانية، أو تجبرهم هذه السلطات على العودة الى الوثنية. ويؤكـد البعض ذلك بقولهم : لقد جاء عصر الرهبانية فى الكنيسة القبطية تاليا لعصـر التبشير والاستشهاد وذلك بالصمود أمام الوثنية التى حاولت وأد المسيحية، ولكن انتشار المسيحية غلبها وانتصر عليها. ثم انتهى عصر المستشهدين وجاء عصر

العابدين والنساك فنشأت الرهبانية. هذا الى جانب سوء الأحوال الاقتصادية وما ترتب عليه من زيادة الأعباء كالضرائب وغيرها وقسوة جامعيها، وقد دفع ذلك الكثيرين إلى الفرار إلى سلك الرهبانية لكى توفر لهم الأمن والأمان رغم ما تحمله من عيش الكفاف. كما أن الخلافات المذهبية بين اتباع اريوس واثناسيوس دفعت أنصار الأخير إلى اللجوء إلى الأديرة فرارا من اضطهاد اتباع اريوس، علاوة على أن القانون الذى أصدره قسطنطين العظيم الخاص بإعفاء الأعزب ومن لا أولاد له من الضرائب مع أعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية شجع الكثيرين على ممارسة حياة الرهبانية.

كذلك كانت مصر بأرضها ومناخها صالحة للرهبانية، فهى تتمتع بصحراء واسعة، وكانت تلك الصحراء مأوى يلجأ اليه الرهبان والمتعبدون، هذا فضلا عن مناخها المعتدل، الذى شجع الرهبان على الخروج من مدنهم وقراهم والذهاب الى الصحارى. يضاف الى ما سبق أن المصرى بطبيعته وبما له من خلفية تاريخية يميل الى التدين منذ أقدم الازمان، فهذا هو اختانون(*) صاحب ثورة دينية عارمة الا وهى ثورة (التوحيد). وكل هذه العوامل ساعدت على ظهور الرهبانية وانتشارها فى مصر.

وهناك نوعان من الرهبانية، رهبانية انفرادية وأخرى جماعية ديرانية.

أولا : الرهبانية الانفرادية (توحدية وتوحدية جماعية) :

وهى تسير على نظام التوحد والانفراد، حيث ينفرد الراهب فى مغارة يقضى فيها حياته منعزلا عن البشر. وكان الراهب لا يأكل الا مرة واحدة فى

(*) اخناتون هو احد فراعنة الاسره الحديثة، وهو امنحتب الرابع، تولى بعد وفاة والده امنحتب الثالث، ولم يهتم بامور السياسة والحرب قدر اهتمامه بامور العبادة والدين، ونادى بفكرة الوحدانيه حيث كان يرى أن جميع الالهه ما هى الا صورة متعددة لاله واحد هو (أتون).

اليوم، وطعامه عبارة عن خبز جاف وقليل من الملح. واتسم هذا النوع من الرهبنة بإغراق الجسد فى ضروب الزهد والمبالغة فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد لخلاص الروح. والرهبانية الانفرادية نوعان (١) توحدية. (٢) توحدية جماعية.

(١) الرهبانية التوحدية ورائدها "الانبا(*) بولا"

وعرف باسم بولس الطيبى وقد كتب القديس جيروم(**) سيرته باللاتينية فى القرن الرابع الميلادى. ولد الانبا بولا فى عام ٢٢٨م واختلفت الأراء حول مكان ميلاده فذكر البعض أنه ولد بالاسكندرية وذكر البعض الآخر انه ولد فى طيبه (الاقصر) وذهب فريق ثالث الى أنه ولد فى (سفرو أوتل الكفور) بين المنيا وبنى سويف ولد من ابوين (موسرين)،

(*) تعنى فى القبطية (الأب) وكان هذا اللقب يطلق على رجال الكهنوت سواء أن كانوا أساقفة أم بطاركة ، كذلك أطلق على بعض الشخصيات التى لها أهمية دينية دون أن يكون لها رتبة كهنوتية، وفى طليعة هؤلاء الرهبان. وكلمة متوحد فى القبطية "الكورايت" أى الشخص الى يعتزل أمور الدنيا.

(**) ولد فى عام ٣٤٠م، وأغلب الظن أنه من دالماشيا، نال قسطاً كبيراً من التعليم فى روما وترير، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة جيدة، وكان مسيحياً شديد التمسك بدينه مارس حياة الزهد والتقشف، ورحل إلى الشرق، واتجه نحو انطاكية عام ٣٧٩م، ورسم = فيها قساً، ثم عاد إلى روما أمينا للبابا دماسوس الذى عهد إليه بترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية. ورغم منصبه إلا أنه ظل يحيى حياة الزهد، لأن فى نظره أن الرهبان هم وحدهم المسيحيون الحقيقون المبرءون من الملك والشهوات والكبرياء. وعندما توفى البابا دماسوس خرج جيروم من روما ولم يعد إليها أبدًا (٣٨٥م) واتجه نحو (بيت لحم) وأنشأ فيها ديرًا للرهبان صار هو رئيسه وآخر للراهبات، وكان يقضى وقته كله فى الدرس والكتابة وأنشأ بها مدرسة كان يعلم فيها الأطفال بدون أجر. كتب حوالى خمسين كتاباً فى المشكلات الدينية وفى تفسير الكتاب المقدس. ودرس العبرية، وأخرج ترجمة للكتاب المقدس باللاتينية عن العبرية أو اليونانية، التى تعد من أهم الأعمال الأدبية التى ترجع إلى القرن الرابع الميلادى.

وتثقف بثقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الاغريقية والمصرية، ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به. ومات أبوه وهو فى السادسة عشر من عمره، وتولى الوصاية عليه زوج أخته الذى كان رجلاً انتهازياً يحب المال فتحين الفرص للتنكيل به، بل وعزم على تسليمه للسلطات الرومانية فى احدى موجات الاضطهاد، التى تعرض لها المسيحيون فى العصر الرومانى، وذلك ليأخذ ميراثه . وقيل أيضا أن الخلاف على الميراث كان بينه وبين أخيه الذى يكبره. ورفعا قضاياهما أمام المحاكم ليثبت كل منهما أحقيته فى الميراث . وفى اليوم المحدد لنظر الحكم خرج بولا وبينما يسير فى الطريق اذا به يجد قوما يشيعون جنازة فسأل عن هوية المتوفى، فعرف أنه كان من الاثرياء، وأنه لم يأخذ معه شيئا وهو فى طريقه الى القبر، وعندئذ أدرك بولا أن أموال العالم كلها لاتفيد الانسان بعد موته، وأن ما ينفعه هو العمل الصالح. لذلك قرر بولا أن يترك كل متاع الدنيا، وتوغل فى صحراء مصر الشرقية، حيث اقام فى كهف على ساحل البحر الاحمر، طيلة تسعين عاما يتعبد ويصلى ويتأمل، وعاش عيشة زهد وتقشف، معتمدا على شجر النخيل فى غذائه ولباسه.

ويروى الرحالة الكبير (بلاديوس ٣٦٣ ــ ٤٢٥م)(*) صاحب كتاب بستان الرهبان والذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع الميلادى، ومكث بها لدراسة

(*) هو فى الأصل من مدينة غلاطة احدى المدن التابعة للامبرطورية البيزنطية، ونفى من القسطنطينية بسبب مناصرته للقديس يوحنا فم الذهب، وشغل منصب أسقف بعلبك وتحدث فى كتابه عن رهبان وادى النطرون، وقد عاش بينهم كراهب ١٢ عام وقضى بينهم ست سنوات برتبة اسقف . ويعد بلاديوس Palladius اسقف هلينوبوليس Henelopolis فى بيثنيا بآسيا الصغرى أشهر الرحالة الذين قدموا إلى مصر وزاروا اديرتها، وقد قدم إلى مصر مرتين الأولى فى عام ٣٨٨ والثانية استمرت ست سنوات ٤٠٦-٤١٢م وقد وقف خلالها على تنظيمات الأديرة المصرية، وتحدث عن مشاهداته فى مصر فى كتاب اسماه بستان الرهبان أو "الفردوس" معتبراً هذه القفار التى يقيم فيها المتوحدون وساكنو الأديرة جنانا تستضى بنور إيمانهم.

احوال الرهبان، ثم عاد الى بيت لحم ومنها الى اورشليم، ثم زارها ثانية اوائـل القرن الخامس الميلادى - يروى الرحالة أن انطونيوس التقى بالأنبا بولا فـى أيامه الاخيرة، ويذكر أنه بينما كان أنطونيوس يمارس رهبانيتـه ويظـن أنـه لايوجد فى العالم من هو افضل منه زهدا وتنسكا، اذ به يسمع صوتا من السماء يقول له : " يا انطونيوس هناك من هو افضل منك، هناك شيخ فى الصـحراء بالقرب من البحر الاحمر، زهد العالم منذ تسعين عاما" . وافاق انطونيوس مـن الحلم ومضى الى البحر الاحمر للبحث عن الشيخ، وما لبث أن وصل الى مكانه والتقى به، ومكث معه حتى مات فى عام٣٤١م، ولولا هذا اللقاء بين انطونيوس والانبا بولا لظل أمر بولا مجهولا.

(٢) الرهبانية التوحدية الجماعية

وارتبط هذا النوع من الرهبانية (بالقديس انطونيوس) الذى يعد المؤسـس الحقيقى لهذه الحركة، ورائد نظام الرهبانية، ولذلك يلقب (أب جميع الرهبان) و (كوكب البرية).

فعلى الرغم من أن الانبا بولا وغيره مارس الرهبانية الانفرادية التوحدية، الا أن الرهبانية الانفرادية كتوحدية جماعية أخذت وضعها الثابت وصفتها العالمية الواسعة النطاق على يد القديس انطونيوس، لذلك نسبت اليه، واطلق عليها اسـم الرهبانية الانطونية، كذلك تعتبر رهبانية انطونيوس الخطوة البارزة فـى تـاريخ الرهبانية المصرية، وأما ماسبقها فهو عبارة عن مقدمات ارتجالية مهـدت لهـذا النظام الجديد فقد حولها انطونيوس من انفرادية توحدية إلى توحدية جماعية.

ولد القديس انطونيوس فى عام ٢٥١م وقيل فى عام ٢٥٤م فـى مدينـة بمصر الوسطى تدعى كوما أو (هرقليوبوليس) وهى قمـن العـروس الآن(*)،

(*) قرية تقع جنوب القاهرة على بعد ٧٥ ك.م.

بالقرب من بنى سويف – من ابوين مسيحيين على درجة واسعة من الثراء والغنى . إذ كان والده يمتلك مزرعة مساحتها ثلاثمائة فدان، لذلك عاش انطونيوس فى بيت أبويه عيشة منعمة مترفة، وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى مع الفضيلة والتقوى، غير أنه لم يأخذ قسطا من التعليم، فقد ظل أميا لايعرف الكتابة حتى أواخر أيامه. وقد ارجع القديس أثناسيوس صاحب كتاب سيرة حياة انطونيوس" ذلك الى استيائه من سلوك التلاميذ الفظ فى المدرسة". وتوفى أبوه وهو لم يبلغ الثامنة عشر وقيل العشرين من عمره، وترك له مع تلك الثروة العريضة اختا صغيرة يقوم على رعايتها وتربيتها . وكان انطونيوس كثير التردد على الكنيسة، وذات يوم بينما هو فى الكنيسة مع اخته استمع الى آية واردة فى الانجيل تقول على لسان السيد المسيح – عليه السلام – للرجل الغنى : " أن اردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع املاكك، واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال أتبعنى " وما ان سمع انطونيوس هذه الآية حتى شرع فى تنفيذها، وخاصة بعد أن سمع آية أخرى تقول على لسان السيد المسيح لتلاميذه : "لاتهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفى اليوم شره".

باع انطونيوس املاكه ووزعها على الفقراء، كما خصص جزء منها للكنيسة وبعد ان اعطى اخته نصيبها توجه بها الى احدى دور العذارى اللوتى دائبن على الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة واوصى بها رئيستهن لكى ترعاها كابنة لها. وبعد أن اطمئن انطونيوس على اخته، ذهب يتعبد فى البرية، ومر انطونيوس فى ممارسته لحياة الرهبانية والزهد والتنسك بثلاث مراحل :

(١) **الأولى :** هى مرحلة "التلمذة على يد الشيوخ والنساك" وأقام خلالها فى مكان قريب من بلدته قمن العروس فى كوخ صغير إلى جوار شاطئ النيل. وتتسم هذه المرحلة بالتلميذة على يد الشيوخ والنساك، الذين كانوا يعيشون

على حافة قريته قريب من النهر. فقام بزيارتهم والمرور علـيهم، ليـتعلم منهم الفضائل، فكان كما وصفه اثناسيوس "كالنحلة النشطة التـى تؤلـف شهدها من متنوع الزهر". فتعلم من واحد من النساك فضيلة الصبر، ومـن آخر التواضع وقهر الذات، ومن ثالث الصمت، ومن رابع الطاعة والمثابرة على الصلوات، ومن خامس الصوم والزهد وهكذا.

وخلال هذه المرحلة واصل الليل بالنهار مثابراً على الصلاة فقد جاء فى الأنجيل "صلوا بلا انقطاع"، وحرص على تلاوة الكتاب المقدس باستمرار حتى يحفظه فى ذاكرته جيداً، وعاش حياة تقشف فكان ينام علـى حصـير خشـن، ولباسه من الشعر فوق قميص من جلد، وكان بذلك "أول راهب لبس الصـوف، وأظهر شكل الرهبانية" كما يذكر أحد الباحثين .ولما لا "فالنفس تقـوى حينمـا تضعف من ملذات الجسد". وعكف انطونيوس فى هذه المرحلة على العمل إلـى جانب العبادة، فكان يصنع القفف والحصر ويقتات بثمنها، وكانـت مـدة هـذه المرحلة خمسة عشر عاماً، وانتهت بدخوله زمرة النساك والصالحين.

المرحلة الثانية :

وفى هذه المرحلة ترك القديس انطونيوس المكان القريب من بلدته قمـن العروس وعبر النهر شرقاً، واستقر فى منطقة (بسبير) وهى دير الميمون ببنى سويف الحالية، وكان عمره ساعتها خمسة وثلاثين عاماً. وانصرف خلال هـذه المرحلة إلى العزلة التامة، استغرقت عشرين عاماً، وقضـاها فـى الصـلاة والعبادة والزهد والتأمل والتنسك، وعاش على ثمار النخيل الموجود بالمكان مع بعض الخبز الجاف. وكان يتردد عليه خلال هذه المرحلة فى بعـض الأحيـان عدد من الزائرين الذين جاءوا من أجل الاستماع إلى عظاته ونصحه وارشاده، والتلمذة على يديه، وكان يحملون إليه بعضاً من الطعام والشراب.

والتف حوله بذلك عدد كبير من الاتباع والمريدين الراغبين فـى حيـاة

التنسك والرهبانية وفى عيشة العزلة، منهم الاغنياء والفقراء، وبمرور الوقت ظهرت جماعة من الرهبان لاعمل لهم سوى تلاوة الايات الدينية وتأدية الصلوات وقراءة التعاليم الدينية وبذل الاحسان، يعيشون حياة هادئة ليس بها مشاكل ولاشر، وكل راهب منهم مستقل قائم بذاته، لا يدين بالطاعة لأحد سوى معلمه انطونيوس، الذى تتلمذ على يديه وتلقن منه مبادئ الرهبانية.

أما عن نظام حياة الرهبان الذى وضعه انطونيوس

فقد خصص انطونيوس لكل واحد منهم قلاية Cell " بيت الراهب " أو خلوة يعيش فيها بمفرده ليتعبد ويصلى، هى من حجرتين داخلية (المحبسة) للعبادة، وخارجية وبها المطبخ، ومخصصة لاستقبال زملائه أو رفاقه وكان الراهب يشترك مع الرهبان فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس . وكانت كل قلاية تبتعد عن الاخرى بما يتجاوز السمع والبصر. وقد اتخذ انطونيوس له ولرهبانه لباسا من الكتان الابيض شبيه بالباس الفرعونى الكهنوتى.

وكانت حياة الرهبان اليومية تتسم بالعمل من الصباح حتى الظهر، كل راهب حسب حرفته وكل الرهبان يعملون اساسا فى صناعة السلال ونسخ الكتاب المقدس، ويجوز للراهب أن يؤدى هذه الاعمال فى قلايته، وكان من الرهبان من يعمل فى المطبخ أو المخبز، ومنهم الاطباء والصناع. وفى المساء ينشغل الجميع بالصلاة والتأمل وقراءة الانجيل أو ترديد التراتيل الدينية، بحيث أنه اذا وقف الانسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع والقلايات حوله، فيظن أنه فى الفردوس، ولايجتمع الرهبان الا فى يومى السبت والاحد من كل اسبوع فى الكنيسة لاداء صلاة القداس وماعدا ذلك من الايام ينصرفون الى العزلة التامة، فلا يزور احدهم الاخر الا فى حالة المرض أو لبعض الدواعى الروحية . ولهذا يرى البعض أن الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان

الاجتماعية. على أية حال انتهت المرحلة الثانية بنجاح انطونيوس فـــى وضـــع أول نموذج للنظام الرهبانى فى مصر وهو (التوحدية الجماعية).

أما عن المرحلة الثالثة فقد ترك القديس انطونيوس خلالها رهبانـــه فـــى بسبير وتوغل فى الصحراء، حتى وصل إلى جبل عال بوادى عربة على مقربة من جبال البحر الأحمر، وأقام فيه بقية حياته فى مغارة أو كهف، واعتمد فـــى طعامه على النخيل وماء النهر، ثم أمر تلاميذه الذين اعتادوا على زيارته فـــى مكانه الجديد بأن يحضروا له فأساً وبعض القمح، فقام بزراعة المكـــان ليسـد حاجته من الطعام. وظل فى هذه المغارة ولم يغادرها فى حياته وحتى وفاته عن عمر يناهز مائة وخمسة أعوام الا مرتين.

الأولى : خلال اضطهاد ماكسيمينوس للمسيحية والمسيحيين فى عام ٣١١م وكان يقوم بزيارة السجون، ويتنقل بين المدن معرضا حياته للخطر. وبذلك يعتبر انطونيوس أول راهب وقف يحرك أحداث الكنيسة ويقف خلفها مؤيدًا.

والثانية: عندما استفحل مذهب أريوس فى عهد قسطنطين العظيم حيـث نزل إلى المدن المصرية عام ٣٣٥م بعد مجمع صور، ليساعد القديس أثناسيوس فى كفاحه ضد اتباع أريوس.

وعلى الرغم من وفاة انطونيوس فى عام ٣٥٦ أو ٣٥٩م إلا أن الرهبانية الانفرادية التوحدية والتوحدية الجماعية أخذت تنتشر فى سائر أنحاء مصر سواء فى الوجه البحرى أم فى الوجه القبلى فوصلت إلى وادى النطـرون علـــى يـد تلاميذه ومنهم آمون ومكاريوس ولعلى ما ساعد على انتشار رهبانيـــة القـديس انطونيوس أن مراسم لدخول فيها كانت سهلة وبسيطة، فلا يطلب من الشـــخص عند قبوله فى جماعة الرهبان سوى أن يقسم اليمين على أن يظل مطيعا طاهرا متقشفا، كذلك لايجوز أن يكون الراهب أو الراهبة من المنقطعين، فيصـــح أن يمارس حياة الزهد والتنسك فى داره أو مع جماعة صغيرة من رفقائه.

رهبانية النساء الانفرادية (توحدية وتوحدية جماعية) :

ومن الجدير بالذكر أن الرهبانية توحدية كانت أم توحدية جماعية لم تقتصر على الرجال فحسب، بل شملت النساء ايضا اللاتى لم تكن حياة الاعتزال لزاما عليهن، بل كان فى استطاعتهن أن يقمن بحياة الطهر والتنسك فى بيوتهن أو فى جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى . وتجدر الاشارة الى أن حياة التنسك كانت معروفة للنساء فى العصور التى سبقت المسيحية فى مصر، وليس أدل على ذلك من وجود عدد من النساء لجأن الى معبد سيرابيس ومعبد آمون فى طيبة لممارسة حياة العزلة والتقشف والعبادة ومن امثلة هؤلاء " بى آمون " التى اكتسبت شهرة فى عصرها بفضل الدور، الذى قامت به لمنع احدى المعارك المألوفة فى مصر قديما بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى.وكانت تكسب ما يسد حاجتها وحاجة امها عن طريق الغزل والنسيج ومارست النسك والعبادة .

وانتشرت بيوت العذارى في مصر خلال القرن الثالث الميلادى وكانت تحت اشراف الكنيسة، وتضم عددا من العذارى اللواتى فضلن حياة العذوبة ودربن أنفسهن على القداسة، وكرسن حياتهن للعبادة وخدمة الارامل والايتام والمرضى والمسنين. وفى احدى هذه البيوت وضع انطونيوس اخته قبل ممارسته حياة الرهبانية، ومن هؤلاء العذارى من تعرضن للاضطهاد والتعذيب على يد السلطات الرومانية ومن أمثلتهن القديسة دميانة الابنة الوحيدة لمرقس والى البرلس الذى كرس حياته، هو وأمها من أجل تربيتها، وتعليمها، وتثقيفها، وكانت جميلة الطلعة حتى أجمع المؤرخون على تسميتها (ربة الجمال والكمال). وعندما بلغت دميانة مبلغ الشباب أراد أبويها تزويجها، ولكنها رفضت وأرادت أن تكرس حياتها للعزلة والعبادة،وطلبت من ابيها أن يبنى لها منزلا تقيم فيه وتتعبد بعيدا عن الناس، فبنى لها ابوها بيتا بوادى الزعفران بالقرب من مدينة

بلقاس بمحافظة الدقهلية، واقامت فيه معها اربعون من العذارى، من بنات أكابر الولاية ويعد هذا البيت من أشهر بيوت العذارى.

وعاصرت دميانة الامبراطور دقلديانوس، وحدث أن اضطر والد دميانـــة الى الخروج بصحبة الامبراطور دقلديانوس لتقديم القرابين للالهة الوثنيــة،خوفا على مركزه، وعندما علمت دميانة بذلك خرجت من عزلتها، وذهبــت لمقابلـــة والدها، وأعربت له عن حزنها لما أبداه من خوف وتراجع، وقالت له "خير لك ياأبى أن تموت شهيداً فتحيا مع المسيح، من أن تحيا وثنياً فتموت مع الشيطان"، فما كان من الأب ويدعى مرقس الا أن ذهب الى الامبراطور، وأعلن أمامه أنه مسيحى وأنه نادم على امتثاله لامر الامبراطور وتقديمه القرابين للالهة الوثنية، عندئذ أمر الامبراطور على الفور بقطع رأسه بالسيف، ولما علم الإمبراطور أن أبنته هى التى حرضته على عدم الأمتثال لأوامره، أرسل جنـــوده الـــى قصـــر الزعفرانة الذى تعيش فيه دميانة وصديقاتها مـــن العـــذارى، وصـــب علـــيهن الامبراطور العذاب صبا، وتحملت دميانة ورفيقاتها العذاب فى صبر وجلد شجع الكثيرين من أهل القرية على اعتناق المسيحية،مما دفع القائد الرومانى الـــى أن يصدر أمرا بقتل دميانة والعذارى الاربعين.

وتجدر الاشارة الى أن القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين العظيم مرت عند عودتها من بيت المقدس بمصر وذهبت لزيارة المكان الذى دفنت فيه القديسة دميانة وزميلاتها وأمرت بتشييد كنيسة فوق ذلك المكان، وأطلقت عليه أسم "كنيسة العذراء دميانة وزميلاتها"، ولاتزال هذه الكنيسة موجودة حتى اليوم على أرض مصر شاهد ودليلا واضحا على بطولة المسيحيات وما تحملنه مـــن اضطهاد وتعذيب فى سبيل نصرة دينهن والرغبـــة الجارفـــة لممارســـة حيـــاة الرهبانية.

واذا كان القديس اثناسيوس قد سجل سيرة حياة القديس انطونيوس بوصفه

أب الرهبان وكوكب البرية فلم يمنعه ذلك من أن يسجل سيرة حيـاة " الراهبـة سينكليتكى التى يعتبرها بعض المؤرخين نداً للقديس انطونيوس ويعتبرونها بحق (أم الراهبات) وجماعات العذارى اللواتى أدهشن العالم. وذلك اعترافـاً بـدور الراهبات الذى لا يقل عن دور الرهبان فقد أوجدت سـينكليتكى أول جماعـة رهبانية نسائية فى العالم فى مدينة الاسكندرية.

ولدت سينكليتكى فى اسرة غنية، وعاشت السنوات الأولى من عمرها فـى مقدونيا ثم استقر أبواها فى الإسكندرية على مقربة من مدرستها الشهيرة ليسـهل عليهما تعليم أبناءهما فيها، وقد تمتعت بجمال نادر إلى جانب الثراء الكبير، لذلك جذبت أنظار الخطاب الأثرياء من كل صوب إلا أنها نبذت العالم بكل مغرياتـه، فقد كان لابوايها من الأبناء ولدان وبنتان، ولكن ما لبث أن توفى الولدان أحـدهما فى صغره والآخر يوم زفافه لذلك عزفت سينكليتكى عن مباهج الحياة ومتاعهـا ومفاتنها، وقررت ان تكرس حياتها للعبادة والنسك والصوم والصلاة فـى بيـت والديها حتى فارقا الحياة، فقامت بتوزيع أموالهما علـى الفقـراء والمحتـاجين وأخذت أختها، وذهبت لتقيم فى مقبرة مهجورة ، محفورة فى الصـخر، وظلـت على ذلك بضع سنين جاء عدد من الشابات خلالها إليها للتبرك بها، ولمشـاركتها حياة التنسك والتأمل، وللعيش معها تحت ارشادها ونصحها وتوجيهها.

ثم تركت سينكليتكى الإسكندرية لتعيش خارجها وكرست حياتها لخدمة زميلاتها فكانت قدوة لهن فأحببنها وأخلصن لها وأطعنها، وبمرور الوقت تكاثر عدد الراهبات حولها، وعاشت تمارس حياة الرهبانية حتى تعرضت لمرض شديد (السرطان) وتحملته بكل رضى وشكر رغم دوامه فترة طويلة، ثم تنيحت (أى توفيت). وقد كرمها القديس أثناسيوس بطريرك الإسكندرية فى ذلك الوقت، وأقام لها جنازة مهيبة وهو الذى كتب سيرتها ممثلاً أياها بأيوب الصديق، لتحملها آلام المرض الذى لا يحتمل، بصبر وإيمان.

ومن الأسباب التى دعت النساء للرهبانية : -

تعددت الأسباب التى دفعت النساء لممارسة الرهبانية ومنها :

أولاً : أسباب دينية وفى مقدمتها الطمع فى رضاء الرب والبعد عـن المجـد الزائف وذلك اتباعاً لنصائح بولس الرسول الذى أوصى بوضع الأرامل والعـذارى الراغبات فى ذلك للإقامة فى بيوت أطلقوا عليها بيوت العذارى، تخضع لإشـراف كامل من ناحية الكنيسة ، كذلك كان هناك من العذارى من رغبن فى العزوف عن الزواج وفضلن أن يكن عرائس للسيد المسيح Brides of Christ.

تشجيع رجال الكنيسة النساء على ممارسة الرهبانية. ومما سـاعد علـى انتشار حياة الزهد والتنسك بين النساء ما لجأ اليه المسئولون عن الكنيسة مـن تشجيع النساء على حياة التبتل العذرى بالخطب والنصائح وتأليف الكتب التـى ترشدهن الى كيفية ممارسة هذه الحياة . ومن اهم هذه الكتب " رسـالة التبتـل العذرى" التى كتبت فى القرن الرابع الميلادي وتنسب الى القديس أثناسيوس. و تتضمن هذه الرسالة بعض النصائح للعذراء من بينها:

المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنـزل، واداء الصـلوات فـى مواعيدها، وان ترتدى الراهبة ملابس متميزة حين تذهب االى الكنيسة أو للعمل، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاءا خفيفا بعد التاسعة، وان تمسك عـن شـرب الخمر الى آخره . وبالرسالة نصائح اخـرى عامـة منهـا مسـاعدة الفقـراء والمحتاجين، واذا لقيها رجل فاضل أى راهب فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع الى نصائحه، وعد م التكبر على قريناتها، وأن تكون قدوة حسنة لهن.

ثانياً : أسباب تتعلق بالأوضاع الاجتماعية، ويأتى فى طلعتها الهروب من الفساد الخُلقى الذى ساد خلال هذه الفترة، وملاحقة أصحاب السـلطة والنفـوذ للنساء من أجل ممارسة الرذيلة. كذلك الضغوط العائلية لإجبار الفتيـات علـى

الزواج دون رغبة منهن؛ إلى جانب أن الظروف هى التى فرضت على بعضهن الانخراط فى سلك الرهبانية، ومن أمثلــة ذلــك أودع ديمتريــوس بطريــرك الإسكندرية (١٨٨-٢٣٠) زوجته أحدى دور العذارى عندما رســم بطريركــاً، وذلك تنفيذاً لقوانين الكنيسة فى تولية البطريرك. كما أسكن انطونيــوس أختــه إحدى دور العذارى اللواتى كن يجتمعن فى بيت ومكان واحد فى ذلك الوقــت؛ ويعيشن منفردات للعبادة ومنعزلات عن سواهن للتأملات والرياضـــة العقليـــة وسلك نفس النهج الانبا آمون، عندما قرر وضع زوجته إحدى تلك الدور عندما خرج أيضا إلى البرية للتفرغ التام لحياة النسك. ومن ثم فقد كان لترك الرجـــال الحياة وممارسة حياة الرهبانية، إن أصبحت النساء بدون ازواج وبلا زواج مما شجعهن على ممارسة هذا النظام.

وقد ترتب على ذلك ان كثر عدد العذارى اللائى مارسن حياة الرهبانيـــة خاصة وان القديس اثناسيوس اعتبر رهبانية العـــذارى طقـــس ملائكـــى كمـــا اعتبرهن عرائس المسيح،وانهن ختمن عقدا مع المسيح الى الابد .

موسى الاسود والرهبانية التوحدية الجماعية :

وقد حمل لواء الرهبانية الانفرادية بعد وفاة انطونيوس اخرون منهم الراهب(موسى الاسود) الذى ولد فى عام ٣٤٠م، قيل أنه من أحدى قبائل البربر، وقيل أيضا أنه كان حبشيا، وكان فى أول عهده عبدا فى بيت مسئول مصرى، ولكنه طرده لسوء أخلاقه، وكان موسى الاسود ضخم الجثة، قوى العضلات، مفتول الساعدين، شرسا جدا يميل الى أعمال اللصوصية وارتكاب الجرائم.

ولكنه مالبث ان ذهب الى دير وادى النطرون، والتقى برهبانـــه بعـــد أن سمع عن طهارتهم وحسن سيرتهم،واعلن توبته امامهم والندم على ما فعله بعـــد أن تلقى المعمودية، واعترف علنا فى الكنيسة بجميع اخطائه واقلاعه عنهـــا .

وقد احالته توبته هذه من كافر قاتل سارق إلى أب ومعلم وكاهن .وعاش موسى الاسود فى قلايته منفردا للصلاة والعبادة والتنسك، لا يتناول سوى القليـل مـن الخبز مرة واحدة فقط فى اليوم . وصار أبا لخمسين من الرهبان،واستشهد فـي عام ٤٠٠ او ٤٥٥م كما يذهب البعض .ومن اقواله :(ابق فـي قلايتـك وهـي سوف تعلمك العمل والعبادة وهما خير لك).وأيضا(السكون كنز الراهب).

ثانيا : الرهبانية الجماعية (الديرانية):

اذا كانت الرهبانية التى عاشها انطونيوس واتباعـه رهبانيـة انفراديـة (توحدية جماعية) إذ عاشها كل راهب بمفرده، ودون ان يضمهم دير واحد، فانه لم يلبث أن ظهرت الرهبانية الجماعية أو المنظمة داخل دير واحد، والتى يطلق عليها اسم ديرانية جماعية. وقد ظهر هذا النوع من الرهبانية أول ما ظهر ايضا على ارض مصر.

تعتبر الرهبانية الجماعية الدور الثانى فى تطور أنظمة الرهبانية المسيحية المصرية، ولا شك أن هذا التطور من رهبانية انفرادية الى جماعية أمرا طبيعيا انسانيا، وذلك لمواجهة الظروف القاسية والاخطار والمخاوف، التى كثيرا مـا تعرض لها اتباع الرهبانية الانفرادية خاصة وأنهم كانوا يعيشون فى صـحراء جرداء يصعب الحصول فيها على الغذاء والماء، فضلا عن قطاع الطرق مـن أهل البادية والحيوانات الضارية وغير ذلك. وهناك دافع اخر لتطور الرهبانيـة من انفرادية الى جماعية وهو الاضطهادات الدينية التى تعرض لها المسيحيون على يد الحكومة الامبراطوريه وخاصة اضطهاد دقلديانوس، الذى دفع الرهبان الى توحيد صفوفهم واجتماعهم فى مكان واحد ونظرا لكثرة اعدادهم فقد كـانوا يشكلون جيشا لا يستهان به، وقوة يعتد بها.

والرهبانية الجماعية وهى التى يباشرها جماعة من الرهبان وليس فـرد

واحد، وصاحب هذا النوع من الانقطاع هو (القديس باخوم) [١] الملقب "بأبى الشركة" لأنه أول من بدأ بالمعيشة المشتركة فى الاديرة، تحت قانون واحد، ورئيس واحد، تعيش الرهبان تحت طاعته، وشعار واحد هوالزهد، التبتل، الطهارة. ولذلك اذا كان انطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى، فأن باخوم (٢٩١-٣٤٨م) يعتبر واضع أسس النظام الديري، الذى وضع لحياة الرهبانية نظمها وطرائقها، فحول الرهبانية التوحدية الجماعة الى رهبانية جماعية ديرانية.

ولد القديس باخوم فى بلدة كينو بوسكيون Kenoboskion[٢] فى طيبة، ويقال أن مكانها الان بلدة (قصر الصياد) الواقعة فى مديرية قنا بصعيد مصر ويختلف المؤرخون فى تحديد ميلاده، فيذهب البعض الى انه ولد عام٢٧٥م فى حين يرى البعض الاخر أن ميلاده كان فى عام ٢٩٠/٢٩١م وهو من ابوين وثنيين ثريين، حاولا أن يربياه على المعتقدات الوثنية. ولما بلغ العشرين من عمره تطوع فى الجيش الرومانى، وحارب فى بلاد الحبشة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين العظيم، وحضر مواقع عسكرية أظهر فيها مهارة فائقة، وكان لانخراطه فى سلك الجندية آثار من بينها:- أنها أخرجته من الجو الوثنى الذى كان يعيش فيه فى بلدته، واتاحت له الفرصة للاختلاط والتعرف على المسيحيين وعاداتهم ودينهم فى مناطق اخرى، فحدث أن أقامت وحدته فى طيبة وقيل فى بلدة لاتوبوليس Latopolis (اسنا حاليا) فترة قصيرة، وجد خلالها معاملة طيبة من المسيحيين الذين خرجوا بالطعام والشراب إليهم دون مقابل،

---

(١) باخوم كلمة من أصل قبطى معناها الباشق وهو نوع من أنواع النسور.

(٢) كلمه مأخوذة من اليونانية كينوبيون أو كينوبيوس وتعنى حياة مشتركة وهى تتركب من مقطعين الأول kionos أى مشترك والثانى Bois أى حياة، كما تعنى مكان به قلالى كثيرة، أصحابها متحدون فى نظام الحياة.

ولذلك ما كاد ينصرف عن الجندية حتى اعتنق المسيحية وهـو فـى الخامسـة والعشرين من عمره، وتم تعميده فى قرية كينوبوسكون (فى نجع حمادى حالياً) ثم مال الى حياة الزهد والتنسك، فتوجه الى أسوان، وتتلمـذ علـى يـد الانبـا بلامون، الذى وضع له نظاما مبدئيا يعيش عليه، ويتمثل فى أنه لا يتناول مـن الطعام الا كسرة واحدة من الخبز الجاف مع قليل من الملح مرة يوميا فى اثناء الصيف، ومرة فى كل يومين فى فصل الشتاء، وأنـه لا يسـتعمل الزيـت ولا يشرب النبيذ، وأن يقضى الليل فى ترديد المزامير والكتب المقدسة.

وكان دور التلمذة على يد بلامون عنيفا فى مجمله، مليئا بتعذيب الجسـد والصيام وسهر الليالى، وكان يعمل مع الانبا بلامون خلاله فى غزل الصـوف ونسج المسوح (لباس الرهبان). وقضى باخوم سبعة اعوام كاملة فـى رعايـة أستاذه ومعلمه بلامون، ثم أتخذ لنفسه معبدا مهجورا من معابد سرابيس،خاصة وان استاذه بلامون نصحه بان يعتـزل فـى صـومعة لانـه يتبـع الحكمـة القائلة(العزلة عبادة). ولم يلبث ان ضاق ذرعا بهذه الحياة الانفرادية التوحدية، التى تبتعد عن طبيعة البشر، فالانسان اجتماعيا بطبعه .

ويروى (بلاديوس) فى كتابه بستان الرهبان أن باخوم قد جـاءه مـلاك ليرشده إلى الطريق الذى يسلكه، وأخبره أن مدة تدريبه على حيـاة الرهبانيـة الانفرادية قد انتهت، وأن الساعة حانت ليجمع الرهبان فى ديـر واحـد لكـي يعيشوا معيشة مشتركة،ثم سلمه الملاك لوحة نحاسية كتب عليها سـت وصـايا منها :

١- دع الراهب يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء، والزمه بالعمل بقدر مـا يأكل، ولا تنهاه عن أكل . أما الضعفاء الذين يصـومون يـومهم فكلفهـم بأعمال غير مضنية .

٢- أقم لكل ثلاثة من الرهبان قلاية واحدة يأوون اليها .

٣- أن يتناول الطعام جميعا فى قاعة واحدة .

٤- كلفهم ألا يفترشوا الارض بل ينامون على مقاعد ذات مساند يستندون اليها فى منامهم .

٥- يأمرهم أن يلبسوا فى أثناء الليل -جلبابا بغير أكمام وأن يشدوا أوساطهم بحزام، وأن يغطى كل منهم رأسه بقلنسوة، وأن يزينوا مقدمتها بصليب أرجوانى .

٦- قسم الرهبان الى اربع وعشرين مرتبة او رتبة،وميز كل رتبة بحرف أبجدى من الالف حتى الياء، وكل حرف يميز صفة الراهب ونوع العمل الذى يؤديه، وسلوكه وتصرفه .

وسرعان ما شيد القديس باخوم أول دير عرفته المسيحية فى (طابنا) (*) قرب اخميم فى عام ٣٢٣م ليجمع فيه الرهبان الملتفين من حوله، ولم يكن هذا الدير هو الوحيد الذى أنشأه باخوم، بل بنى اديرة كثيرة، بلغ عددها تسعة اديرة للرجال واثنان للنساء، وضمت هذه الاديرة آلاف الرهبان، وسرعان ما تزايد عدد الأديرة الباخومية حتى بلغ عدد الاديرة الباخومية فى عام ٥١٨م خمسة وثمانين ديراً ـ فيما بعد ـ ضمت كافة الاجناس، وكانت هذه الاديرة تتبع رئاسة باخوم الشخصية المباشرة، وكان يقوم بجولات تفتيشية عليها مرتين سنويا، احداهما فى أبريل والاخرى فى اغسطس تحديدا ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعا، والاطلاع على أعمال وتقارير الاديره وخط سيرها.

(*) وهى دندرة حاليا شمال فاو الحالية بمحافظة قنا على بعد ٨٠ ك.م جنوب أسيوط وكلمة طابنا تعنى باللغة المصرية القديمة "نخل ايزيس". ويتكون الدير من مجموعة من المبانى يحيط بها سور، وفى داخل هذا السور توجد القلايات التى يقيم فيها الرهبان، كما توجد كنيسة وقاعة للطعام ملحق بها المطبخ، وقاعة للاجتماعات ومكتبة وورش العمل. كذلك يوجد بداخل الدير دار للضيافة ومنزل لإقامة حراس مدخل الدير.

وضع باخوم لديره تنظيمات شبه عسكرية، ولعله تأثر فى ذلك بما شـــهده فى الجيش الرومانى من نظم، فجعل للدير رئيسا يشرف على اعضاء الدير وله السلطة المطلقة عليهم، وكان لكل رئيس نائب يســاعده فــى الاشــراف علــى الاعمال اليومية العادية، التى يتطلبها الدير .وكان لكل دير أمين على خــزائن الدير ومخازنه وهو المسئول عن ترتيب بيع الفائض من حاجات الدير، وعمــل الحسابات الخاصة بذلك، كما كان للمكتبة خازن يكون من النساخ عــادة. كمــا جعل لكل الأديرة رئيساً أعلى يخضــع لــه كــل رؤســاء الأديــرة، ويلقــب بالأرشمندريت أى رئيس المتوحدين.

وفرض باخوم على اعضاء الدير الطاعــة والهــدوء والنظــام والعمــل اليدوى، بل ونظم اوقات الطعام، فكان يقدم الطعام للرهبان فى قاعــة المائــدة مرتين كل يوم، ومواعيد تقديمه فى الظهر، وفى المساء، ويتكون الطعام عــادة من الخبز والخضر والحساء والجــبن والفاكهــة، وهــذا يعنــى أن الرهبــان الباخوميين كانوا نباتيين لا محل لأكل اللحوم عندهم، كما كانوا لا يشربون النبيذ الا عند الضرورة كحالات المرض مثلا .

وكان على الراهب أن يدخل قاعة الطعام حاف القدمين بعد أن يخلع نعليه عند باب القاعة أو المطعمة، حتى لا يزعج غيره من الرهبان، ويتخذ مكانه في سكون، ويأكل ما يوضع أمامه من طعام وهو ملتزم الصمت . وتوجد منضــدة في صدر قاعة الطعام، يقف أمامها أحد الرهبان، ويقرأ التراتيل والترانيم حتــى ينتهي الرهبان من تناول الطعام .

كذلك نظم باخوم أوقات النوم،وكانت القاعدة هي سكنى الرهبان ثلاثة فى كل قلاية من قلايات الدير، اذ كان بكل قلاية ثلاث مصاطب لكــل منهــا رأس مرتفعة، مصنوعة من الطين على شكل وسادة، وكان على الرهبان ان يستيقظوا فى منتصف الليل ليقوموا بالتسابيح والتراتيل والصلاة والتأمل.

وكان الدير الباخومى صورة للنشاط والحركة مع مثابرة وانتظام فى تأدية الفروض الدينية. اذ جرى تقسيم العمل اليومى بين تأدية الاعمـــال الضـــرورية والهامة للحياة، وبين تأدية الطقوس الدينية والصلوات بالكنيسة وتلاوة الانجيل. وكان من الرهبان من يعمل فى الحدادة أو النجارة أو فى تنظيف الثياب أو فـــى صناعة السلاسل أو الدباغة. ومنهم من يقوم بحياكة الملابس أو نســـخ الكتـــب الدينية والانجيل أو بتعليم الرهبان مبادىء الديانة وأصولها، كذلك كان من بـــين الرهبان من يعمل فى الحقل أو فى الحديقة.

وكان الرهبان يرتلون المزامير وغيرها أثناء العمل فى نظام، وكان العمل اليدوى يهدف الى أن يكسب الراهب عيشه بعرق جبينه، وأن يشغله العمل عـــن التعرض للتجارب والافكار الشريرة. ومن ثم كان الدير الباخومى مجتمعا مهنيا يكفى نفسه بنفسه، بل ويقوم بتغطية احتياجات المناطق المجاورة له والى جانب تأدية الاعمال الضرورية للحياة، كان الرهبان يجتمعون بالكنيسة للصلاة ثـــلاث مرات فى اليوم فى الصباح الباكر، وعند الظهر، وفى المساء أما تأدية القـــداس فيومى السبت والاحد حيث يتناول الرهبان العشاء الربانى " العشاء الأخير للسيد المسيح مع تلاميذه".

وإلى جانب العمل اليدوى قضى باخوم على الامية فى أديرته قضاء مبرم وجعل معرفة القراءة والكتابة شرطا من شروط الدخول فى الدير، ثم أنه نظـــم ثلاثة دروس يومية للمبتدئين، فى الساعة الواحدة والثالثة والسادسة، ودروســـا أخرى يقوم بها رؤساء الأديرة لتفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية، وكـــان حضورها أجباريا لجميع الرهبان فى يومى الصيام الاسبوعى اى يومى الاربعاء والجمعة، كما كانت مكتبة الدير مفتوحة على مصرعيها للقراءة والاطلاع .

أما بالنسبة للرهبان الجدد فكان عليهم أن يقضوا ثـــلاث ســـنوات تحـــت التمرين، ويقيمون خلالها فى بيت على مقربة من بوابة الدير، وعليهم خلالها أن

يتعلموا القراءة والكتابة إن كانوا يجهلونها، وعندما تثبت أهليتهم للرهبانية يتركوا البيت الذى بجوار البوابة، ويقيموا فى قلايات الدير، ويتسلمون الزى الرهبانى المكون من قميص بدون أكمام ويشدوا الوسط بحزام، ورداء خارجى فضفاض بدون أكمام كذلك، مصنوع من جلد الماعز، وعباءة وقلنسوة للرأس منقوش عليها علامة الدير.

وأتسم باخوم بالشدة والصرامة مع المخالفين، وكان للعقاب درجات من بينها التوبيخ العلنى، والحرمان من وجبات الطعام أو العقاب البدنى كالجلد بالسياط وحبس الراهب فى قلايته، ومنها ايضا الحرمان والطرد من الدير .

على الرغم مما اشتهرت به ديرية باخوم من الصرامة، إلا أن باخوم اشتهر باللطف والعطف كذلك، ودليل ذلك ما أشار به باخوم من أن المريض من الرهبان يجب أن يحظى بكل الرعاية والعناية والاهتمام. كذلك ما ورد من أخبار باخوم ينطوى معظمها على ما اشتهر به من العطف والإحسان، مثال ذلك إنه رفض أن يشترى لديره قمحاً بسعر أقل من السعر السائد زمن المجاعة.

ظل باخوم يعمل جاهدا فى سبيل تدعيم أديرته حتى توفى بمرض الطاعون، الذى تعرضت له مصر فى عام ٣٤٨م، وذلك بعد أن وضع بذور الرهبانية الجماعية فى مصر. على أن وفاة كل من انطونيوس وباخوم لم تعن أن الرهبانية والحركة الديرية قد توقفت فى مصر بعد وفاتهما، وانما كان كل من انطونيوس وباخوم روادها ومؤسسيها، فلم تلبث الديرية الجماعية أن انتشرت بعد ذلك وظهرت فى أرض مصر جماعة كبيرة من الرهبان، الذين حملوا راية الحركة الديرية، ومن هؤلاء :(شنودة الادريبى)(*).

(*) الأدريبى نسبة الى جبل ادريب، الذى يقع الدير الابيض فى اسفله، وسمى بذلك نسبة الى مدينة فرعونية فى المنطقة تسمى ادريب Adrab وقد استخدم شنودة بعض أحجار هذه المدينة فى بناء الدير الابيض.

رهبانية النساء الجماعية الديرانية :

ولم تجتذب أديرة باخوم الرجال دون النساء، بل اجتذبت عددا كبيرا من العذارى والنسوة، وكانت أولى هؤلاء العذارى (مريم شقيقة باخوم) نفسه، فقد ذهبت الى الدير فى أحد الايام لتسأل عن أخيها، فبعث اليها برسالة يقول فيها: "يكفى أن تعرفى أننى فى صحة جيدة، وأننى حى سالم وأن رغبتى فى أن تتشبهى بى، فأنى ابنى لك ديرا تقضين فيه حياة النساك، وأننى لواثق من أن كثيرات من العذارى سيقتدن بك "، فأزرفت مريم الدموع، ولبت دعوة أخيها، وحذت حذوه، لذلك أمر باخوم بعض رهبانه أن يبنوا لها ديرا على مقربة من ديره، وذلك فى عام ٣٤٠م، وعرف هذا الدير بأسم(دير العذارى)، وعين له باخوم شيخا من شيوخ رهبانه يدعى بطرس فكان مشهودا له بحسن الخلق والتقوى وكان يقودهن فى طريق الفضيلة بحسب وصايا الانجيل والقوانين، التى أرسلها إليه باخوم ليعلمهن أياها. كذلك قام بطرس بزراعة الأرض التابعة لهذا الدير مع بعض الأخوة الرهبان الذين كانوا يعودون فى المساء إلى أديرتهم.

وسرعان ما كثر عدد العذارى اللاتى التحقن بهذا الدير حيث بلغ اربعمائة من العذارى، مما دفع باخوم إلى إنشاء دير آخر للنساء بالقرب من اخميم، أطلق عليه اسم دير مينا، ووضع لهن نفس النظام والقوانين التى وضعها للرهبان الرجال، وتبع ذلك انتشار اديرة النساء فى أنحاء مصر، وكذلك انتقل هذا النظام الى خارجها.

ويذكر الرحالة بلاديوس الذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع الميلادى أنه زار ديراً للراهبات فى اتريب (أدريب) بجوار اخميم بناه أحد ملاك الارض الأغنياء، واشرف على ادارته أحد شيوخ الرهبان الذى أقام فى حجرة عالية لاتتصل بالراهبات فى داخل الدير، ولكن ينفتح بابها الى خارج الدير . ويبدو أن وظيفة هذا الشيخ لم تتعد مراقبة الراهبات فى بعض الأوقات، وكذلك تزويدهن بالتعاليم والعظات من مكانه المرتفع .

ومن اديرة النساء كذلك عدة اديرة تقدر باثنى عشر ديراً فى انتينـــوس أو انطينوى Antinopolis (انصنا) ـــ هى قرية الشيخ عبادة فى ملـــوى بأســـيوط حالياً ـــ عاشت فيها النساء أو الراهبات حسب قواعد النســك ونظـــام القـــديس باخوم وذلك خلال القرن الرابع الميلادى. وزارها الرحالة بلاديوس وكانت هذه الاديرة تحت اشراف الام (تاليدا)، وكان يعيش تحت رعايتها وفى كنفها ســـتون راهبة، وكن جميعا يحبونها ويطعن أوامرها عن رضى، وليس أدل علىذلك من أن بوابة الدير، كانت تظل مفتوحة طول النهار، ولا تستطيع احداهن أن تخرج دون أن تحصل على تصريح منها، وظلت الام تاليدا تدير هذا الدير حتى بلغت الثمانين من عمرها، ويذكر بلاديوس أنه ذهب لزيارتها ونال بركتها.

ومن النساء اللواتى كرسن حياتهن للبروالقداسة فى مصـــر أيضـــا (الأم ثيودورا) التى ولدت فى الاسكندرية، ونشأت فيها، وكانت معاصرة للبطريـــرك أثناسيوس، وعندما بلغت مبلغ الشباب، أراد أبوها أن يزوجها، ولكنهـــا أعلنـــت عن رغبتها فى ممارسة حياة الرهبانية، وقامت ببيع كل ما تمتلكه مـــن ثيـــاب وحلى وشيدت بثمنها كنيسة غربى الاسكندرية، وبنت داخـــل الكنيســـة غرفـــة لسكنها الخاص. وقضت ثيودرا حياتها من أجل مساعدة الفقراء والمحتاجين ممن جاءوا يطلبون مساعدتها، فلم ترد أحدًا دون إجابة طلبه. وما لبثت أن رســـمت راهبة على يد بطريرك الاسكندرية، ثم أما لعدد من الراهبات عشن معها فـــى دير بالاسكندرية، وكانت تعلمهن وتسهر على رعايتهن بلا ملل أو كلـــل حتـــى وافتها المنية بعد أن بلغت المائة من عمرها.

شنودة الادريبى الاخميمى ونظامه الديرى (٣٣٣-٤٥١م) :

ولد شنودة الادريبى أو الأخميمى فى عام ٣٣٣م وقيل ٣٣٤م، فى بلدة قرب أخميم (تدعى شندويل) بصعيد مصر، لذلك يعرف بالاخميمى وكان والده ابجوس مزارعا من ذوى اليسار إذا كان يمتلك أرضاً واسعة وأغناما كثيرة، وتدعى أمه دوربا، واشتهر ابواه بالتقوى والفضيلة، وكان شنودة يميل منذ

نعومة أظافره الى الصلاة والصوم والتقشف، وحب الصدق، وعمل الخير لذلك اصطحبه أبـوه يومـا وهو فى التاسعة من عمره لزيارة خاله بيجول فـى ديره -على بعد خمسة كيلو متر غرب سوهاج- وكان من الرهبان ذائعى الصيت ذلك الحين وممن يمارسون رهبانية القديس باخوم.

ولم يقدر للفتى شنوده العودة إلى منزله ثانية بصحبة أبيه ابجوس، بل ظل ملازماً لخاله بيجول، الذى طلب من والده أن يدعه عنده لمدة أسبوع حتى يختبره - كما يذكر الانبا ويصا - كاتب سيرة حياة القديس شنودة، ونجح شنودة فى الاختبار بجدارة، فقد رأه خاله الأنبا بيجول مكبا على العبادة والصلاة، متقشفاً فى طعامه وشرابه، لذلك رسمه راهباً، والبسه الأسكيم (*) وهو فى هذه السن الصغيرة، وبذلك دخل شنودة فى زمرة الرهبان والنساك، وعنى الانبا بيجول بتثقيف شنودة، وعمل على تدريسه الكتاب المقدس دراسة عميقة، مما ترك أثراً واضحاً فيما بعد فى مقدرته على الخطابة، والبلاغة فى الكتابة. كذلك اهتم الانبا بجول بأن يتقن شنودة اللغتين القبطية واليونانية، فنبغ فى الأولى نبوغاً عظيماً، ودرس الثانية دراسة جيدة، وعن طريق هذه اللغة امكنه التفاهم مع الحكام من البيزنطيين، ولذلك احتل شنودة مكانة مرموقة بين زملائه من الرهبان.

وبعد أن مات خاله بيجول أصبح شنودة رئيسا للدير فى عام ٣٨٣م أو ٣٨٥م، وقام شنودة بعدة اصلاحات جديدة فى هذا الدير وبصفة خاصة الكنيسة التى شيدها وهى كنيسة الدير العظمى(اى الدير الابيض) (**)، هى من اضخم ما

(*) كلمة قبطية معناها شكل وهى عبارة عن قطعة من الجلد المضفور تتخلله الصلبان على ابعاد متساوية وهو يحيط بمن يرتديه من الأمام والخلف، وبه صليبان كبيـران أحـدهما للصدر والآخر للظهر ثم اثنى عشر صليباً صغيراً من الجلد المضفور . ويلبس الاسـكيم النساك الذين بلغوا درجة عالية من النسك والتقشف .

(**) ا لدير الابيض يبعد عن سوهاج بحوالى ٨ ك.م.، وسمى بهذا الاسم لأنه شيد أغلبه مـن الحجر الجيرى، على طراز معابد مصر القديمة، وهو ينفرد بهذه الخاصية عـن سـائر الاديرة الأخرى، وشيد فى عام ٣٨٣م.

شيده القديس شنودة فى عهده،كما شيد كنيسة اخرى بالواحات. وكان لديره تأثير كبير على الاقاليم المجاورة له، ولذلك جاءه الزائرون من مشارق الارض ومغاربها من سوريا والقسطنطينية، ومن اليونان وروما وبلاد الغال واسبانيا وغيرها.

ولما تزايد عدد الرهبان فى عهد شنودة الادريبى فى ديره، سارع بانشاء عدة أديرة أخرى خاصة بعد أن بلغ عدد الرهبان فى عهده ٢٢٠٠ راهباً، كما اقام ديرا للنساء بعد أن تزايدت اعداد الراغبات منهن فى ممارسة حياة التنسك والرهبانية، وجعل هذا الدير الاخير تحت رئاسته، وبلغ عدد الراهبات فيه ألف وثمانمائة راهبة، لذلك شرع فى بناء دير آخر للراهبات، واختار لهن رئيسة تدير شئونهن، وكتب رسائل عديدة للراهبات بغرض تعليمهن وارشادهن وتثبيتهن على الايمان القويم، شأنه فى ذلك شأن القديس اثناسيوس.

أما عن شروط القبول فى رهبانية شنودة،فهى ان يعيش الراهب عيشة الفقر الاختيارى، العفة والطاعة، ودراسة الكتاب المقدس،والاهتمام بالعمل اليدوى.

نظام الأنبا شنودة الرهباني الديراني :

قام الأنبا شنودة بوضع سلسلة من القوانين والتنظيمات الديرية، تشبه قوانين القديس باخوميوس، التي سار عليها خاله الأنبا بجول، ولكنه طورها حتى تتلائم مع عصره، ومع احتياجات الرهبان، ومع الدور الذي بدأت تلعبه الرهبانية في حياة الكنيسة. فيذكر ويصا " أن أبى الطاهر أنبا شنودة قد وضع تعاليم كثيرة ... ووضع قوانين لأولاده الرهبان ولغير أولاده من سائر الرهبان القديسين".

فبالنسبة للرهبان الجدد : كان على طالب الرهبانية أن يقضي فترة

اختبار لبعض الوقت خارج الدير، وليس داخله، كما في نظام القديس باخوميوس حتى تتكشف استعداداته لممارسة حياة العبادة والزهد والتقشف، فإذا أثبت صلاحية، أجيز، وسمح له بدخول الدير، والإقامة فيه ومساواته في الحقوق والواجبات مع بقية رهبان الدير على اختلاف مراتبهم، وهذا ما كان يحدث في أنظمة القديس باخوميوس والأنبا بجول، ولكن الجديد الذي أدخله الأنبا شنودة أنه على الراهب المستجد أن يقدم عن نفسه تعهدًا كتابيًا يحفظ في أرشيف الدير للدلالة على طاعته، وقد أشار إليه الأنبا ويصا، كما أوردت المخطوطات القبطية صورة هذا التعهد أو الميثاق على النحو التالي : " أتعهد أمام الله في هذا المكان المقدس، وتشهد عليَّ الكلمات التي تخرج من فمي، أنني لن أدنس جسدي بأية وسيلة، ولن أسرق، ولن أشهد زورًا، ولن أكذب، ولن أباشر بأية طريقة أعمال الغش في الخفاء، فإذا نقضت هذا العهد فلأشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلها، وليعذب الله نفسي وجسدي في نار جهنم إذا نقضت هذا العهد الذي أخذته على نفسي في حضرته ".

ويلاحظ أن صورة هذا التعهد تختلف عن صورة التعهد الذي سبق وأخذه الأنبا بجول على رهبانه، إن كان كلاهما يستهدف تقوية مركز رئيس الدير ومقدمه، خاصة في حالات الجدل والمناقشة، مع عدم التفريط في حقوق الرئاسة التي اكتسبها الأنبا بجول والأب شنودة من الدير الباخومي.

أما عن **نوعية رهبان أديرة الأنبا شنودة**، فقد كانوا مصريين خُلص على عكس أديرة القديس باخوميوس، التي كانت أديرة دولية عالمية الطابع، تضم بين جنباتها الرهبان المصريين والأجانب، فترى فيها الراهب المصري والبيزنطي واليوناني والأفريقي واللاتيني على السواء، أما أديرة شنودة فكانت مصرية الطابع لا يدخلها إلا الرهبان المصريون. ولعل هذا كان واحدًا من الأسباب التي جعلت الكثير من الرحالة الأجانب، الذين زاروا مصر وأديرتها يؤثرون

الصمت، ولا يذكرون شيئًا البتة عن شنودة وأديرتــه، ومــن أبــرز هــؤلاء: روفينوس الذي قضى بمصر ستة أشهر خلال عام ٣٧٣م، وجيروم الذي جــاء إلى مصر عام ٣٨٦م لزيارة أديرتها، وكذلك الرحالة الشهير بلاديوس أســقف هيلينوبوليس Helenopolis الذي قضى السنوات من ٣٨٨-٣٩٩م فــي طيبــة، ومن ٤٠٦-٤١٢م في وادي النطرون، والرحالة كاسيان الذي جاء إلى مصــر بين عامي ٣٩٠، ٤٠٠م وزار أديرتها حتى طيبة. وليس من المعقول أن هؤلاء الرحالة الذين أقاموا في مصر كانوا يجهلون أديرة الأنبا شنودة، ولكــن أغلــب الظن إنهم سمعوا قسوة قوانينها، وصعوبة الحياة في ظلها لذلك لــم يستســيغوا مبادئها، وآثروا عدم التحدث عنها وعن مؤسسها. كما أن البعض أرجع الســبب في ذلك إلى وجود حاجزي اللغة والثقافة بين العناصر الإغريقية اليونانية وبين المصريين.

وإذا كانت أديرة شنودة قد أغلقت أبوابها أمام الأجانب فقد فتحتهــا علــى مصاريعها أمام المصريين من أفراد الشعب، الذين كانوا يأتون إليها أيام الآحــاد والأعياد لمشاركة الرهبان صلاة القداس، وطلب المشورة، والاستماع إلى خطب القديس ومواعظه، والارتشاف من تعاليمه، مما قوى روابط الاتصال بينه وبين شعبه. ومن ثم فأن أديرة شنودة كانت أديرة مفتوحة، أمــا أديــرة بــاخوميوس فكانت أديرة مغلقة قاصرة على الرهبان دون غيرهم.

ولم تجتذب أديرة الأنبا شنودة أفراد الشعب فحسب، بل اجتذبت كثير من الرهبان والراهبات، فيذكر الأنبا ويصا أنه كان تحت يده " ألفان ومائتين راهب، وألف وثمانمائة راهبة ... سوى الصغار والمهتمين بهم "، وسرعان ما تزايدت أعداد هؤلاء الرهبان والراهبات بدليل ما يذكره المقريزي من أنه " كان تحــت يده ستة آلاف راهب " وأخذ الأنبا شنودة على عاتقه تهذيب هــؤلاء الرهبــان وتعليمهم وإرشادهم إلى الحياة الديرية الصحيحة. ولم يعتن الأنبا شنودة بالرهبان

فحسب، بل اعتنى كذلك بالراهبات، فعندما تزايدت أعدادهن ابتنى لهـن ديـرًا خاصاً بهن، ووضع لهن نظامًا يتناسب مع طبيعتهن، كأن يقمن بحياكـة ثيـاب الرهبان، على أن يمدهم بما يحتجن إليه من منتجات أديرة الرهبان، وقد اختـار لهن رئيسة تدير شئونهن، ولم يكتف بذلك بل كتب العديد من الرسائل لهـؤلاء الراهبات، الغرض منها تعليمهن، وإرشادهن، وتثبيتهن على الإيمـان القـويم، وتشجيعهن على ممارسة حياة البتولية (العذوبة) محاكيًا بذلك القديس اثناسيوس، الذي ألف رسالة تحت عنوان " التبتل العذري " ذكر فيها العديد مـن النصـائح والإرشادات لمن تريد أن تمارس حياة البتولية.

شجع الأنبا شنودة رهبانه على ممارسة الرهبانية التوحدية أي حياة العزلة والانقطاع للعبادة والعمل في جوف الصحراء ــ إلى جانب ممارسـتهم للحيـاة الديرية الجماعية ــ فقد اعتاد منذ صباه الانقطاع في البريـة بمفـرده للعبـادة والتأمل والعمل كذلك، واستمر يمارس هذا النوع من الرهبانية حتى بعد توليـه رئاسة الدير الأبيض، ولم يجرؤ أحد من رهبانه على الاقتراب منه أثناء عزلته، بل أن تلميذه ويصا، ونائبه في الدير، وكاتب سيرته، كان يتردد كثيرًا قبـل أن يذهب إليه حينما يطرأ عذر قاهر، لأن الأنبا شنودة كان ينهره قائلاً له : " ألـم أقل لكم لا ترسلوا ولا تتعقبوني في هذا الاسبوع". ويذكر في موقـع آخـر، أن أمرًا هام اقتضى استدعاء الأنبا شنودة إلى الدير ولكن "خشينا أن نمضي إليـه لأنه أوصانا قائلاً : " لا تدعوا أحدًا يدخل إليَّ ". أي يذهب إليـه فـي البريـة ويقطع عليه عزلته.

وكان الأنبا شنودة يسمح لرهبانه الذين حاكوه ومارسـوا حيـاة العزلـة والرهبانية التوحدية في البرية، بأن يحضـروا إلـى الـدير للحصـول علـى احتياجاتهم من الطعام والشراب والملبس، وكذلك لحضـور اجتماعـات الـدير السنوية وعددها أربعة، وذلك للتشاور في أمور الدير، فيذكر الأنبـا ويصـا أن

المسئول عن مزرعة البقول في الدير، وأمين مخازنه، كان يوزع منهـا علـى المتوحدين وغيرهم من الرهبان، كما يذكر في موضع آخر أن الراهب ابساد — وكان خبيرًا في الفلاحة وماهر في غرس الأشجار والبقول — كان كـريم اليـد وبخاصة مع الأخوة المنفردين في الكهوف والقاطنين في المقابر والسواح الذين في الصوامع، وكان يحمل إليهم البقولات وما يقع به من الفواكه ".

وجمع رهبان الأنبا شنودة بذلك بين الرهبانية التوحدية التي مارسها " أبو الرهبان " القديس انطونيوس وبين الرهبانية الجّماعية الديرانية التـي مارسـها الأنبا باخوميوس، إذ كان الأنبا شنودة مـن أشـد المعجبـين بنظـام القـديس أنطونيوس فيروي الأنبا ويصا أن جماعة مـن رهبـان وادي هبيـب الجبـل المعروف بميزان القلوب، تجادلوا مع أبى القديس وقالوا : أترى في هذا الجيـل أو في الأجيال الماضية راهب يعادل أبونا أنطونيـوس أو شـبهه فـي نسـكه وفضائله وعبادته ". فقال لهم أبي " لو جمعتم رهبان هـذا العـالم بأسـره ... وجميع من يأتي بعد هؤلاء لا يعادلوا أنطونيوس الواحد مع الأخـوة ". وهـذه العبارات تنم عن تقدير عظيم للقديس أنطونيوس ونظامه الرهباني مع الـدعوة للسير على منواله في ممارسة حياة الرهبانية التوحدية، التي يعـد أنطونيـوس رائدها ومؤسسها ومعلمها.

واستحق الأنبا شنودة – من جراء ممارسته ورهبانـه الحيـاة التوحديـة الانفرادية – أن يلقب بالأرشمندريت أي رئيس المتوحدين كما تنبأ له من قبـل خاله بجول، الذي يعد أول من لقبه بهذا اللقب عند لقائه الأول به وهو مـازال صبيًا صغيرًا. ثم تلقب به رسميًا على يد البطريرك كيرلس بطريرك الإسكندرية أثناء انعقد المجمع المسكوني العالمي الثالث في أفسوس عام ٤٣١م.

ووضع الأنبا شنودة لأديرته نظامًا ثابتًا للإدارة، أسوة بما وضعه الأنبـا باخوميوس، فجعل لكل دير رئيس، يشرف على أعضاء الـدير ولـه السـلطة

المطلقة عليهم، ويقيم داخل الدير مع الرهبان يعظهم ويعلمهم ويرشدهم، وكـــان لكل رئيس نائب يساعده في الإشراف على الأعمال اليومية العادية، التي يتطلبها الدير، وكان الأنبا ويصا يلعب هذا الدور في دير أستاذه ومعلمه الأنبـــا شـــنودة فكان يقوم بين يديه، وينفذ أوامره، ويساعده في الإشراف على أعمـــال الـــدير، ويحل محله في غيابه عن الدير. كذلك جعل الأنبا شنودة وكيلاً للدير من الأخوة الرهبان المتقدمين في السن، والمشهود لهم بالتقوى والورع، يقوم بتعهد أمـــور الرهبان، ويسعى لقضاء حوائجهم، ويعامل الكل ســـواء بســـواء دون محابـــاة، ويكون أمينًا فيما سلم إليه، لذلك يطلق عليه كذلك " أمين الدير ". وكان لكل دير " خازن " يتعهد ما في خزائن الدير من أطعمة ومعدات، وهو المســـئول عـــن ترتيب بيع الفائض من حاجات الدير، وعمل الحســـابات الخاصـــة بـــذلك، ولا يستطيع أن يصرف شيئًا مما في عهدته إلا بأمر من أمين الدير. وبجانب ذلـــك كانت هناك إدارات خاصة بكل فرع من فـــروع العمـــل كـــالمطبخ، والفـــرن، والمخازن، والمائدة، والزرع، وغيرها؛ وكان على رأس كل منها أمين كذلك.

وحدد الأنبا شنودة أوقات العبادة، ونظم الصلوات للرهبان فجعلها أربـــع صلوات على النحو التالي :

١- صلاة قصيرة ترددها كل مجموعة من الرهبان قبل البدء في العمل المنوط بها وعند الانتهاء منه.

٢- صلوات انفرادية خاصة يؤديها الرهبان داخل قلاياتهم، وتتضـــمن بعـــض المزامير والتسابيح، وبما أنها خاصة فقد تركت الحرية لكل راهب فـــي مـــا يقول ويرتل وفي المواعيد التي يختارها.

٣- صلوات جماعية يؤديها الرهبان في كنيسة الدير، أربع مرات يوميًـــا فـــي الصباح، وعند الظهر، وعند الغروب وبالليل، وكان الرهبان يهرعون جميعًا لحضورها في صمت وهدوء.

٤- صلاة القداس يوم الأحد وكما كان متبع في الأديرة الباخومية – أن تكون خاصة بالرهبان وحدهم – ولكن في أديرة شنودة، كان يسمح لأفراد الشعب وسكان المناطق المجاورة بالمجيء إلى الدير مساء السبت من كل أسبوع لحضور صلوات المساء، وتظل الكنيسة مفتوحة ومضاءة حتى انتهاء الصلاة في اليوم التالي، ثم يدعوهم الأنبا شنودة جميعًا إلى تناول الغداء على موائد أعدها لهم الرهبان خصيصًا، وكانوا يخدمونهم بأنفسهم ساعة الأكل، ثم يعظهم الأنبا شنودة ويرشدهم، وينصرفون بعد ذلك إلى بلادهم.

ونظم الأنبا شنودة أوقات الطعام، فكان يسمح للرهبان بوجبة واحدة فقط في اليوم، وليس وجبتان كما في أديرة القديس باخوميوس، يتناولها الراهب أما في المساء أو الغداة، وتقتصر على الخبز والخضر والبقول، أما اللحوم والنبيذ والبيض والجبن والأسماك فهي من الأطعمة الممنوعة في أديرة شنودة، إلا أن المرضى والضعفاء كان يسمح لهم بتناول هذه الأطعمة الممنوعة، فالرحالة بلاديوس يتحدث عن رجل يدعى أبو للونيوس التاجر كان يمضي إلى الإسكندرية لشراء احتياجات الأخوة المرضى من الرهبان، وكان يمر يوميًا على قلايات الرهبان في الأديرة من الفجر حتى الساعة الثالثة عصرًا ليعطيهم طلباتهم، وكان يحمل لهم الرومان والكعك والزيت والبيض وكل ما يحتاجون إليه. واهتم الأنبا شنودة بالأخوة الرهبان المرضى، وحرص على زيارتهم باستمرار، وكان يجلس إلى جوارهم ويواسيهم، وقد أورد تلميذه الأنبا ويصا الكثير من الأمثلة، التي توضح عنايته بهؤلاء الأخوة المرضى حتى يمتثلوا للشفاء.

وعني الأنبا شنودة عناية فائقة بالعمل داخل الدير، فجعله إجباريًا، بل وشرطًا من شروط دخول الدير، وسن القوانين بشأنه ومنها :

١-غير مسموح لمن يريد الدخول أو الانضمام إلى مجتمعنا في أي وقت ليصبح

راهبًا أن يقول : " أنني سأواصل في هذا المكان العمل الذي بدأته في بيتي وأكمله هنا ما لم يصدر له أمر بذلك ".

٢- كذلك غير مسموح له بأن يقول : " إن العمل الذي من أجله جاء إلى هذا المكان هو دراسة الكتاب المقدس أو تعلم الكتب التي وضعت لنا ".

٣- إذا لم يرغب أحد في العمل في غير حرفته، التي كان يمارسها في بيئته الأولى، على أساس أن هذه الحرفة هي التي يتقنها فقط فقولوا له : " إذا كنت قد أتيت إلى هذا المكان لتعمل في حرفة معينة فقط ولا تعمل من أجل خلاص نفسك، فأمامك المكان الذي أتيت منه، عد إليه لتمارس حرفتك الأولى ".

٤- إذا كنت لا تريد أن تعمل أي عمل سوى ما تعلمته في موطنك، فمن ذا الذي يؤمن بأنك ستترك أعمالك جانبًا، وشئونك الدنيوية والجهل والفساد، وسائر الأمور الشريرة لكي تتهذب وتتطهر، وتتقي نفسك، وتعمل كل شيئ حسنًا وفق ما تؤمر به، لأن كل من جاء إلى هذا المكان لا يجب أن يعمل حسب إرادته، بل حسب إرادة الرب.

وتتبع هذه القوانين من إدراك الأنبا شنودة لأهمية العمل، فهو من ناحية يشغل فراغ الراهب، ففي عرفه : " أن من يعمل يهاجمه شيطان واحد، ومن لا يعمل تهاجمه شياطين عدة ". وبالتالي فالعمل يلهي الراهب عن التفكير في أمور الدنيا وشرورها، ومن ناحية أخرى فإن العمل يوفر التغذية لرهبان الدير، ومساعدة المحتاجين الذين يفدون إلى الدير، وقد ضرب الأنبا ويصا العديد من الأمثلة الدالة على ذلك، ومنها ما جاء على لسان القديس شنودة نفسه " ونحن في كل حين نعطي الفقراء والمساكين " ويذكر الأنبا ويصا في موضع آخر : " في كل سبت يأتي إلى أبي مساكين كثير يقربون من يديه الطاهرة ... فتقدم للجموع بمائدة فأكلوا جميعهم ... ".

أما عن الأعمال المهنية، التي كان يؤديها الرهبان فـي أديـرة القـديس شنودة، فهي عديدة، وإن كان المقريزي قد ذكر : " وكان (أي الأنبـا شـنودة) يتقوت هو وأياهم (أي رهبانه) من عمل الخوص". ويتضح من عبارة المقريزي هذه أن العمل في أديرة شنودة كان قاصرًا على صناعة الخوص فحسب، ويبدو أن ذلك كان في بداية الأمر، لأن الأعمال داخل الدير مـا لبثـت أن تعـددت بتضاعف أعداد الرهبان، ففي داخل الدير كانت تمارس أعمال النجارة والحدادة والحياكة، والطحن والعجن والخبز والطهي، وصناعة الحصر والمقاطف مـن سعف النخيل، أما في خارج الدير فهناك أعمال الزراعـة مـن حـرث وزرع وحصاد ودرس وتخزين، ورعاية للماشية، وري البساتين وغيـر ذلـك. أمـا المتعلمون من الرهبان فقد خصهم القديس بتعليم الرهبان الخط والقيـام بنسـخ الكتب المقدسة وتمويه حروفها بماء الذهب.

وكان العمل يسير وفق نظام معين، إذ يذكر الأنبا ويصا : " فلمـا كـان وقت الشغل، ضرب الناقوس، ليذهب كل واحد إلى عمله إلى حـين المسـاء ". ويتضح من هذه العبارات أن عمل الرهبان يبدأ من سماع الناقوس في الصـباح الذي كان بمثابة إشارة البدء في العمل، فيذهب كل منهم على أثر سماعه إلـى العمل الذي يجيده، ويستمرر في أداء عمله حتى المساء، وذلك تحـت إشـراف القديس شنودة وبتوجيه منه، بدليل ما يرويه الأنبا ويصا من إنه ذات مرة تغمغم الخبازون من أجل الرماد الذي يفرغونه من التنانير فقال أبي: " التنانير إحـدى عشرة، دعوا الوسطاني خاويا ولا تستعملونه، واجعلوا خمسة من هذا الجانـب وخمسة من الجانب الآخر، وكل الرماد الذي يوجد في العشرة اطرحـوه فـي الوسطاني منهم ... فصنعنا كما قال ... ".

وكان الأنبا شنودة يكره الكسالى، ويمقتهم ويزجرهم بشدة، فيذكر الأنبـا ويصا أنه كان من بين الرهبان، راهب كسلان متوان يدعى هرقل، يمشي مـع

أخونه الرهبان وهو يضحك ... ويمزح، فنهض أبي بغضب وأمسكه، وطرحه على الأرض، وقال له : " كف عن طغيانك ... ". وذلك ليكون عبرة لغيره من الكسالى، الذين كانوا قلة بطبيعة الحال داخل الدير. فقد كان الدير الشنودي خلية نحل تعمل من الصباح حتى المساء، وتسد جميع احتياجات الدير بل والمناطق المجاورة كذلك.

واهتم الأنبا شنودة بالتعليم داخل الدير قدر اهتمامه بالعمل بل أشد، فعني بتعليم رهبانه وتثقيفهم، فلم يكن يسمح بقبول راهب إلا بعد أن يجيد القراءة والكتابة خلال فترة الاختبار، وكان القديس شنودة يهدف من وراء ذلك إعانة رهبانه على قراءة الكتب المقدسة، وكتب الصلوات، وتاريخ الرسل والقديسين، خاصة أنه كان يفرض عليهم أن يدرسوا الأسفار المقدسة دراسة تأملية عميقة، وأن يحفظوا مزامير دواد النبي، حتى تترنم بها ألسنتهم دائمًا أثناء أداء الصلوات أو أثناء قيامهم بأعمالهم اليومية أو تناولهم الطعام.

وحرص الأنبا شنودة معلم الرهبان الأول على أن يجمع رهبان ديره بين الفنية والفنية، إلى مكان متسع بالدير، ليلقي على مسامعهم الخطب والعظات. التي تدور حول التمسك بالفضائل المسيحية، وتجنب مخالفتها، والعمل على تقوية الروح، حتى إذا ما تعرض الراهب لسهام الأعداء، يستطيع أن يجاهد وينتصر. كذلك اهتم الأنبا شنودة بفن الكتابة، فالحق بالدير الأبيض مدرستين يتعلم فيهما الموهوبون من الرهبان كيفية نقل الكتب ونسخها وزخرفتها، فضلاً عن تعليم الخط. فأديرة الأنبا شنودة كانت أديرة علم ودراسة، قائمة على التعمق في دراسة اللغة القبطية خاصة بلهجتها الصعيدية.

واحتوى دير الأنبا شنودة على مكتبة، وإن كانت صغيرة، لحفظ الكتب حتى يسهل على الرهبان الاطلاع عليها ودراستها والإفادة منها، فيذكر أبو المكارم " كان القديس أبو شنودة قد عمل تابوت خشب ساسم مطعم بالعاج فيه

ثلاث طبقات، وكان القديس أبو شنودة عمله برسم الكتب ". وهذه المكتبة خصصت لها الحجرة التي تقع شمال الحنية الرئيسة في كنيسة الدير الأبيض، التي بناها الأنبا شنودة، فقد حفر على أحد جدرانها الأربعة أسماء عدد من الكتب، بل وفي بعض الأحيان عدد نسخ كل منها.

وكان الأنبا شنودة رجلاً صارمًا، شديد البأس، بالغ العنف والقسوة على رهبان ديره، يبث فيهم روح الخوف والرهبة، ليجبرهم على الطاعة، حتى روى عنه قوله عن نفسه : " أنه بالخوف والرعب، يستطيع أن يجبر الرهبان على محبة الله وطاعة أوامره ". لذلك كان لا يتردد في أن ينزل ــ دون رحمة أو شفقة ــ أشد العقوبات وأعنفها بمن يحدث أقل خلل أو يحاول الخروج على نظام الدير، فكان يضرب رهبانه بالعصى والسوط ضربًا شديدًا، وتساوى في ذلك لديه الرهبان والراهبات، فقد وجه خطابًا إلى رئيسة دير الراهبات التابع له، يحدد فيه عدد ضربات العصى، التي تفرض على عشرة راهبات ارتكبن مخالفة. ولم يقتصر العقاب على الضرب فحسب، بل كان يصل إلى حد الطرد من الدير، فيذكر الأنبا ويصا حدث أن أخطأ أحد الأخوة الرهبان فطرده أبي من الدير بمقتضى قوانينه، فصار إلى البرية بكآبة عظيمة. ولكنه ما لبث عن عفا عن هذا الراهب وأعاده إلى الدير ثانية بعد أن تعهد بالعمل وفقًا لقوانينه والميثاق، الذي قطعه على نفسه أمام الله، ويعلق ويصا على ذلك بقوله : " فتعجب الأخوة من رحمة أبي " لأن المعروف عنه العنف والقسوة والشدة والصرامة. وقد أرجع أوليري صاحب كتاب " قديسو مصر " استخدام الأنبا شنودة أسلوب الشدة والصرامة والعنف والقسوة إلى سببين هما :

الأول : أن الرهبان الذين كانوا يلتحقون بالأديرة في زمانه (أي خلال القرن الخامس الميلادي) كانوا من الفلاحين البسطاء الأميين، وفي رأي أوليري أن جهلهم بالعلوم، اقتضى تعليمهم وإدارتهم بالعصا، فضلاً عن أنه شبه

الأنبا شنودة بأحد كبار الاقطاعيين، يدير مزرعة مستخدمًا أسلوب العقـاب التأديبي، وإن عاب عليه البعض هذا التشبيه غير اللائق، لأن طبيعة نظـام الرهبانية تقتضي الانضباط والالتزام بدقة بالقواعد التي يسير عليها الدير مما يتطلب نوعًا من الحزم.

الثاني : إقدام الأديرة على قبول صغار السن في الرهبانية، خاصة الذين كـان أهلهم ينذرونهم، لكي يتربوا بها منذ نعومة أظافرهم، ليصيروا بعـد ذلـك رهبانًا، وقد أشاع هؤلاء نوعًا من الفوضى والجلبة في الأديرة، مما تطلب استخدام أسلوب العنف والشدة معهم حتى يلتزموا بالنظام الديري. وقد أورد الأنبا ويصا رواية عن أحد هؤلاء الرهبان الصغار اسمه مخلـص، وقـد أصابه الضجر والملل، وعزم على مغادرة الدير والعودة مع أبيه إذا ما جاء لزيارته، وعندما علم الأنبا شنودة بذلك عنفه، فمـرض الفتـى مخلـص، فتضرع الأخوة الرهبان إليه أن يصلي من أجل أن يشـفى مخلـص مـن سقمه، لأنه صغير دون البلوغ، ولكنه لم يلب القديس دعوتهم، فمات الفتى ولقي ربه.

ولكن إذا كان الأنبا شنودة قد سار على نهج التشدد والعنف فـي بعـض الأحيان تجاه رهبانه، إلا أن سيرته التي سطرها تلميذه ويصـا والتـي أوردت نماذج لعنف الرجل وقسوته، قد أوردت كذلك نماذج لرحمتـه ورفقـه ورأفتـه برهبانه، وصلاته من أجلهم طالبًا من الله أن يرشدهم ويهديهم.

وهذا يعني أن الأنبا شنودة لم يكن قاسيًا، غليظ القلب، متشددًا على الدوام، بل مست الرحمة والرأفة قلبه كثيرًا حيال رهبانه، فقسوته وغلظته وشدته كانت نابعة من حرصه على التزام رهبانه بقواعد الدير ونظمه، وهذا ما تحقق له في نهاية المطاف إذ ارتفع مستوى رهبانه، وأصبحوا قوة روحية جبارة في صعيد مصر، وأمسى نظامه نموذجًا يحتذى به، مما جعله يقف في مصاف مؤسسـي

نظام الرهبانية، وعلى رأسهم القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس، ولا يقل عنهم شهرة وصيتًا في صعيد مصر.

دور القديس شنودة الاجتماعي :

لعب القديس شنودة وأبناء ديره دورًا هامًا في مجتمع مصر في العصر البيزنطي، فرغم ما عرف عن الرجل من شدة وصرامة وعنف وقسوة مع رهبانه ومع غيرهم، فقد قربت المسافة جدًا بينه وبين بني قومه، خاصة في أوقات الشدائد والأزمات والكوارث والمجاعات، كان الرجل حبيب إلى قلوب المصريين خاصة من أبناء الصعيد، فكثيرًا ما كانوا يلتجأون إليه، يلتمسون منه تخفيف آلامهم بصلواته وصلوات رهبانه، وبإرشادهم وتوجيههم وتعزياتهم، حينما تحل بأحدهم نائبة أو تنزل به كارثة، فيذهب إلى القديس في ديره – الذي فتحت أبوابه على مصارعها أمام الجميع في أيام الآحاد والأعياد – فيجد عنده المن والسلوى، ويعود إلى داره راضيًا مرضيًا.

وحفلت سيرة القديس – التي كتبها تلميذه الأنبا ويصا – بالعديد من الأمثلة سوف نسوق بعضها للدلالة على قربه من أفراد شعبه في وقت الشدائد من ذلك ما يرويه الأنبا ويصا من أن رجلاً من أهل قرية من قرى الصعيد تسمى سمهود – نواحي مدينة أبصاي – جاءه يومًا وهو متألم القلب، وطلب من القديس أن يصلي من أجله، حتى يغفر الله له خطاياه وذنوبه الكثيرة، التي ثقلت عليه وأرقت مضاجعه، فما كان من القديس إلا أن صلى من أجله، وأخذ عليه عهدًا بالاعتراف بجميع أخطائه والإقلاع عنها، وأرشده إلى طريق الهدى والصلاح. ويذكر ويصا في موضع آخر أن رجلاً من أغنياء مدينة أخميم، حضر ذات يوم إلى القديس، وأخبره بأن اللصوص قد سرقوا كل محتويات بيته، فسعى القديس للبحث معه عن اللصوص، ورد عليه ماله وما سرق منه.

وقام القديس كذلك بمساعدة الفقراء والمساكين، وحثهم على العمل والسعي من أجل الرزق، وأرشدهم إلى أبوابه، فيروي الأنبا ويصا أنه أتى يومًا إلى القديس رجل مسكين يدعى (لوقا) كان يقيم قابلة أخميم، وأخبر القديس أنه يكد الليل والنهار، ولا يستطيع أن يوفر القوت الضروري لعياله إلا بعد جهد شديد، وطلب من القديس أن يرشده إلى صناعة يعيش منها هو وأطفاله، فما كان من القديس إلا أن أحضر كمية من الحبوب والبذور وقدمها للرجل، وقال له : " ازرعها في أي مكان من الحقل وأحسن زراعتها ... وكن متحققًا أن لي فيها نصيب ". وأخذ لوقا الحبوب، وقام بزراعتها حتى نمت وأثمرت، فحمل لوقا جزءاً منها إلى الدير، وسرعان ما باع واشترى واستفاد من ثمرتها خيرات كثيرة. وبذلك دل القديس الرجل على باب من أبواب الرزق، عاد عليه وعلى أفراد أسرته ومجتمعه بالنفع والخير العميم، وذلك بدلاً من أن يتصدق عليه بمبلغ من المال سرعان ما ينفقه، عملاً بالمثل الصيني القائل : " بدلاً من أن تعطيه سمكة، علمه الصيد ".

وساهم القديس كذلك في سداد ديون المدينين والمقترضين فيروي الأنبا ويصا فيقول : جاء إلى أبي يومًا شخص مدين بمبلغ من المال يقدر بمائة وأربعين دينارًا، عجز عن سداده في موعده، فما كان من الدائن إلا أن أخذ ابنيه، وعزم على إرسالهما إلى كورته (بلدته) إذا لم يسدد الدين، فهرع الرجل إلى الأنبا شنودة طالبًا عونه ومساعدته، فما كان من القديس إلا أن أعطاه مبلغ الدين، عندئذ أطلق الدائن سراح ابنيه. ويسجل الأنبا ويصا في موضع آخر إنه كان في مدينة أخميم أرخون له قرض على إنسان، فعجز عن سداده، فاعتقله وسجنه وعذبه، وطلب منه الغرامة، فأرسل الرجل رسالة إلى الأنبا شنودة عن طريق أحد الخدام الذين يعملون في خدمة المساجين، مستنجدًا به راجيًا أن يتوسط له عند الأرخون حتى يعفو عنه ويطلق سراحه، فاستجاب القديس له، وأرسل إلى الأرخون رسالة يقول له فيها : " أطلق سبيل هذا الرجل ليغفر لك

الرب يوم شدتك "، فاستجاب الأرخون لأمر القديس، وأطلق سراح الرجل.

وقف القديس كذلك إلى جوار شـعبه فـي أوقـات الأزمـات والأوبئـة والمجاعات، التي كانت تنتاب البلاد، خاصة عنـدما يـنخفض النيـل، وتنـدر المحاصيل، ويعض الجوع بأنيابه عليهم، عندئذ يهرع الجميع إلى ديـر الأنبـا شنودة، فيجدون الطعام والشراب فيذكر الأنبا ويصا أنه حدث في بعض السنين غلاء وقحط، فهرع أهل أخميم وأبصاي إلى دير الأنبا شنودة طـالبين الخبـز والطعام، فما كان من القديس إلا أن قال لي : " امض مع هـذا الأخ، واجمعـا الخبز، وفرقوه على الناس، ففعلنا كما أمرنا ... وذهبنا إلى مخزن الخبز وإذا به قد امتلأ ... فأكل الجميع وشبعوا، لذلك أطلق على المكان " كنز البركة ". ولـم يكتف القديس بذلك بل كان يعتزل الدير في السنوات التي يقل فيهـا النيـل — ويخرج إلى البرية يصلي ويتضرع إلى الله العلي القدير، ويـدعوه أن يكشـف الغمة ويغيث الأمة، كذلك كان يدعو رهبانه إلى الصلاة من أجل ذلك قائلاً لهم : " صلوا إلى الله يا أولادي من أجل أن يرتفع النيل، ويعم الرخاء البلاد ". وسجل ويصا كذلك أنه في سنة من السنوات كثرت الأمراض والأوبئة، فأمر القـديس بفتح أبواب الدير أمام الناس، حتى يجدوا حاجتهم من العلاج والدواء فضلاً عن الطعام والشراب.

امتدت خدمات القديس ومساعدته لكل من حوله سواء في الأقاليم القريبـة من الدير أو المحيطة به، فقد حدث — كما يروي كاتب سيرته — أن أغار البجاة (وهم قبائل البلميين Belmmyes النوبية) على النواحي البحرية، ونهبوا مدينة أبصاي، وسبوا أهلها، وعندما سمع الأنبا شنودة بذلك، راح أولاً يخطـب فـي رهبانه، ليحثهم على بذل أقصى ما وسعهم من جهد، من أجـل إنقـاذ اخـوتهم ومواطنيهم، ومن أقواله لهم : " ألم تروا ما فعل البرابرة بالجماعات الرهبانيـة القريبة منا ؟ أن التخريب والتدمير الذي أحدثوه ... يكفي لتحريك قلوب الحكماء

إذا عرفوا ما حدث للذين غرقوا في النهر أو الذين قتلوا في الجبال، أو في الأديرة أو الذين استسلموا للأسر والعبودية، علاوة على إشعال النيران في بعض الكنائس ونهب البعض الآخر ... ".

ولم يكتف القديس بهذا الخطاب الحماسي، بل نزل إلى ميدان المعركة، وقابل رؤساء القبائل المغيرة وقال لهم : " أوهبوني هؤلاء الذين اسرتموهم، وخذوا الكسب الغنائم " ويذكر الأنبا ويصا أنهم وهبوهم له ومضوا .... وعاد الأنبا شنودة بهم إلى الدير، وكان عددهم ألف رجل سوى النساء والصبيان؛ وطلب من اخوته الرهبان في الدير أن يخدمونهم، واستأجر لهم سبعة من الأطباء لعلاج أسقامهم، وجراحين لمداواة جروحهم، خاصة من تعرض منهم للنشاب (السهام).

وأقام هؤلاء الأسرى في الدير ثلاثة أشهر، مات خلالها منهم ما يقرب من أربعة وتسعين نفسًا، دفنوا في الدير، وولد فيهم اثنان وخمسون نفرًا، وبلغت جملة ما انفق عليهم خمسة وعشرين ألف درهم على طعامهم، الذي اشتمل على بقولات وتوابل، وزيت، وعدس، وخبز، فضلاً عما احتاجوه من أحذية وملابس، وأكفان، وما يحتاجه المرضى من خبز وشعير وخل وخمر وبيض وجبن وطير حمام وزبيب وعنب وفاكهة وغيرها كما يذكر الأنبا ويصا، الذي أحصى كذلك كميات القمح التي استهلكوها بثمانية آلاف وخمسمائة أردب قمح وأكثر، أما مقدار الزيت فكان مائتين قنطار، سوى الخضار والفجل مما لا أستطيع أن أوصفه على حد تعبير الأنبا ويصا. ويتضح من ذلك الجهد الكبير الذي بذله القديس ورهبان ديره في خدمة بني جلدته، فقد سخر كل ما لديه من إمكانيات وطاقات وقدرات من أجل مساعدة قومه وقت الشدة.

وعاد الأسرى إلى بلادهم بعد مضي الشهور الثلاثة معززين مكرمين، يحملون معهم ما يحتاجون إليه — في سفرهم — من طعام وشراب، ولم يسعهم

إلا أن يلهجوا بالشكر والعرفان للقديس ورهبان ديره، على ما بذلوه مـــن جهـــد طيلة هذه الشهور، من أجل أن يوفروا حاجتهم من طعام وشراب وملبس وعلاج ودواء وغير ذلك؛ فقد ضرب القديس ورهبان ديره رقمًا قياسـيًا فـــي الصـــبر والمثابرة من أجل خدمة ذلك العدد الكبير من الأسرى دون تزمـــر أو اســـتياء، وذلك بفضل إدارة القديس الحازمة للدير.

وحارب القديس شنودة بعض العادات السيئة، التي سادت مجتمع مصـــر في تلك الأونة ومنها : التمسح بالأجداث أى القبور، وإنشاء الهياكل على جثـــث الشهداء، فقد تفشت في مصر ظاهرة عبادة القديسين والشهداء لدرجة أن الكنيسة في عصرها الأول، كانت تبحث عن رفات هؤلاء القديسين وذخائرهم، وتضعها في كل كنيسة تبنى حديثًا. فمنع القديس شنودة إنشاء الهياكل على جثث القديسين وندد بها في خطبه مستندًا في ذلك على " أنه ليس هناك ــ كما يقـــول ــ فـــي الأناجيل إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقية للشـــهداء أو الرسل، كما أن آباءنا الذين رقدوا في أيامنا، كما أعلم وأشهد، يوصوننا بألا ندع إنسانًا يبحث عن أجسادهم ".

وعالج القديس كذلك ظاهرة العبث والاستهتار، التي تفشت بـــين بعـــض المسيحيين في عصره، أثناء احتفالهم بموالد الشهداء، وذلك عن طريق العظات، وله عظة حاول بها إقناع بني قومه بضرورة الإقلاع عن مثل هـــذه الظـــاهرة؛ وقد جاء فيها : " جميل جدًا أن يذهب الإنسان إلى أماكن الشـــهداء والقديســـين ليصلي فيها، ويتلو المزامير، ويطهر نفسه ... أما من يذهب ليتسلى، ويأكـــل، ويشرب، ويلهو ... فذلك هو الكفر بعينه " ثم يصف ما يحدث أثناء تلك الموالد بقوله : " بينما يقف البعض داخل الكنيسة، يصلون ويرتلـــون المزاميـــر ... إذ بالآخرين في الخارج يملأون المكان جلبة وصياح، ويحولونه إلى ســـوق لبيـــع العسل والحلي وما أشبه، ومكان لعرض بهائمهم وسباق خيولهم، ولســـرقة مـــا

يعرض من بضائع ... كل هذا يحدث في موالد الشهداء والقديسين ... يا للغباء هل تتركون بيوتكم ومدنكم وقراكم، وتتعبون في السفر إلى أمـــاكن الشـــهداء، لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتشتروا وتفعلوا ما يروق لكم ! ... " كـذلك استشـــهد القديس في عظته هذه بقول السيد المسيح ــ علي السلام ــ لليهود حينما دخـــل هيكل سيدنا سليمان ووجدهم يبيعون ويشترون وهو : " بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ". وبذلك نجح القديس في التصدي لما يفعله بنـــو قومه، من تصرفات لا تليق بهيبة القديسين والشهداء أثناء الاحتفال بموالـــدهم، وكان لعظته أكبر الأثر في الإقلاع عنها في عصره.

وحارب القديس شنودة كذلك السحر والشعوذة والدجل الطبي، لأنه كـــان يؤمن تمامًا بأن السحر والشعوذة وغيرها، تتنافى تمامًا مع المبادئ التي تنـــادي بها المسيحية، لذلك حاربها بكل ما أوتى من قوة، وتصدى لأصحابها، خاصـــة بعد أن حاول بعض الوثنيين في بنيوط ــ من نواحي أخميم ــ في أن يستخدموا معه السحر ذات مرة، حتى يغيروا مســلكه ولا يمكنـــوه مـــن هـــدم أوثـــانهم وتحطيمها، ولكنهم ــ كما ذكر كاتب سيرته ــ تمكن من معرفة الموضع، الذي أخفوا فيه كتب سحرهم واستخرجها، عندئذ اختفى أصحابها من أمامه بعـــد أن أيقنوا اكتشافه لها خوفًا من بطشه بهم.

وهكذا لعب القديس شنودة دوره كمصلح اجتماعي، يقف إلى جوار شعبه في أوقات الشدائد والأزمات والملمات، ويطهر مجتمعه من العـــادات الســـيئة، ويهديه إلى الطريق القويم بفضل خطبه وعظاته التي كان لها فعل السحر علـــى بني جلدته.

دور القديس شنودة السياسي والوطني في تاريخ مصر :

اتسمت الفترة التي عاشها القديس شنودة، وهي قرابة قرن من الزمان من منتصف القرن الرابع الميلادي وحتى منتصف القرن الخامس المـــيلادي بعـــدم

الاستقرار السياسي، فقد تولى حكم مصر خلالها ما يقرب أربعة وأربعين واليًا من قبل الحكومة البيزنطية في القسطنطينية، منهم من قضى شهورًا في الحكم، مما يظهر عدم الاستقرار والفوضى، فضلاً عن التدهور وتفشي روح القلق، وعانى المصريون خلال تلك الفترة من ظلم الحكام البيزنطيين وتعسفهم من ناحية، ومن قسوة كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية من ناحية أخرى. فإذا كان الحكام البيزنطيون هم المستفيد الأول من خيرات هذا البلد، فإن كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية ومتولي المناصب الكبرى فيها كانوا عونهم في ذلك، فكلاهما أصحاب نفوذ وسلطان وثروة وجاه، عاشوا بعيدًا عن جموع الشعب، يرفلون في حياة تطفح بروح الترف والبذخ والنعيم، يعيشون في قصور تعج بالخدم والحشم، يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية. أما غالبية أفراد الشعب فتكدح ليل نهار من أجل إرضاء هؤلاء السادة، وتبذل كل الجهد في سبيل الحصول على ما يكاد يسد الرمق، ويستر البدن، مثقلة الكاهل بالعديد من الضرائب، فضلاً عما تتعرض له من قسوة جامعيها.

كانت الصلة وثيقة بين القديس وأفراد شعبه، الذين داوموا على التردد عليه في ديره، والثقة به والاطمئنان إليه، لذلك كشفوا له عن جراحهم، وما يعانوه على يد الحكام البيزنطيين وكبار الإقطاعيين من ظلم وجور وتعسف، فأحس الرجل بكل أحاسيسهم، وشاركهم وجدانهم لأنه واحد منهم، اختلجت نفسه المشاعر عينها التي اختلجت بها نفوسهم، فصمم على أن يكرس حياته لتحريرهم من نير سادتهم البيزنطيين والإقطاعيين، كما حررهم من الوثنية ومن العادات السيئة التي سيطرت على حياتهم، وراح أولاً يندد بمساوئ هؤلاء الحكام مستغلاً قدرته على الكتابة والخطابة في الكشف عن مفاسدهم، وذلك لإثارة شعبه ضدهم وفي ذلك يقول : " ... لقد امتلأت قلوبهم إثمًا وطمعًا وشرها ... إذ أصبح كل من اعتلى الحكم لا هم له إلى اكتناز الفضة، والويل لمن يكون

الضحية ... وحتى جنودهم يضجون بالشكوى لحرمانهم من رواتبهم ... فيسعى هؤلاء لالتماس ذلك ... فيسطون على المدن والقرى والمنازل والأكواخ والسفن ... والأديرة نفسها ... وإذا حاول أحد اعتراضهم كان جزاءه الموت بحد السيف على أيديهم ... ".

وحرص القديس على التنديد بالحكام في كل مناسبة فوصفهم قائلاً : " سلاطين تلك الأيام يجمعون أموالاً كثيرة ظلمًا، وقد ينسون الطلبات والصلوات، ويرفضون بيعتي لأجل ما عليهم من الجور ... الويل لكل الرؤساء ومقدمي الشعوب في كل المدن وجميع القرى... ". ثم يعرض القديس صورة من حياة هؤلاء وأخرى من حياة غالبية أفراد شعبه فيذكر : "...يذهب هؤلاء للصيد والقنص في الجبال، يطاردون فرائسهم من شتى الأنواع، بينما يتركون في قواربهم بعض هؤلاء التعساء لحراستها، ويكلفون البعض الآخر بأن يجروا أمامهم لمطاردة الثعالب والعنزة البرية وغيرها ... ". ثم يذكر في موضع آخر: " ... من ذا الذي يستطيع أن يسرد المظالم التي راح ضحيتها هؤلاء الفقراء؟ إنني أعرف أشخاصًا لم يجدوا طعامًا ليأكلوا هم وحيواناتهم، فذهبوا بها إلى المخابز لبيعها لينفقوا من أثمانها ... ". وتوضح هذه الصورة التي رسمها القديس بقلمه ولسانه جانبًا من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي عانى منها المصريون في ظل السيطرة البيزنطية.

ولم تقتصر جهود القديس على مجرد التنديد بالحكام وإبراز مفاسدهم، بل بصر القديس مواطنيه بحقوقهم، ودفعهم إلى المطالبة بها حتى ولو كان الخصوم من كبار الحكام، وأيقظ فيهم الشعور بأن من حقهم الشكوى من الظلم وألا يرضوا بغير العدل، خاصة أن يد الفساد كانت قد امتدت إلى القضاء نفسه، فسيطرت عليه الرشوة إلى حد صار معه حكم العدل والظلم متروكًا للمصادفات وحدها، بسبب محاباة موظفي القضاء لبني جنسهم من الحكام والملاك الأجانب

على حساب الوطنيين. لذا كان القديس يذهب بنفسه مع المظلومين من المصريين إلى ساحات القضاء، ويدافع عن حقوقهم أمام محاكم الأقاليم، فإذا لم ينجح في إقرار العدل، ولم يجد إنصافاً من الحكام أما لأنهم طرف في القضية، أو بسبب محاباتهم لكبار الملاك والأغنياء، فإن القديس كان يستأنف القضية أمام محكمة الإمبراطور في القسطنطينية ذاتها، إذ كان من حق المصريين استئناف قضاياهم أمام محكمة الإمبراطور بمقتضى ما عرف باسم الالتماس، ولا يهدأ له بال حتى ينال المظلوم حقه.

واستخدم القديس في بعض الأحيان سلاح القوة في رفع الظلم والجور عن بني جلدته — فيروي الأنبا ويصا — أنه كان على الشاطئ الغربي جزيرة تدعى (جزيرة الريح) — من أعمال أخميم — أصحابها قوم لهم جاه، ومزارع كروم، ولديهم مستخدمين مسيحيين، غدروا بهم، ولم يدفعوا لهم شيئاً من أجورهم، بدعوى أن كرومهم فسدت ولم ينتج خمراً، وأنهم خسروا بذلك خسارة فادحة، فشكى هؤلاء حالهم إلى القديس شنودة، وقالوا له : " لنا عدة سنين ونحن نقاسي هذا الجور الشديد ". فما كان من القديس إلا أن حشد جيشاً من رهبانه في الحال، وسار ضد هؤلاء الذين اجحفوا بحق المسيحيين، فأتلف أمتعتهم، وهدم منازلهم، ورد الحق لأصحابه.

وبهذه القدوة علم المصريين أن لا يرضوا بالظلم ولا يستكينوا له، كما علمهم الشجاعة في المطالبة بحقوقهم وبالعدل والإنصاف، وملأ قلوبهم ثقة بأنفسهم. لذا لا عجب أن اكتسب القديس شهرة عظيمة وشعبية كبيرة ليس على المستوى المحلي فحسب، بل وعلى المستوى الإمبراطوري كذلك. إذ لم يكن حكام البلاد كلهم خصوم له وللمصريين، بل منهم من كان حلفاء له، وتعاونوا معه من أجل صالح البلاد وخيرها، وليس أدل على ذلك من الصلات القوية، التي ربطت بينه وبين عدد من رجالات الدولة وقادة الجيش، الذين كثيراً ما كانوا يقصدونه

للمشورة والتبرك، وطلب الصلوات والعون، بل لقد حرص بعض القادة على نيل بركته، قبل انطلاقهم إلى ميادين القتال، خاصة ضد القبائل البدوية، التي كانت تغزو تخوم مصر الجنوبية. وقد سجل الأنبا ويصا ذلك بقوله: " وكان كثير من أراخنة أخميم، وأرباب الدولة قد تبعوا الصديق (أي شنودة) يبجلونه، ويتكلمون عنه ... وكانوا يحاجون عنه، ويشهدون فيه ولصالحه دائمًا ... ".

وتوثقت كذلك صلة القديس شنودة بالإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) الذي سبق ودعاه لحضور مجمع أفسس، المسكوني العالمي الثالث في عام ٤٣١م، بصحبة كيرلس بطريرك الإسكندرية، أما هذه المرة فقد كتب الإمبراطور ثيودوسيوس رسالة للقديس، وسلمها لحاجب يدعى أودوكسيوس Eudoxe وأرسله إلى والي أنصنا ليسلم القديس هذه الرسالة، وقد أورد الأنبا ويصا في سيرته عن حياة القديس نص هذه الرسالة على النحو التالي: " أنا ثيودوسيوس الصغير ... يكتب ويسأل الأب الطاهر أنبا شنودة أن كنا مستحقين قدومك إلينا لنغتنم بركتك، وتصلي علينا، لأن المملكة كلها منتظرة مجيئك أيها الأب القديس. ونسألك أن لا تتوانى عن الحضور إلينا، فنحن عطاشى إلى نظرك ... اذكرنا بصلواتك، اخلص بالرب والسلام ".

وتسلم القديس رسالة الإمبراطور وقرأها، ثم أبلغ حاملها اعتذاره عن السفر إلى العاصمة البيزنطية لكبر سنه، إذا قال له : " إني رجل طعنت في السن ". فضلاً عن انشغاله بتدبير شئون الدير ورهبانه، مع ذلك أوصى تلميذه ويصا بأن يهتم بسفارة الإمبراطور، وأن يكرم أفرادها، ويوفر لهم سبل الراحة. وبعد أن أمضى السفراء يومين في الدير، وهموا بالعودة إلى بلادهم، طلبوا من القديس أن يرافقهم إلى العاصمة البيزنطية، فالإمبراطور والمملكة كلها في انتظاره، ولكنه أبى، وطلب منهم أن يبلغوا الإمبراطور اعتذاره، ودعا الله له أن يثبته على كرسيه كسائر الملوك الأتقياء، وأن يخضع له سائر المدن، وأن يظل

محافظًا على الأمانة المستقيمة أمانة الرسل والحواريين.

ولكن سرعان ما خرج القديس ومعه جماعة مـن رهبانـه فـي زيـارة للعاصمة البيزنطية، دفعه للذهاب إليها هذه المرة رغبته الشديدة في أن يوضـح للإمبراطور ثيودوسيوس مدى الظلم الواقع على بني قومه من الحكام البيزنطيين المعينين من قبل العاصمة البيزنطية، خاصة وأن الإمبراطور كما اتضح من قبل كان يقدره ويحترمه. وأحسن الإمبراطور استقبال القديس ورهبانه ــ كما يروي كاتب سيرته ــ واستمع إلى شكواه، " وصنع مع المساكين خيرًا عظيمًا في ذلك الزمان لأجل أبينا القديس". بمعنى آخر أنه قام برفع ظلم الحكام البيزنطيين عن كاهل المصريين تلبية لنداء القديس شنودة.

ولم يكتف القديس بذلك بل أخذ يعمل جاهدًا من أجل إيقاظ أبنـاء شـعبه، وبعث الروح الوطني القومي فيهم، حتى اعتبره البعض "علمًا من أعلام إفاقـة الوعي القومي ". في حين شبهه ريفيو Revillout " بالشعلة الملتهبة التي أشعلت النيران في قلوب المصريين، ودفعتهم إلى الخلاص من أعدائهم ".

وعلينا أن نذكر أن القديس سخر قلمه وفكره وخطبه وكتاباته من أجل هذا الهدف، وهو إيقاظ الوعي القومي المصري، والعمل على تحقيـق الشخصـية الاستقلالية لمصر وكنيستها، عن بيزنطة وكنيسة القسطنطينية كخطـوة أولـى لتحقيق الإستقلال السياسي، وأصبح لسان الأمة يعبر عن آمالها وآلامها، وينفخ من روحه وقلبه المشبع بالوطنية في شعبه، فيبعث فيه الروح القومي الـوطني، حتى يفيق من ثباته، ويدرك ما في مصريته من كرامة وعزة. وكانت دعامتـه وأداته ووسيلته في تحقيق هذه الغاية، هي اللغة القبطية، وهذا ما يدفعنا للحديث عن فضل القديس على اللغة والأدب.

فضل القديس شنودة على اللغة القبطية والأدب القبطي :

قدر القديس شنودة أهمية اللغة القبطية كدعامة من أخطر دعائم القوميـــة، خاصة وأنها الوليد المباشر للغة المصرية القديمة، رغم اســتعارتها للحــروف اليونانية، واقتباسها لبعض كلمات هذه اللغة. لذلك سعى القديس إلى العمل مـــن أجل إعلاء شأنها، وكانت في عصره لهجة دارجة، فحاول تهذيبها وتخليصـــها من التأثيرات اليونانية البيزنطية، باستئصال الألفاظ اليونانية الدخيلة في القداس والصلوات والتراتيل القبطية، حتى استوت على يديه لغة قومية وطنية صـــالحة للكتابة والخطابة، واستطاعت اللغة القبطية بوضعها الجديد، أن تؤدي أكثر مـــن فائدة، فهي خير وسيلة للوصول إلى الطبقات الدنيا من الشعب في سهولة ويسر، وبالتالي يستطيع بواسطتها إيقاظ الروح الوطني الكامن داخلها، والتعبيـــر عمـــا تكنه من كراهية شديدة للبيزنطيين من أجل مقاومتهم والتصدي لهم.

وقد تعددت لهجات اللغة القبطية ما بين بحيريـــة، وفيوميـــة، وأخميميـــة وصعيدية، وكانت اللهجة الأخيرة مستخدمة في طيبة (الأقصر حاليًـــا)، وهـــي اللهجة التي استخدمها القديس شنودة، وفضلها على الأخميمية ولعل السبب فـــي ذلك يرجع ــ كما يذكر ورل Worrell ــ إلى أن الرهبان وعلى رأسهم شـــنودة تحققوا من أن الحاجة ماسة إلى لغة واحدة لمصر العليا كلها، فضلاً عن التفوق البعيد المدى الذي بلغته اللهجة الصعيدية عندئذ، إذ كانت اللهجة المفهومة مـــن الجميع فيما بين منف وأسوان، مما يجعلها خير معين له فـــي إيقـــاظ الـــروح الوطني المصري. ويرجع حرص القديس على إحياء اللغة القبطية، إلى رغبتـــه في أن يرفع من شأن لغته القومية، حتى تعادل اللغات المعاصرة لها، بما فـــي ذلك اللغة اليونانية، لغة الثقافة في ذلك الزمان.

وسرعان ما جنى القديس الثمرة إذ أخذت اللغة اليونانية في التراجع مـــن البلاد المصرية مع استخدام اللغة القبطية، ومع شـــعور المصـــريين بقـــوميتهم

وكيانهم، وليس أدل على ذلك من العثور على إحدى البرديات اليونانية، دونهـا كاتب مصري كان يجيد اليونانية والقبطية معًا، ويذكر أنه يكتب باليونانية نيابة عن رجل مصري وزوجته، ويظهر من البردية أن الزوج يكتب بالديموطيقيـة وليس باليونانية، وأن الزوجة أميـة، وتوقيـع الـزوج فـي البرديـة مـدون بالديموطيقية كذلك. علاوة على ذلك فإن ظهور اللغة القبطية في أديرة مصـر وعلى رأسها الدير الأبيض، أكسب الكنيسة المصرية طابعًا قوميًا قويًا.

وإذا كان فضل القديس على اللغة القبطية عظـيم، ففضـله علـى الأدب القبطي أعظم، إذا كان الرجل ذا ذوق أدبي، حتى عد أبرع من خطب، وأبلغ من كتب باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية، وخير شاهد على ذلك ما تركه من تراث أدبي ضخم، يعتبر من أروع صفحات الأدب القبطي على الإطلاق، ويتألف من الخطب والعظات، التي لم تكن قاصرة على الرهبان داخل الدير فحسب، ومـا دارت حوله من حث على ممارسة الفضائل ومداومة الصلاة ومحاسبة الـنفس والتوبة، بل شملت كل أفراد الشعب، فقد كان ديره مفتوحًا أمام المصريين جميعًا – كما سبق أن ذكرنا ـــ فكان يدعوهم فيها إلـى محبـة الله والنـاس، وحفـظ الحواس والجوارح، وعدم التذمر على الحياة رغم صعوبتها، ومعاشرة الأبرار، ومساعدة المحتاجين، وممارسة حياة التقوى والصلاح، والبعد عـن الشـهوات وغيرها، فضلاً عن محاربته بهذه العظات لبعض العادات السيئة، التي عرفهـا مجتمع مصر في العصر البيزنطي، ومما جاء في احدى عظاته : " أن الـنفس تتوهم أنها قريبة من الله، وهي بعيدة عنه، ومطالعها خفية عن الناس وظـاهرة له، كالطاحونة التي تدور بلا حبوب". وقد ذاعت عظاته حتى احتلت مكانًا فـي قراءات الكنيسة القبطية.

وتضمن إنتاج القديس شنودة الأدبي أيضًا العديد من الرسائل والمقـالات، فضلاً عن التفاسير والكتابات وغيرها، ومازال العديد من كتاباته موزعًـا فـي

متاحف العالم ومكتباته، خاصة في متحف نابلي بإيطاليا، وفي متحف اللوفر بفرنسا، وكذلك المكتبة الوطنية في باريس، والتي يوجد بها العديد من المخطوطات التي كتبها القديس، وقد قام كل من أميلينو Amelineau وريفيو Revillout – وهما من أعضاء المعهد الفرنسي للآثار بمصر – بنشر العديد منها مع ترجمة بالفرنسية، وتشمل هذه المخطوطات مجموعة من الخطابات والرسائل منها ما هو للإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وللبطريرك تيموثاوس، فضلاً عن رسائل كتبها للرهبان والراهبات، وعددها إحدى عشرة رسالة، علاوة على عدد كبير من الخطب والمواعظ، الموجة للرهبان لمقاومة الوثنية وظلم كبار الحكام، ومنها ما يعالج موضوعات دينية وأدبية مختلفة.

ومن كتابات القديس كذلك دراسة خاصة عن العبادة المصرية القديمة، أورد فيها تفاصيل عديدة عن هذه العبادة وعن إيزيس وحورس، إلى جانب تفاصيل عن الآلهة المصرية، والرموز التي استخدمها المصريون مثل التماسيح والجعران وغيرها. وقد كتب هذه الدراسة في شبابه، بأسلوب معتدل، ولكن للأسف الشديد لم يبق من هذه الدراسة إلا شذرات كما يذكر ريفيو.

وبينما يرى البعض أن أسلوب القديس، كان يتمتع بطلاقة جميلة وبلاغة مع البساطة، لذلك كان له مفعول السحر على أفهام معاصريه، يرى البعض الآخر أن أسلوبه لم يكن مصقولاً، ولكنه كان يصاغ في قالب خطابي بليغ، ليست به سلاسة، إذ لم يكن القديس يبحث عن المعرفة وجمال الألفاظ، بل كان مالكًا لناصية اللغة يكيفها كيفما يشاء.

والحقيقة أن إنتاج القديس الأدبي الغزير، يعد من أروع صفات الأدب القبطي، في تاريخ مصر في العصر البيزنطي على الإطلاق، كتب جميعه باللهجة الصعيدية، التي ما لبثت أن أصبحت لغة الأدب القبطي في أزهى عصوره، بل ولغة الكنيسة القبطية المصرية لعدة قرون حتى بعد رحيل القديس، لذلك لا عجب أن عرف القديس شنودة في تاريخ الأدب القبطي بأنه " أعظم

كتابه". ولا عجب كذلك أن انتشرت كتاباته في جميع أرجاء مصر، بل وتداولتها الأجيال جيل بعد جيل.

وتجدر الإشارة إلى أن للقديس شنودة فضل على حركة الترجمة، فقد اهتم بالترجمة في ديره، وأشرف عليها بنفسه، وليس أدل على ذلك من أن كثيرًا من الموضوعات التي ترجمت عن اليونانية، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، قد تمت في الدير الأبيض، دير القديس شنودة.

وللقديس أيضًا مآثر على الأدب الوطني منها تلك الرواية التاريخية الممزوجة بالخيال، والتي تحكي قصة غزو قمبيز ملك الفرس لمصر، واستبسال المصريين في مقاومته رغم تهديده لهم، ويرجح أن كاتبها هو أحد رهبان الدير الأبيض، فضلاً عن أنها كتبت باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية، وفي أواخر العصر البيزنطي في مصر، وهدفها إذكاء الروح القومي لدى المصريين لمقاومة أعدائهم.

جملة القول أنه كان لكتابات القديس شنودة وأبناء ديره، أثر كبير في توعية المصريين، وتبصيرهم بحقوقهم، بدليل وقفتهم التاريخية من قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١م المسكوني الرابع، الذي عقده الإمبراطور مرقيان، خليفة ثيودوسيوس الثاني، فقد قرر هذا المجمع إدانة الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتي، وهو المذهب الذي تدين به الكنيسة المصرية، وأيد مذهب الطبيعتين في السيد المسيح وترك بذلك جرحًا غائرًا في نفوس المصريين، فيشير أحد الأساقفة إلى حالة شعب مصر، بعد صدور قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١م بقوله : " في عهد قنصلية دنياميتوس تملك شعب الإسكندرية، وشعب مصر، جنون شيطاني عجيب، فالكبار والصغار والأرقاء والأحرار والرهبان والكهنة وسكان البلاد الوطنيين ... كل هؤلاء فقدوا عقولهم وقدرتهم على التعبير " ورفض المصريون بشدة أن يحنوا رؤوسهم، بأن يقبلوا المذهب الذي

يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية، واتسعت الهوة بين كنيستهم وكنيسة القسطنطينية، التي آمنت بقرارات مجمع خلقدونية، لدرجـة أن الكنيســة المصـــرية أبطلــت استخدام اللغة اليونانية في طقوسها، وأحلت محلها اللغة القبطية، أي أنها خلعت الرداء البيزنطي، وبدأت ترتدي الرداء المصــري القــومي الــوطني، وتطلــع المصريون جميعًا إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من الخضوع للسيادة البيزنطية. هذه اليقظة المتأخرة للمصريين كأمة وكنيسة، ما كانت تحدث لولا المبادئ التي أرسها القديس شنودة في نفوس شعبه وقومه.

وما لبث القديس شنودة أن توفى في نفس العام، الذي عقــد فيــه مجمــع خلقدونية، وتحديدًا في السابع من أبيب سنة ١٦٧ للشــهداء الموافــق ٢ يوليــو ٤٥١م بعد أن طعن في السن، إذ بلغ الثمانية عشرة بعد المائــة، وبعــد رحلــة طويلة من الجهاد في سبيل دينه ووطنه وشعبه، كذلك بعد أن ترك سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال التي لا تزال تخلد ذكراه حتى اليوم.

وختامًا إذا كان لعظمة كل عظيم سر، فإن عظمة القديس شنودة الأخميمي الأدريبي، تكمن في كونه بحق أعجب شخصية أنجبها القبط، فلم يكن رجل دين فحسب، بل كان زعيمًا سياسيًا، ومصلحًا اجتماعيًا، وبطلاً قوميًا، وأديبًا وطنيًا، وفخرًا للكنيسة القبطية، لذلك لا عجب أن حفظت له مصر مــن الــذكرى، مــا حفظته لكبار قديسيها.

ورغم وفاة القديس شنودة إلا أن الحركة الديرية لم تلبث أن انتشرت فــي مصر انتشارا واسعا، وانتقلت بعد ذلك خارج مصر، الى بلاد الشام وقبــرص وما بين النهرين واسيا الصغرى .

مزايا الرهبانية وعيوبها :-

للرهبانية آثار تربوية أو تعليمية كما كان لها آثار اجتماعية فمن الناحيــة العلمية أو التعليمية، صارت الاديرة مركزا علميا عظيما لعلوم الكنيسة، والــى

جانب البحوث والدراسات، التى قام بها الرهبان داخل الاديرة،عهد الـــى عـــدد منهم بانشاء المدارس الاولية (الكتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم الاقباط . وعكف كذلك عدد من الرهبان على الكتابة والتأليف وخاصة فى العلوم الدينيـــة اللاهوتية وتفسير الكتب المقدسة، كما قام عدد من الرهبان بنسخ المخطوطـــات والكتب المقدسة والانجيل، مما ساعد على انتشار التراث الثقافى والـــدينى فـــى وقت لم تكن فيه الطباعة معروفة،أن اللغة القبطية ظهرت فى الاديرة المصرية منذ نشأتها،مما أكسبها(أى الكنيسة) طابعا قوميا قويا.هذا وقد حفظـــت الأديـــرة مؤلفات أباء الكنيسة والآداب القديمة على مر العصور.

أما من الناحية الاجتماعية، فكان الرهبانية آثار عميقة الغور فى نفـــوس الناس، اذ اقتدى الناس بالرهبان ونقلوا عنهم الكثير من عـــاداتهم وأصـــوامهم وزهدهم وتقشفهم . وكان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهم تخفيـــف الامـــه بصلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم .كما كانت الاديرة الملاذ والملجأ فـــى وقـــت الأوبئة والمجاعات والحروب، اذا يجد فيها اللاجئون اليهـــا الامـــن والامـــان والطعام والدواء . كذلك اقترن العمل بالعبادة داخل الدير،" فمن يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل "،"والعمل عبادة "، وكان لذلك اثاره فى تغطية احتياجات الدير والمناطق المجاورة وحث الناس على العمل والسعى من اجل الرزق . ومن بين مزايا الرهبانية إلى جانب ما ذكرناه من اثار تربوية واجتماعية، انهـــا جعلـــت بعض المسيحيين يحافظوا على أنفسهم وعلى دينهم وسط مجتمع ملىء بالمفاسد.

واذا كانت الحركة الديرية لها من المميزات، فهى لم تخل ايضا من العيوب والمساوىء، من ذلك انها هددت الحياة العسكرية فى الدولة اذ رفض الديريون أو الرهبان الانخراط فى الجيش، مما أضر بالمجتمع ضررا بالغا، ودعا بعض الاباطرة الرومان ومنهم فالنز الى اقتحام الاديرة والقبض على الرهبان، وادخالهم الجندية بالقوة . كذلك حالت العزلة التى فرضها الرهبان على أنفسهم

فى الصحراء بعيدا عن المجتمع الصاخب الفاسد حالت دون العمل من اجل اصلاح حـــال هذا المجتمع، كما جعلت الحكومة ترتاب فى امرهم وتعتبر مسلكهم هذا خروجا عن سلطة الدولة، وامتناعا عن المشاركة فى الحياة العامة وواجبات الافراد نحو الدولة . هذا الى جانب ان الاديرة جذبت عددا ليس بالقليل من العامة والكسلاء لدخولها، وذلك لما يتوفر فيها من مأكل ومشرب وملبس.كما أدى ترك الرهبان للزراعة والحقول والحرف والصناعات وممارسة حياة الرهبانية الى الاضرار بالامبراطورية، هذا فضلا عن تفكك الاسرة وهدم كيانها حيث كان الراغب فى حياة الرهبانية يترك أفراد أسرته ويلجأ الى الاديرة وكانت بعض النساء تفعل نفس الشئ مما ترك آثارا اجتماعية سلبية على بعض الأسر.

كما أن الامبراطور ثيودوسيوس الاول رغم تقواه واعترافه بالمسيحية دينا رسميا الا انه ضاق ذرعا بهؤلاء الرهبان مما جعله يحرم عليهم دخول المدن واقامتهم فيها، لأنه اعتبرهم عنصر بالغ الخطورة، وذلك لأن الاديرة فى ذلك الحين، أصبحت خطرا على الامبراطور، بعد أن أصبحت مأوى وملاذا للعامة من المصريين الذين لم يكن لهم من البلاد شيئا فى ظل السيطرة البيزنطية، كفلت الأديرة لهم الحرية، وأحاطتهم بنفوذ لم يعرفونه من قبل .

كما أنها اتخذت طابعا قوميا بالغ الخطورة حيث اعتبر الرهبان أن معظم أهل الاسكندرية عنصرا غريبا عن مصر لتغلب العناصر الاجنبية بها .ويضاف الى ما سبق تعصب رجال الدين لفكرة معينة او لمذهب معين ومحاولة اقـــراره وفرضه على المجامع الدينية عن طريق استخدام العصى والقذف الحجارة .

الانقسام المذهبى بين بطريركيتى الاسكندرية و القسطنطينية:

أصبح بطريرك الاسكندرية منذ اواخر القرن الرابع الميلادى مـــن اكبـــر رجال الدين مكانة فى العالم المسيحى فقد اعترف مجمع نيقية (٣٢٥م) بالسيادة

الدينية لأسقف الاسكندرية على أساقفة مصر وليبيا وبرقه، واصبح لـه نفـس الحقوق والامتيازات التى لأسقف روما . ثم أكد هذه المكانة مجمع القسطنطينية (٣٨١م) الذى جعل بطريرك الاسكندرية يحتل المكانة الثالثة بعد أسقف رومـا وأسقف القسطنطينية .

وترجع عظمة مكانة بطريرك الاسكندرية الى عدة عوامل من بينها :

أولا : شخصية أثناسيوس وجهاده الطويل من أجل الارثوذكسية، وتأييد رهبان مصر وشعبها له، فقد خرج القديس انطونيوس مـن قلايتـه مـن أجـل مناصرته ومآزرته بعد أن اشتد ساعد مذهب اريوس.

ثانيا : ما تمتعت به بطريركية الاسكندرية من أموال وفيرة وثروة جاءت مـن بعض الاحتكارات مثل تجارة النطرون والبردى والملح، وما كان يتقاضاه أسقف الاسكندرية من رسوم نتيجة ممارسة الشئون الدينية، هذا فضلا عن الهبات والعطايا والمنح التى يقدمها الاتقياء والاباطرة للكنيسة.

ثالثا : العداء بين كنيستى روما والقسطنطينية ووقوف بطريركية الاسـكندرية الى جانب بطريركية روماء، وما ترتب على ذلك من تأييـد بابـا رومـا لمطالب بطريركية الاسكندرية ومطالب بطريركها.

رابعا : وتولى رئاسة بطريركية الاسكندرية عدد من الشخصيات القوية أمثال: ثيوفيل (٣٨٥ - ٤١٢م) وكيرلس (٤١٢-٤٤٤م) وديوسقورس (٤٤٤ - ٤٥١م) وتميزت هذه الشخصيات بالحماس الـدينى والجـرأة والنشـاط، وساهمت بذلك فى علو شأن بطريركية الاسكندرية.

مراحل الصراع

ميز تاريخ بطريركية الاسكندرية فى تلك الفترة الصراع الذى دار بينهـا وبين بطريركية القسطنطينية، واتخذ هذا الصراع أطوار ومراحل مختلفة . ومن

خلال هذا الصراع يمكن التعرف على تاريخ بطريركية الاسكندرية فـــى تلــك الفترة.

المرحلة الأولى :

دارت أولى مراحل الصراع بين ثيوفيل بطريرك الاســكندرية (٣٨٥ - ٤١٢م) وبين يوحنا ذهب الفم [١] بطريرك القسطنطينية فيذكر بعض المؤرخين أن ثيوفيل بطريرك الاسكندرية، حاول ترشيح صديق لــه يــدعى أيســيذورس (أسيدور) - وكان كاهنا تقيا ورعا أمتاز بطيبة القلــب والبســاطة - لمنصــب بطريرك القسطنطينية، وليكون منافسا ليوحنا ذهبى الفم. وفــى نفــس الوقــت اعترضت بطريركية الاسكندرية على ترشيح يوحنا، ولكن ما لبث ثيوفيل تحت ضغط تأييد القصر الامبراطورى ليوحنا فى تولى المنصب أن تنازل عن ترشيح صديقه، واشترك فى رسامة (أى تعيين أو اختيــار أو انتخــاب Ordination) يوحنا ذهبى الفم بطريرك على القسطنطينية في فبراير ٣٩٨م . ومنذ ذلك الحين بدأ نزاع خفى بين ثيوفيل ويوحنا ذهبى الفم.

وهناك من المؤرخين من يذكر أن ثيوفيل لم يكن يحمل ليوحنا حتــى ذلك الحين سوى كل حب وتقدير، وأنه لم تكن بينهما أحقاد وأن الخلاف نشــب بينهما فيما بعد.

وكان هناك نزاع بين ثيوفيل وبعض رهبان وادى النطــرون، دار هــذا النزاع حول اراء العلامة أوريجين (اوريجانوس) - وهو من رؤساء مدرســة

---

(١) عمل أبوه كقائد للجيش الرومانى، ومات وترك يوحنا صغيرا، فعكفت أمه على تربينــه وتعليمه وتثقيفه بالعلوم والمعارف، وتدريبه على دراسة الفلسفة على يد أحد الفلاســفة. مارس يوحنا المحاماة نحو عامين، ثم كرس حياته للزهد والتعبد فترك المحاماة، وعاش حياة الرهبانية، ثم مالبث أن رسم شماسا ثم قسا فأسقفا فى عام ٣٨١م فى أنطاكية، ثــم بطريركا للقسطنطينية.

الاسكندرية التبشرية – ومن بينهما أن الله هو الجوهر الاول لجميـــع الاشـــياء، وليس المسيح هو الانسان الذى يصفه العهد الجديد بل هو العقل الــذى يــنظم العالم، وتصور آراء اوريجين أن لله عينا وأيدى واعضاء جسدية، وكانت هــذه الاراء لاتتفق تماما مع الارثوذكسية الخالصة فى رأى ثيوفيل، ومع ذلــك قــد تمسك بها رهبان وادى النطرون، كما تمسكوا بفكر أوريجين وبكتاباته. ولــذلك أصدر ثيوفيل فى عام (٣٩٩ – ٤٠٠م) رسالة تهاجم الأوريجانيــة واعتبرهــا هرطقة، مما أثار جماعة الرهبان الذين كان أوريجين فى نظــرهم هــو معلــم المسكونية، وخرجت جماعة منهم، واحاطوا بالبطريركية يصيحون ويتوعــدون مهددين بقتل الكافر ثيوفيل. لذلك تقرر حبس بعضهم، فى حين فر عدد مــنهم إلى فلسطين ثم إلى القسطنطينية للقاء يوحنا ذهبى الفم فى اوائل عام ٤٠٢م.

وقد تزعم هولاء الرهبان، وكان عددهم ثمانين راهبا، أربعة من الاخــوة عرفوا باسم (الاخوة الطوال)، وسافر هولاء الى فلسطين اولا لعلهم يجدون لهم ملجا فى قلب الاسقف يوحنا الاورشليمى المعروف بأعجابه بــاوريجين ولكــن دون جدوى، فقد طاردهم ثيوفيل فى كل مكان كانوا يذهبون اليه، واخيرا اتجهوا نحو القسطنطينية، ليعرضوا قضيتهم على بطريركها يوحنا ذهبى الفم وذلك فى عام ٤٠٢م. ومما دفعهم الى ذلك حب يوحنا للمصريين، اذ كان يقول عــنهم " أنهم يغذون أجساد القسطنطينية بالقمح، كما يغذون قلوبهم بالايمان " فضلا عن حبه لرهبان مصر وكانوا فى رأيه أكثر بهاء من كواكب السماء. ولــذلك فــتح يوحنا قلبه للاخوة الطوال، فكشفوا له عن جراحهم وشكوا له تصرفات ثيوفيل، وطلبوا منه أن يصالحهم معه ويعيدهم الى مصر.

وقرر يوحنا ذهبى الفم دعوة ثيوفيل الى القسطنطينية، فكتب لــه رســالة يطلب فيها منه أن يصفح عن الرهبان، كما دافع عن العلامة أوريجين، كــذلك أخبره فى هذه الرسالة بأن الرهبان قدموا شكوى ضده على الرغم من محاولته

تهدئة خواطرهم، وانه لايعرف كيف يتصرف معهم. وأثارت هذه الرسالة استياء ثيوفيل، وبعث الى يوحنا يذكر له أن من بين قوانين مجمع نيقية ما يحرم علـــى الاساقفة أن ينظروا الدعاوى الخارجة على حدود أبروشياتهم (ولاياتهم)، وما أن عجز يوحنا أمام ثيوفيل حتى لجأ الرهبان الى تقديم شكواهم الى الامبراطـــور أركاديوس، ويقال أنهم أوقفوا عربة موكب الامبراطورة وطلبوا منها أن تتوسط لهم عند زوجها الامبراطور (أركاديوس)، وتؤثر عليه حتى ينظر فى شــكواهم ويعيدهم الى بلادهم مرة أخرى، ونجحوا فى ذلك فقد اصدر الامبراطور أمـــرا بدعوة ثيوفيل بطريرك الاسكندرية للحضور الى القسطنطينية ليحاكم امام مجمع كنسى برئاسة يوحنا، فأثار ذلك ثيوفيل، واعتبر يوحنا محرضا للرهبان ضـــده أمام الامبراطور أركاديوس.

زار ثيوفيل القسطنطينية فى عام ٤٠٣م فى حشد ضـــخم مـــن الاتبـــاع، وحمل معه اموالا كثيرة وهدايا قيمة، وتجاهل مكانة بطريـــرك القســـطنطينية، واخذ يقيم الولائم ويوزع الهدايا، ونجح بذلك فى كســب الــرأى العـــام فـــى القسطنطينية، وقد هيأت له الظروف ذلك اذ ساءت العلاقة بـــين يوحنـــا وبـــين الامبراطور فى ذلك الوقت، اذ أهان يوحنا زوجة الامبراطور، ووجه لها نقـــدا لانها كانت تغالى فى الملبس والمأكل والترف واللهو، فضلا عن انـــه شـــبهها بسيدة تدعى ايزابل كانت مضرب المثل فى الفجور والفســـق واللهـــو، ولـــذلك غضبت الامبراطورة وأوعزت الى الامبراطور بعقد مجمع لمحاكمـــة يوحنـــا برئاسة ثيوفيل، وبذلك انقلب ميزان القضية وأصبح المتهم قاضـــيا والقاضـــى متهما.

وعقد هذا المجمع بالفعل فى اغسطس عام ٤٠٣م فى قرية الســـنديان أو البلوط بالقرب من خلقدونية، وسمى هذا المجمع باسمها اذ عرف باسم (مجمـــع السنديان)، وتولى ثيوفيل رئاسة هذا المجمع، الذى حضره مايقرب من ٢٩ من

المصريين من اجمالى اساقفة المجمع الذين بلغ عددهم ٣٦ اسقفا واتهـم هـذا المجمع يوحنا بتهم كثيرة بلغ عددهم ٢٩ اتهاما، ومن بين هذه الاتهامـات أنـه ضرب عبده الصغير، وضرب راهبا يدعى يوحنا وقيده بالحديد بدعوى أن بـه شيطان، وانه باع كثيرا من ممتلكات الكنيسة الثمينة، كما باع الرخام المخصص لكنيسة القديسة انسطاسية، وأنه سب رجال الاكليروس ووصفهم بالخسة والفساد، كان لا يصلى عند دخوله الكنيسة أو خروجه منها، كتـب كتبـا يهـين فيهـا الاكليروس، واتهم الجميع، وكان يأكل بمفرده ويحيا حياة ترف، واتهم ثلاثة من رجال الاكليروس بسرقة معطفه، وكان يدفع الاموال للاساقفة الـذين يرسـمهم حتى يخضع له الاكليروس، هذا الى جانب عدد أخر من التهم .

لذلك قرر المجمع " عزل يوحنا عن كرسيه ولو تم الامر قسرا " وصدق الامبراطور اركاديوس على قرار المجمع، ووافق على عزل يوحنا من منصبه كبطريرك للقسطنطينية، وثار أهل القسطنطينية وشعبها لابعاد يوحنـا، والتفـوا حول الاسقفية، واعلنوا تمسكهم بيوحنا. أما ثيوفيل فلم يكن من الممكن أن يظل فى القسطنطينية بعد ذلك فقد غادرها إلى الاسكندرية.

واذا كان يوحنا ذهبى الفم قد عاد إلى منصبه كبطريرك للقسطنطينية فى نفس العام الذى عزل فيه، فأن ثيوفيل أثار مسألة تتعلق بعودته إلى منصبه دون عقد أى مجمع لالغاء القرار الذى اتخذ من قبل بعزله، ولذا صدر قرار آخر فى عام ٤٠٤م بنفى يوحنا بعد أن أصبحت كنيسة القسطنطينية فى يـد خصـومه. وغادر يوحنا ذهبى الفم القسطنطينية والبطريركية إلى منفاه. وهكذا انتهت أولى مراحل الصراع بين بطريركية الاسكندرية وبطريركية القسطنطينية بانتصـار ثيوفيل انتصارا ساحقا على يوحنا فم الذهبى.

المرحلة الثانية للصراع:-

توفى البطريرك ثيوفيل بطريرك الاسكندرية فى عام ٤١٢م، وفى نفـس

العام تم انتخاب ابن أخيه، وقيل ابن اخته كيرلس بطريركا على كرسى بطريركية الاسكندرية، وسار كيرلس (٤١٢ - ٤٤٤م) على نفس سياسة عمه ثيوفيل، وسعى جاهدا من اجل أن يرفع من شأن بطريركية الاسكندرية مـن ناحيـة، ويناصـب بطريركية القسطنطينية العداء من ناحية أخرى، ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة فـى الصراع بين الاسكندرية والقسـطنطينية التـى ارتقـى كرسـيها البطريـرك نسطوريوس، الذى ولد فى مدينة مرعش وترهب بدير قـرب انطاكيـة وعـين بطريركا لها ثم بطريركا للقسطنطينية عام ٤٢٨ م. ودار الصراع هذه المرة حول " طبيعة السيد المسيح وعلاقة الطبيعة البشرية فى المسيح بالطبيعة الالهية.

كان نسطوريوس بطريرك القسطنطينية احد تلاميذ مدرسة أنطاكية التـى نادت بنفس تعاليم أريوس، فالمسيح فى رأى هذه المدرسة هـو الوعـاء الـذى اختاره الله ليضع فيه الطبيعة الالهية، وهو فى نفس الوقت ابن السيدة العـذراء مريم، فهو بشر فى طبيعة الهية، ومريم ليست أم اله لكنها أم المسـيح. فهـذه المدرسة اذ تنادى بانفصال الطبيعتين مع تغليب الطبيعة البشرية على الطبيعـه الالهية. هذا فى حين كان كيرلس بطريرك الاسكندرية على مذهب أثناسـيوس ولذلك نادى باتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية فى شخص المسيح، فالمسيح أقنوم واحد وطبيعة واحدة بعد الاتحاد بدون اختلاط أو امتزاج. وأدى هذا الخلاف بين نسطور وكيرلس حول طبيعة السيد المسيح الى النزاع فيما بينهما.

ونجح كيرلس فى نزاعه هذا مع نسطوريوس فى كسب تأييد بابا رومـا كيلستين الاول (٤٢٢ -٤٣٢م) وتأييد كنيسة روما، وحدث تقارب بينهما ضـد عدوهما المشترك وهو كنيسة القسطنطينية وبطريركها. وادى هذا التقارب بـين كيرلس وصديقه البابا كيلستين الاول الى عقد مجمع دينى فى روما لمناقشة آراء نسطوريوس وافكاره، ولم يكتف هذا المجمع بتأييد آراء كيرلس حـول طبيعـة السيد المسيح، بل رفض أيضا تعاليم نسطوريوس وخاصة وانه رفض أن يدعو

العذراء والدة الاله، اذ أنه قسم المسيح الواحد الى أقنومين وجوهرين محولا اياه وحوله بذلك إلى مجرد كائن بشرى بطبيعة كطبيعة البشر ومنفصل عن الكلمة، والى اله فقط بغير اتخاذ الجسد أى أنه قسم الابن الى ابنين وسمى أحدهما ابـــن الله والآخر ابن العذراء. وحكم البابا كذلك بضرورة تجريده من منصبه، ومنحه المجمع مدة عشرة ايام حتى يتمكن خلالها من الدفاع عن نفسه، وترك بدعتـــه، والا حرم هو واتباعه من الكنيسة. وعهد البابا الى كيرلس باتخاذ الاجـــراءات اللازمة لتنفيذ الحكم ضد نسطوريوس واتباعه، قائلا له: " واتخذوا سلطة كرسينا وقوموا مقام شخصنا ومركزنا ونفوذنا " كما أنه كتب رسميا لســـائر الاســـاقفة ليكونوا مطلعين على الحكم رسميا، وشرع كيرلس بالفعل فى تنفيذ ما عهد اليه، فاعلن احكام البابا كيلستين ونفذها معلنا لنسطور أنه بعد الايام العشرة المحـــددة فى مرسوم كيلستين لايكون له نصيب ولامكان فى الكهنوت، ممـــا يوضـــح أن البابوية مارست سلطتها الى أبعد الحدود.

على أن نسطوريوس كان يتمتع بنفوذ عظيم، ونجح فى كسب عدد كبيـــر من الاساقفة كما كانت له حظوة كبيرة عند الامبراطور ثيودوســـيوس الثـــانى (٤٠٨ - ٤٥٠م) وعظماء الامبراطورية، لذلك أثـــار ضـــرورة عقـــد مجمـــع مسكونى لحسم الخلاف حول طبيعة السيد المسيح، وبالفعل قـــرر الامبراطـــور ثيودوسيوس الدعوة الى عقد مجمع مسكونى فى أفسوس فى عام ٤٣١م بآســـيا الصغرى. وكان هذا يعنى توقف كيرلس عن اجراء أى عمل، على الرغم مـــن أن كيلستين فوضه لتنفيذ الحكم البابوى، كما أن حكم المجمع سيكون هو الحكـــم النهائى، وبالتالى ظل نسطور فى منصبه انتظارا لحكم المجمع، وخاصـــة وأن الامبراطور صرح فى مرسومه بعقد المجمع " أنه قبل التئام المجمـــع المقـــدس وصدور حكمه لايجوز اجراء أى أمر فى أية قضية استنادا على سلطة فردية.

وحضر لهذا المجمع أساقفة الشرق والغرب، وقدر عددهم بنحو المـــائتين

أسقف، كما حضره مندوبون من قبل البابا كيلستين الأول بابـا رومـا وهمـا الاسقفان اركاديوس وبروباكتوس والكـاهن فيليـبس، كمـا حضـره منـدوب الامبراطورية ثيودوسيوس الثـانى، وكـذلك بطريـرك انطاكيـة واسـاقفته، ونسطوريوس واتباعه من أساقفة القسطنطينية ورهبانها، وحضره ايضا كيرلس والاساقفة المصريون وشنودة الاخميمى، وتولى كيرلس رئاسة هذا المجمع الى جانب كونه نائبا عن البابا كيلستين الذى فوضه لتنفيذ حكمه، وذلك قبل وصول نواب البابا الى المجمع، كذلك حضر هذا المجمع يوفناليوس أسقف بيت المقدس وكذلك ممنون أسقف أفسوس.

ونجح كيرلس فى هذا المجمع فى أن يكسب الى صفه أسـاقفة الشـرق ورهبان القسطنطينية بل وتأييد زوجة الامبراطور وأخته، هذا الى جانب تأييـد البابا كيلستين بابا روما له، ونجح كيرلس كذلك فى كسب تأييد كبار الشخصيات فى المجمع الى جانبه وفى الحصول على تأييدهم له، وذلك عن طريق أغـداق الاموال والعطايا عليهم.

وبالاستناد الى هذا التأييد، طالب كيرلس بعزل نسطوريوس من منصـبه كبطريرك للقسطنطينية وبارساله إلى أحد الدير. وبالفعل قـرر المجمـع ادانـة نسطوريوس وعزله وإرساله إلى أحد الأديرة فى بلاد الشـام، ثـم نفـى إلـى الواحات بصحراء مصر الغربية حتى وافته المنية هناك، وقيل فى مكان قريب من دير القديس شنودة الاخميمى، كما حكم عليه بالزندقة والالحاد لأنـه أصـر على انسانية المسيح. وحقق بطريرك الاسكندرية بهذا انتصارا أخرا فى جولتـه الثانية مع بطريرك القسطنطينية، وعلت مكانة كنيسة الاسكندرية، وبلغت مـن القوة ماجعل اساقفتها أهل للقب الذى أطلق عليهم وهو لقب (الفراعنـة). وأقـر المجمع أن السيدة مريم العذراء " ام لاله " وليست أماً لبشر لأن الإلـه الكلمـة تجسد وتأنس منها.

المرحلة الثالثة للصراع :-

ودارت ثالث مراحل الصراع بين ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وفلافيانوس بطريرك القسطنطينية. وادت الى عقد مجمع فى أفسوس فى عام ٤٤٩م حضره نحو ١٣٠ من الاساقفة منهم أسقف أورشليم، واسقف أنطاكية وفلافيانوس أسقف القسطنطينية، ورئيس أساقفة روما ونوابه الاربعة الى جانب ديوسقورس بطريرك الاسكندرية، الذى تولى رئاسة هذا المجمع، والذى جاء الى هذا المجمع وبصحبته قوة عسكرية، وجماعة من الرهبان وبحارة وحاشية وحامية عسكرية.

أما عن صاحب الدعوة لهذا المجمع فهو الامبراطور ثيودوسيوس الثانى وكان يهدف من وراء عقد المجمع الى: المحافظة على الايمان الذى قرره مجمع نيقية ٣٢٥م ومجمع أفسوس ٤٣١م، كذلك بحث الاراء التى تخالف الايمان الصحيح ومحاولة استأصلها، وانعقد المجمع فى ٨ أغسطس عام ٤٤٩م وناقش المجمع تسع قضايا يهمنا منها قضيتين:

الاولى: قضية أوتيخا أو اوطيخا أو أوطاخى ومذهبه.

الثانية: قضية فيلافيانوس بطريرك القسطنطينية نفسه وعزله لاوتيخا من منصبه.

وفيما يتعلق بالقضية الاولى فان أول مايتبادر للذهن هو من هو أوتيخا هذا وماهو مذهبه ؟ أوتيخا (٣٨٠-٤٥٤م) هو رئيس أحد الأديرة المجاورة للقسطنطينية، وتحت إدراته أكثر من ثلاثمائة راهب وكانت له شهرة واسعة بين المثقفين فى العاصمة القسطنطينية، وذلك لمقدرته الفائقة فى التعبير، واجتذاب السامع الى خطابه، لذلك التف حوله جمهرة من محبى العلم والادب، وأصبح

ديره منتدى لرواد العلم، وكان صديقاً لكيرلس بطريــرك الاســكندرية، ومــن مؤيدى مذهبه لذلك قاوم نسطوريوس، وحضر مجمع افسوس ٤٣١م ليشهد على ضلاله، لذلك يعتبره أصدقاء كيرلس من المدافعين عن الإيمان.

أما مذهبه فيتلخص فى أن للمسيح عليه السلام – طبيعتين قبــل التجســد اصبحت طبيعة واحدة بعد التجسد. أى أنه ينادى باتحاد الطبيعتين فــى طبيعــة واحدة. بمعنى آخر أن الناسوت تلاشى فى اللاهوت وكأنه نقطة من الخل ابتلعها البحر أو المحيط، وهذا يعنى أيضا أن السيد المسيح عند اوتيخا صاحب طبيعــة واحدة وهى الطبيعة الإلهية فهو لم يقل كما قال الأنجيل "أن الكلمة تجسد" وكما قال الآباء وكما قال ديوسقورس "طبيعة واحدة متجسدة" بل يقول "طبيعة واحــدة ويصمت". ولم تلبث آراء اوتيخا أن تسربت خارج جدران ديره، واصبحت مثار نقاش وجدل.

أما فيما يتعلق بالقضــية الثانيــة فقــد أثــارت آراء أوتيخــا بطريــرك القسطنطينية فيلافيانوس ودفعته الى عقد مجمع للنظر فى أمر أوتيخــا وآرائــه، وحضر هذا المجمع ثلاثين أسقفا، واثنين وعشرين وقيل ثمانيــة عشــرة مــن روساء الاديرة ومندوب عن الامبراطور ثيودوسيوس الثانى، ودعــى اوتيخــا لحضور هذا المجمع والدفاع عن نفسه وعن ارائه ولكنه اعتذر بحجة الشــيوخة تارة، وبحجة المرض تارة أخرى. واضطر أوتيخا لحضور المجمع فى المــرة الثالثة وبعد عقد ست جلسات وذلك فى يوم ٢٢ نوفمبر عــام ٤٤٨م – حضــر وبصحبته موظفين من القصر الإمبراطورى وجمهرة من الرهبان، وقوة يرأسها القائد فلورنيتوس. وطلب منه الآباء المجتمعين الاعتراف بطبيعتين بعد التجسد، فقدم أوتيخا صورة ايمانه مكتوبة ، ولكن لم يقبلها المجمع. وعندئذ قرر المجمع عزلــه من منصبه دون مناقشة آرائه مناقشة جادة، مما دفع أوتيخا الــى رفــع

رسالة الى المجمع يعلن فيها: أن قرار عزله كان قد أعد مسبقا وقبل انعقاد هذا المجمع، وان فيلافيانوس عقد هذا المجمع لاقرار ذلك الحكم واعلانه فحسب. ولم يقبل أوتيخا حكم المجمع، ورفع شكواه إلى الامبراطور الذى قرر الدعوة لعقد مجمع أفسوس الثانى فى عام ٤٤٩م.

وبعد مناقشة قضيتى أوتيخا وفيلافيانوس فى مجمع افسوس الثانى ٤٤٩م تقرر مايلى:

أولا: أعادة أوتيخا الى منصبه كرئيس للدير.

ثانيا: عزل فيلافيانوس من منصبه كبطريرك للقسطنطينية، وأصدار قرار الحرمان ضده، وعندما اعترض البعض على هذا القرار الاخير صرخ ديوسقوروس طالبا القواد فدخلوا مع الجنود الى قاعة الاجتماع باشارة منه وضربوا فيلافيانوس وجروه الى الخارج، ووقع جميع الاساقفة الحاضرين بالاجماع على قرار عزله.

يرى البعض أن استعمال القوة فى المجمع واعتداء ديوسقورس على فلافيانوس بالضرب وأجبار الأعضاء على التوقيع كما تذكر المراجع الغربية من الأمور البعيدة غير الحقيقية. واستند هذا الفريق على أن السكون كان مستتبا فى المجمع، وكل واحد من الأعضاء استعمل حريته التامة، وقد وقع على قرارات المجمع بلا اكراه، وأن ديوسقورس استعمل حريته ونفوذه كغيره. وكان يحرص خلال المجمع على الهدوء والنظام، علاوة على أن استخدام العنف فى المجمع يتنافى مع أبسط الأخلاق الإنسانية، ويستحيل أن يقبلها العقل السليم. إذ أن ديوسقورس لم يحكم على فلافيانوس بمفرده بل هو والمجمع كله والحكم ثبته الإمبراطور ونفذه. ويرى هذا الفريق كذلك أن القول بأجبار الأساقفة على التوقيع ليس بصحيح لأن ديوسقورس لم يكن بإمكانه وحده أن يجبر أكثر من

مائة وعشرين اسقفاً على ما لا رضى لهم به، وفى حضرة مندوبى الإمبراطور، كما أن هؤلاء الاساقفة لم يرفعوا دعوى أو شكوى إلى الأمبراطور بعـد حـل المجمع بأنهم وقعوا جبراً.

واحتج ليو بابا روما (٤٤٠-٤٦١م) على قرارت المجمع هـذه، ولقبـه بمجمع اللصوص Latrocinium، وظل هذا الاسم عالقا به طوال التاريخ. سمى هذا المجمع بهذا الاسم للأسباب التالية :-

(١) أرسل البابا إلى هذا المجمع ثلاثة مندوبين أسقف، وقس، وشـماس ومعهـم رسالة Tome من لدنه يحاول فيها التوفيق بين المتنازعين وتقريب وجهات النظر وجاء فيها : أن المسيح ليس الا شخصاً واحداً، وهو كلمة الله، اتحدت فيه الطبيعتان الإلهية والبشرية، على الرغم من أن كلا منهما كاملة، غيـر مختلطة بالأخرى، وتؤدى وظائفها الخاصة فى نطاق وحـدة الشخصـية. ورفض ديوسقورس تلاوة رسالة البابا على أعضاء المجمع مما جعل البابـا يطلق على هذا المجمع "مجمع اللصوص" .ويرى البعض أن ديوسـقورس رفض رسالة ليو أو نسيها أو تناساها لأنها لم تكن مرسلة باسم المجمع بـل كانت مرسلة باسم فلافيانوس شخصياً، كما أن الرسالة ذاتها اشتملت علـى لهجات غير أرثوذكسية، وكان يدافع عن عقيدة وجـود "الطبيعتـين بعـد الاتحاد".

(٢) أن الاساقفة المجتمعين قد هربوا من أمام عنفوان ديسقورس، ومـن بقـى منهم وقع على بياض قبل صدور القرارات مما جعلهم يطلقون عليه "مجمـع اللصوص"، فقد سرقوا الإيمان فى صيغة أعلنوها فى غفلة من أهلـه ودون رضى أصحابه.

هذا ويسوق البعض الأدلة على عدم صحة الاتهام بأن مجمـع افسـوس

الثانى ٤٤٩م كان مجمعاً للصوص، وأن البطريرك ديوسقورس كان مسـيطراً عليه ويملى على أعضائه ايرادته، ومن هذه الأدلة :

- إن المجمع انعقد بدعوة من الإمبراطور وبطلبه.
- تمثيل جميع الكراسى المشهورة فيه (روما – اسـكندرية – انطاكيـة – القسطنطينية – بيت المقدس).
- نظر المجمع فى الأمور والقضايا بتأنى مع أخذ الأصوات قبل الحكم على أحد.
- نظر فى العديد من القضايا ومنها قضية أوطيخا وعقيدته وعقيدة الآبـاء السابقين.

على أية حال انحاز ليو بابا روما الى جانب بطريرك القسطنطينية، وأيده فى آرائه، ولعل ذلك يرجع الى خوف بابا روما من تفوق كنيسـة الاسـكندرية على كنيسة روما، ولذلك سعى للتقليل من شأنها وذلك بعدم مساندتها وتأييـدها، مما جعل ديوسقورس يفقد بذلك مساندا قويا له. على أن النتائج التى انتهى اليها مجمع افسوس ٤٤٩م علت من مكانة الاسكندرية وبطريركها، وذلك لانه نجـح فى تعيين البطريرك الذى أراده على كرسى بطريركية القسطنطينية.

مجمع خلقدونية ٤٥١م(المسكونى الرابع)والمرحلة الرابعة و الأخيرة للصراع:-

ونصل اخيرا الى خاتمة الصراع بين بطريركية الاسكندرية وبطريركية القسطنطينية وهو مجمع خلقدونية ٤٥١م، فقد قرر الامبراطور مرقيان (٤٥١-٤٥٧م) خليفة ثيودوسيوس الثانى، عقد مجمع دينى فى خلقدونية فى محاولة منه للقضاء على الخلاف الدينى، وللنظر فى موضوع ديوسقورس، الى جانب موضوع العقيدة.[١] وانعقد هذا المجمع فى أكتوبر من عام ٤٥١م فى مدينة خلقدونية، وحضره عدد كبير من ممثلى الكنائس المسيحية، ومن بينهم ممثلون

من قبل ليو بابا روما وبلغ عدد الاباء الذين حضروا هذا المجمع ٦٣٠، وقيل أن عددهم كان ما بين ٣٥٠ أو ٣٦٠ أسقفاً.

وقرر المجمع محاكمة ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وذلك لما اقترفه من أعمال تتنافى مع قوانين الكنيسة ومن بينها : أنه اغتصب املاكا من أقارب سلفه ومن أصدقائه وضمها الى أملاك الكنيسة، كما أنه تصرف فى الاسكندرية كما لو كان الوالى الحقيقى لها. ويضاف الى ذلك ماوجه اليه من تهم شخصــية ومن بينها أنه أتهم باعتناق عقيدة أوتيخا، وباستخدام العنف فى مجمع افسوس أو أفسس الثانـــى ٤٤٩م، فضلا عن أنه رفض حضور جلسات مجمع خلقدونيــة ٤٥١م . وازاء هذه التهم قرر المجمع عزل ديوسقورس من منصـــبه ونفيــه . وقبل ديوسقورس قرار العزل بكبرياء ورفض ماعرضه عليه الامبراطور مـــن البقاء فى كرسيه والعفو عنه، اذا ماأعترف باخطائه واقلع عنهـــا، ولكنــــه لـــم يستجب له، ولم يخضع ولذلك تم اتخاذ القرارات اللازمة لعزله من بطريركيـــة الاسكندرية ونفيه الى آسيا الصغرى، وقيل إلى احدى جزر بحر مرمرة.

وقرر مجمع خلقدونية ٤٥١م بالنسبة لشئون العقيدة ادانة مذهب الطبيعـــة الواحدة، وأيد مذهب الطبيعتين وأجاز الصيغة التى قدمها البابا ليو بابـــا رومـــا والتى جاء فيها : " هناك طبيعتان فى المسيح، يجب تميز احدهما عن الاخـــرى حتى بعد تجسده، وهما الطبيعة الألهية والطبيعة البشرية، وقد ظـــل الاخـــتلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية " . وأصبحت هذه الصيغة هـــى أســـاس التعاليم الدينية للكنيسة الارثوذكسية.

أما عن النتائج التى ترتبت على مجمع خلقدونية فهى على النحو التالى:

أولا: أن مجمع خلقدونية رفع شأن كنيسة القسطنطينية وجعلهـــا اعلـــى مكانة من كنيسة الاسكندرية، فقد خرجت الاولى من هذا المجمـــع منتصـــرة اذ

قرر المجمع أن بطريرك القسطنطينية يلى فى المكانة بابا روما، بل أن كنيسة القسطنطينية على قدم المساواة مع كنيسة روما، مما ترتب عليه فيما بعد عداء بين الكنيستين بسبب التنافس فيما بينهما على مركز الصدارة.

ثانياً : ازدياد ظهور القومية المصرية من خلال حظيرة الكنيسة القبطية الوطنية، وكانت القوانين الديرية وانتشارها داخل مصر عاملاً فعالاً أثار لهب القومية كما سبق أن أوضحنا. فقد وقفت الكنيسة المسيحية وراء بطريركها تظاهره وتناصره مما أدى إلى تدفق الشعور القومى. لذلك فإن مجمع خلقدونيه يشكل – كما يذكر هوايت – نقطة تحول فى الكنيسة المصرية، فبعد أن كانت الكنيسة فرعًا فى منظمة دولية انفصلت بعد عام ٤٥١م عن هذا الجسم، وصارت حتى اليوم مؤسسة قومية متميزة هى الكنيسة القبطية.

ثالثا:ازدياد شقة الخلاف بين القسطنطينية التى تدين بمذهب الطبيعتين وبين الولايات االشرقية، وعلى رأسها مصر وبلاد الشام من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتى، والذين تمسكوا بمذهبهم حتى بعد مجمع خلقدونية، واشتدت حدة الخلافات المذهبية بين مصر والقسطنطينية لدرجة أن كنيسة الاسكندرية أبطلت استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها، وأحلت محلها اللغة القبطية المصرية، وتطلع المصريون وغيرهم من سكان الولايات الشرقية الى اليوم الذى يتخلصوا فيه من الخضوع للدولة البيزنطية، مما مهد لوقوع تلك الاقاليم فى يد الفرس ثم فى أيدى المسلمين.

وبعد عزل ديوسقوروس ونفيه، تم تعيين بطريرك تابع للقسطنطينية خلفا له وهو بروتريوس (٤٥٢-٤٥٧م) تحت ضغط التهديد بالسلاح. وأمـام هـذا الموقف المتعنت سارع المصريون إلى اختيار بطريرك مصرى مناهض وهـو تيموثاوس. وانقسمت أسقفية الإسكندرية بذلك بـين معسـكرين وبطريـركين : الأول الذى أطلق عليه المصريون "الملكانى" أى التابع للملـك أى الإمبراطـور البيزنطى وقرارات مجمع خلقدونية والبابا. والثانى وهو البطريرك المصـرى الذى وضعه المعسكر المناوئ ويعرف بـالبطريرك "المونـوفيزيتى" لرفضـه قرارات مجمع خلقدونية والهيمنة البيزنطية. وهكذا ترسخت المشاعر المذهبيـة المصرية فى صحن الكنيسة القبطية واكتسبت دفعة قوية علـى هـذا الـدرب الوطنى.

لم تأخذ الحكومة الإمبراطورية هذه المشاعر المصرية فى بدايـة الأمـر مأخذ الجد، واعتقدت أن هذا الانشقاق يمكن رأبه فى يسـر. ولكـن الموقـف سرعان ما تفاقم عندما هب شعب الإسكندرية ثائراً منتهزاً فرصة انشغال حاكم الإسكندرية البيزنطى فى الحرب ضد الوندال فى شمال أفريقية، وضـد قبائـل البلاعيم فى جنوب الصعيد، وهاجم أهل الإسكندرية على البطريرك بروتريوس، واغتالوه، ونتيجة لذلك أصبح تيموثاوس هو البطريرك الوحيـد فـى المدينـة، وازداد موقفه رسوخاً، وظل يشغل عرش البطريركية حتى مات فى عام ٤٨١م.

اختار الإمبراطور زينـون (٤٧٤-٤٩١م) مرشـحاً جديـداً لمنصـب بطريركية الإسكندرية وهو تيموثاوس سالو فاكيولوس، فى حين اختار الأقبـاط بطرس مونجوس للمنصب نفسه، وسافر بطرس إلى القسطنطينية حيث التقى مع أسقفها اكايوس Acaius (٤٧١-٤٨٩م) وحدث تقارب بين الرجلين وتوصلا معا إلى وضع صيغة تقرب بين وجهتى النظر المونوفيزتية والخلقدونية، تم عرضها

على الإمبراطور زينون، الذى تحمس للفكرة أملا فى عودة الهدوء والسلام، والوحدة إلى الكنيسة والإمبراطورية جميعا. وعرفت هذه الصيغة باسم (هينوتيكون "أى قرار الاتحاد Henoticon" أو قرار الوحدة). ويعترف هذا القرار الصادر فى سنة ٤٨٢م، بما توصلت إليه المجامع المسكونية الثلاثة الأولى من قرارات، ويصب اللعنة على كل من نسطوريوس وأوطيخا وأتباعهما، ويعلن أن المسيح من جوهر الأب نفسه، مع احتفاظه بطبيعته الناسوتية، وتحاشت صيغة القرار الإشارة إلى مسألة الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين؛ ورفض القرار رفضا لبقا ما كان أقره مجمع خلقدونية عن اتحاد الطبيعتين فى المسيح. وينتهى هذا القرار بالتهديد باللعنة أى الجرمان على كل من اعتقد أو يعتقد سواء من أتباع مجمع خلقدونية أو أى مجمع مسكونى آخر، فى أى مذهب مخالف لهذا القرار.

كان نتيجة هذا القرار (قرار الوحدة) أن حدث تقارب بين كنيستى الإسكندرية والقسطنطينية، على أنه سرعان ما تبين للناس أن مضمون هذا القرار لا يمثل أيا من الطرفين المتنازعين فلم يشعر البيزنطيون بالارتياح أمام التنازلات التى أبداها زينون للمونوفيزتيين فى قراره هذا. وفى الوقت نفسه شعر المونوفيزيتيون فى الإسكندرية أن "القرار الإمبراطورى أى قرار الوحدة" لم ينص على إدانة قرارات مجمع خلقدونية صراحة. لهذا لم يوحد قرار الاتحاد الذى أصدره الإمبراطور زينون الصفوف، بل زاد شقة الخلاف والانقسام والتفرقة بين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة واتباع مذهب الطبيعتين.

توفى كل من أكايوس بطريرك القسطنطينية، ومونجوس بطريرك الإسكندرية والإمبراطور زينون تباعا (٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١م بالتعاقب). وتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨م)؛ الذى تمسك فى البداية بقرار الاتحاد ولما وجد أن هذا اقرار جعل الخلاف على أشده

بين اتباع المذهبين، أعلن أنه من أنصار المـذهب الأرثوذكســى أى (مـذهب الطبيعتين) إرضاء لبطريرك القسطنطينية، غير أنه تحول بعد قليل إلـى تأييـد أنصار مذهب الطبيعة الواحدة. عندئذ فرح الأقباط فى مصر بهذا التحول فـى موقف الإمبراطور، إلا أن سياسته فى ممالأة المونوفيزتيين أدت إلى تذمر الناس وسخطهم وإثارة الاضطرابات والفتن فى القسطنطينية لدرجة إشعال الحرائق فى المبانى العامة وتحطيم تمثال الإمبراطور، والتظاهر ضده فى ميـدان السـباق، وتعرضه للشتائم والقذف بالحجارة. ومع ذلك ظلت النبرة المونوفيزتيـة عاليـة مسموعة فى القسطنطينية حتى وفاة الإمبراطور انستاسيوس فى عام ٥١٨م.

اعتلى جستين الأول عرش الإمبراطورية (٥١٨-٥٢٧م) وتبدلت الأحوال تماماً، فقد كان الإمبراطور الجديد شديد الإنحياز لقـرارات مجمـع خلقدونيـة ومسانداً ومؤيداً لها تأييدا تاماً، لذلك قام باضطهاد اتباع مذهب الطبيعة الواحـدة اضطهاداً شديداً، واستمر الخلاف المذهب قائما حتى اعتلى الإمبراطور جستنيان العرش (٥٢٧-٥٦٥م) خلفا لخاله جستين فأخذ على عاتقه إيجـاد حـل لهـذه النزاعات المذهبية التى تهدد كيان الإمبراطورية، وإعادة الوحدة والهدوء إلـى الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحاته الهادفة إلى وضع السـلطتين الدينيـة والزمنية فى يده.

كان جستنيان فى البداية منحازاً إلى قرارات مجمع خلقدونيـة، وإن لـم يدخل فى خصومات وصراعات معلنة مع المونوفيزتيين. ويرجع ذلك إلى نفوذ زوجته تيودورا التى كانت تؤيد المذهب المونوفيزتيين، وحاولت إقناع زوجهـا بإجراء مصالحة بين الفرق المتناحرة، ومن جانبه عمل جستنيان على استرضاء المونوفيزتيين فأصدر فى عام ٥٤٢م مرسوما أدان فيـه ثلاثـة مـن رمـوز النسطورية فى الشرق وقد رحبت الكنائس الشرقية بما فيها كنيسة الإسـكندرية بهذه الإدانة.

كما عين جستنيان شخصـــا يــدعى أبولينـــاريوس بطريركـــا لكرســـى الإسكندرية فى عام ٥٤١م وفوضه أيضا فى صلاحيات عســكرية لكــى ينفــذ سياسته الدينية بقوة السلاح، دون الاستعانة بالسلطات العلمانية، هذا إلى جانــب تفويضه فى جمع الضرائب لصيانة الكنائس، وممارسة صلاحيته الدينية. وقــد أدت هذه الإجراءات إلى إحداث فوضــى وتــداخل بــين العلمــانيين ورجـــال الإكليروس فى الإسكندرية، كما أن هذه الصلاحيات الجديدة للبطريرك قد جعلت من الكنيسة الملكانية أداة للقمع والاضطهاد ضد المصريين المخالفين فى المذهب وقد شعر المونوفيزتيون فى مصر بالغبن الشديد الواقع عليهم، خاصة وقد سعى هذ البطريرك أبو ليناريوس إلى القضاء على العناصر المونوفيزتية باللجوء إلى المذابح.

ومن جهود جستنيان على الصعيد الدينى فى مصر أنه أمر كذلك بإغلاق معبد ايزيس فى جزيرة فيلة بمدينة أسوان؛ ومعبد آمون فى واحة سيوه، وقـــام بتشييد كنائس على هذين الموقعين، مما يذكر أيضاً أن جستنيان أدخــل بعــض التعديلات والإضافات إلى المؤسسات الديرية فى مصر، ومن أشهر أعماله قيامه ببناء دير سانت كاترين المعروف باسم "ديرسر التحول المقدس لشركة التناول" فى جبل سيناء.

حاول الأباطرة الذين خلفوا جستنيان فرض مــذهب الطبيعتــين بـــالقوة والعنف على المصريين إلا أنهم فشلوا فى ذلك بل كان ذلك واحدا من الأســباب التى عجلت بسقوطهم مثلما حدث مع الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) الــذى حاول أن يفرض المذهب الملكانى على المصريين بـــالقوة والقســوة والعنــف، فعجل ذلك بسقوطه، فقد رحب المصريون بثورة هرقل ضد فوقاس، حتى أنهــم ساعدوا ابن عمه نيقياس (ابن عم هرقل) فى الاستيلاء على مصر، كذلك ســر المصريون بتتويج هرقل إمبراطوراً عام ٦١٠م ورحبوا بمقدم جنوده لاعتقادهم بأن حكم هرقل سوف يكون أخف وطأة من حكم سلفه فوقاس، وأنــه ســيكون

خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء. وبالفعل أظهر الإمبراطور هرقـل (٦١٠-٦٤١م) فى مستهل حكمه التسامح والتساهل مع المونوفيزتيين، وحـاول منـذ ارتقائه العرش إيقاف جميع المظالم والاضطهادات الدينية، التى كانت ترتكـب ضدهم، فأصدر فى عام ٦١٠م مرسوما عن العقيدة، حقيقة أن عباراتـه كانـت أرثوذكسية، ولكنه أظهر الرغبة الصادقة فى مصالحة المونـوفيزتيين، إذ أورد صيغة كيرلس بطريرك الإسكندرية (٤١٢-٤٤٤م) التى تقول : " إن فى المسيح طبيعتين متحدتين بلا انفصال ولا امتزاج ولا اختلاف". كذلك أظهر نيقتاس ابن عم هرقل الذى أصبح حاكما من قبلـه علـى مصـر أظهـر عطفـه علـى المونوفيزتيين، وحاول حسم الخلافات بينهم، وسمح لهم فى عهده بإعادة تشـييد ما كان لهم من مزارات ومشاهد، وأبقى البطريرك المونوفيزيتى انستاسيوس فى كرسيه حتى وفاته، واتخذ البطريـرك انـدرونيقوس - الـذى خلفـه- مقـره بالإسكندرية دون أية معارضة.

ما لبثت مصر أن وقعت مع الأقاليم الشرقية الأخرى فى يد الفرس خلال الفترة من (٦١٠-٦٢٩م) فاستولوا مع مصر عـام ٦١٩م، وعجـز البطريـق نيقتاس عن الدفاع عنها وهرب إلى القسطنطينية. وبعد أن اكتمل الفتح الفارسى لمصر، وهدأت أحوال البلاد، أظهر الفرس تسامحاً دينياً كبيراً تجاه المصريين، كما أظهروا لهم الرفق ولين الجانب، إذ تركوا لهم الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية، وعهدوا بالسلطة الدينية فى الإسكندرية للبطريرك اليعقوبى اندرونيقوس بعد فرار البطريرك الملكانى يوحنا المتصدق. وبهذا لـم يعـد هنـاك خليفـة لبطريرك الكنيسة البيزنطية فى مصر. إلى جانب ذلك اضطهد الفرس - طبقـا لسياستهم المعتادة- الكنيسة البيزنطية، فهرب عدد من الأساقفة ورجـال الـدين الارثوذكس إلى الأقاليم البيزنطية الأخرى، واستغل المصريون هذه الفرصـة، واستولوا على الكنائس الأرثوذكسية. وعلى هذا النحو تعلم الموفوفيزتيون فـى مصر خلال فترة الاحتلال الفارسى أنه يمكنهم الحياة فى ظل إدارة أخرى غير

بيزنطية. كما أن تشجيع الفرس لهم، جاء بنتائج هامة منهـا أنــه قــوى مــن عزيمتهم، وجعل مذهبهم أكثر قوة وقدرة. وهذا يفسر الجهود التى بذلها هرقــل بعد انتصاره على الفرس لمحاولة جمع هؤلاء المونوفيزتيين من جديــد حــول العقيدة الإمبراطورية.

وبعد عودة مصر إلى حظيرة بيزنطة ثانية وانتهاء حكم الفرس لها، كان من الضرورى وضع نهاية للشقاق الدينى الذى هدد الإمبراطورية وفصل عرى الأقاليم الشرقية – وأهمها مصر – الأكثر غنى، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خاصة أن الأخطار كانت لا تزال تحيط بالإمبراطورية وتهدد كيانها، لهذا كــان طبيعياً أن يشعر الإمبراطور هرقل بالحاجة الملحة للتوصل إلى حــل للمشــكلة الدينية باتباع سياسة دينية جديدة تختلف عن سياسة سلفه فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) وشاركه الرأى سرجيوس بطريرك القسطنطينية خاصة وأنه كان مــن أصــل شرقى ومن أبوين من اليعاقبة.

توصل البطريرك سرجيوس إلــى صــيغة جديــدة أمــل بهــا عــودة المونوفيزتيين إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية وهى مــذهب الإرادة الواحــدة (المونوثلستية Monothelism)، ويعنى من الناحية اللغوية أن طبيعتــى الســيد المسيح الإلهية والبشرية تتسمان بإرادة واحدة، ومن الناحيــة التاريخيــة هــو مشروع للوحدة الدينية يهدف إلى عودة المونــوفيزتيين إلــى حظيــرة كنيســة القسطنطينية الأرثوذكسية.

وضع سرجيوس هذا المبدأ أمام الإمبراطور هرقل من أجل إتمام الوحــدة بين الكنيستين إذ كان فى منتصف الطريق بين الاعتقاد بــالطبيعتين والاعتقــاد بالطبيعة الواحدة، فقد أبقى على الطبيعتين فى البداية، وأضاف إلــى الطبيعــة الواحدة الفعل الواحد ثم الإرادة الواحدة. ورأى هرقل فى القول بالطبيعتين مــع فعل واحد مخرجا من الأزمة اللاهوتية المستحكمة، كما وجد فيه وسيلة ســهلة للوصول إلى الاتحاد الدينى بين المونوفيزتيين وكنيســة القســطنطينية، وهــذا

الاتحاد إذا تحقق فإنه سوف يكسب العديد من المونوفيزيتين فى الأقاليم الشرقية وخاصة مصر والشام وغيرها، تلك الأقاليم التى ظلت بعيدة عن الكنيسة الرسمية فى القسطنطينية.

لقيت قضية الاتحاد نجاحا كبيرا فى الإسكندرية، فقد وجه هرقل جهوده الرئيسة نحو مصر، التى تمتع فيها المونوفيزتيون غداة جلاء الفرس عنها فى عام ٦٢٩م – بسلطة ونفوذ قويين، وكان البطريرك المونوفيزيتى المصرى (بنيامين) على رأس كنيسة الإسكندرية، ويبدو ن البيزنطيين لم يصطدموا به عند استعادتهم مصر، بل على العكس سمحوا له بأن يظل مقيما فى الإسكندرية وليس هناك سجل أو تدوين يظهر أن هرقل حاول التفاهم مع بنيامين، ومن المحتمل أنه حاول أن يكسبه ويضمه إلى صف المذهب الجديد.

أما عن البطريرك الملكانى جورج، الذى ارتقى كرسى كنيسة الإسكندرية فى عام ٦٢٠م، وعانى الكثير أثناء سيطرة الفرس على مصر، فقد توفى بعد عودة مصر إلى السيادة البيزنطية بعام واحد أى فى عام ٦٣٠م، لذلك عين الإمبراطور هرقل كيروس Cyrus – الذى عرف فيما بعد فى المصادر العربية باسم المقوقس – خليفة له. وقد عينه هرقل من أجل أن ينشر مذهب الفعل الواحد والإرادة الواحدة فى الإسكندرية، فقد كان كيروس من أوائل من أيدوا هذا المذهب وعملوا من أجله.

تلقى البطريرك بنيامين بمزيد من الحذر والقلق خبر قدوم البطريرك الجديد كيروس فى عام ٦٣٠م حتى أنه لم ينتظر حتى يصل، ولم يحاول أن يلقاه بل قام على الفور بترتيب الأمور المتعلقة بالكنيسة، فيذكر ساويرس بن المقفع أنه كتب على الفور إلى جميع الأساقفة فى كرسيه لكى يختفوا، وأنه دبر حال الكنيسة ورتبها، وتقدم إلى الكهنة والشعب، وأوصاهم أن يثبتوا على عقيدتهم حتى الموت، أما هو فقد تسلل خفية تحت جنح الظلام من الإسكندرية، ومضى إلى الصعيد، وأقام مختفيا هناك فى دير صغير لمدة عشر سنوات.

وصل كيروس إلى الإسكندرية فى خريف عام ٦٣١م، وأقام فيهـا لـيس كبطريرك فقط، ولكن كحاكم لمصر أيضا، وكرمز لسلطته كان يرتدى فردتـى حذاء، أحدهما سوداء وترمز للون الدينى، والأخرى أرجوانيـة وترمـز للـون الإمبراطورى، ويذكر ساويرس أن هرقل "ارسل واليا إلى أرض مصر يـدعى كيروس ليكون بطركا وواليا معا"، فقد أراد هرقل أن يجمع كل السـلطات فـى شخص بروس، بسبب الوضع المضطرب فى مصر، وبسبب الفشل فى الوصول إلى أى تفاهم مع المصريين ولهذا خول لكيروس السلطات المدنية والعسـكرية إلى جانب سلطته الدينية والروحية، فأصبح لكيروس بذلك سلطانا مطلقا.

راح كيروس يحاول فى الحال الوصول إلى تفاهم مع العناصر المختلفـة فى الكنيسة، خاصة أن المذهب الجديد لم يلق نوعا من التوفيق فى أول الأمـر فقد رأى المونوفيزتيون أنه ما دام لله إرادة واحدة فلابد من التسليم بأن له كذلك طبيعة واحدة، ورأى اتباع المذهب الملكانى أن المذهب الجديد يخـالف تمامـا المذهب الخلقدونى. على أن كيروس نجح بالتفاوض حيناً، وبالضغط والوعـود حينا آخر فى إقناع عدد من موظفى الكنيسة المونوفيزتية المصرية ليوافقوا على المذهب الجديد، ويرتبطوا بالكنيسة الأرثوذكسية وكان أن قبلً عدد منهم ذلـك، ومن هؤلاء قيرس أسقف نقيوس وفكتور أسقف الفيوم. وفى ذلك يذكر ساويرس بن المقفع أنه "ضل جماعة منهم بالعذاب، وبعضهم بالهدايا، وبعضهم بالخـداع والسؤال فخالفوا الأمانة، ولم يسمعوا وصية الأب بنيامين".

دعا كيروس فى صيف عام ٦٣٣م إلى مجمع فى الإسكندرية حضره عدد كبير من الأساقفة المونوفيزتيين، كما حضره ممثلون عن المـذاهب المختلفـة، وانتهى المجمع إلى إقرار الاتحاد والمذهب الجديد، وأصدر هذا المجمع تسـعة قرارات للحرمان يتعلق القرار السابع منها بضرورة إقرار مذهب الفعل الواحـد والإرادة الواحدة، واحتفل فى كنيسة الإسكندرية فـى ٣ يونيـه ٦٣٣م بقبـول الاتحاد رسميا، كذلك احتفل بكيروس نفسه بطريركا رسميا. وأخبـر كيـروس

الإمبراطور هرقل فى الحال بهذا النجاح وبإعلان الاتحاد، وكتب خطابا مطولاً وأرسله إلى سرجيوس بطريرك القسطنطينية مع وثيقة الاتحـاد التـى تحـوى قرارات الحرمان التسعة. أدخل خبر الاتحاد البهجة والسرور على نفس كل من الإمبراطور هرقل والبطريرك سرجيوس، وأرسل الأخير خطابا إلى كيـروس يمتدح فيه الجهود التى بذلها كيروس من أجل جعل كنيسة الإسكندرية تنضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية، ويقدم له الشكر لأنه بفضل هذا الاتحاد سقط جدار الخلاف والشقاق بين الكنيستين.

تعرض المذهب المونوثلستى للرفض من جانب صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس ومن جانب هونيوس بابا روما (٦٢٥-٦٣٨م) مما دفـع سرجيوس وهرقل إلى التخلى عن فكرة الفعل الواحد على حين أقرا فكرة الإرادة الواحدة فى شخص المسيح، وأذيعت الصيغة الجديدة فى مرسوم أعده سرجيوس وأعلنه هرقل فى عام ٦٣٨م وعرف هذا المرسوم باسـم Ecthesis أى (شـرح العقيدة وتقرير الإيمان)؛ ويعنى تحريم الفعل الواحد أو الفعلين مع اثبات أنـه لا توجد فى شخص المسيح سوى إرادة واحدة فقط وبطبيعتين بـلا اخـتلاط ولا انفصال. غير أن هذا المرسوم لقى بدوره معارضة شديدة من باباروما، ولـم يحقق الأهداف المرجوة منه، لهذا وجد هرقل نفسه مضطرا إلى التبرؤ منه.

الحقيقة أن جهود هرقل وسرجيوس من أجل المصالحة بين المونوفيزيتين والارثوذكس وإعادة المونوفيزتيين إلى حظيرة الكنيسة الإمبراطورية قد ضاعت هباء وسدى، خاصة بعد أن استولى المسلمون على معظم الأقاليم الشرقية ومنها مصر، التى كان تدين بالمذهب المونوفيزيتى، والتى حاولت الكنيسة البيزنطيـة على يد رجلها كيروس أن تخضعها بشتى الطرق لمذهب الإرادة الواحـدة ثـم الفعل الواحد ففشلت.

النظام الادارى فى مصر فى العصر البيزنطى :

أصبحت مصر وفقا لاصلاحات دقلديانوس "٢٨٤-٣٠٥م" ولاية تابعة لدوقية الشرق[1]، التى كان يحكمها كونت الشرق Comes Orientis، وقد قسمت مصر من الناحية الإدارية زمن دقلديانوس إلى ثلاثة أقاليم، شرق الدلتا ومصر الوسطى، وطيبة، وغرب الدلتا والإسكندرية وكان يحكم الإقليمين الأولين حاكم، واتخذ لقب برايسس Praeses أى مدير أو متصرف. أما الإقليم الثالث (الإسكندرية) فوضع تحت امرة حاكم يحمل لقب (والى مصر Praefectus Aegypti) ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميليه . هذا ويخضع الحكام الثلاثة لسلطة كونت الشرق. ويتولى هؤلاء الحكام الثلاثة السلطة المدنية أما السلطة العسكرية فقد تولها قائد يحمل لقب " دوق مصر "Dux Aegypti" . وقد فصل دقلديانوس بين السلطتين للتخفيف من وطأة الجيش وسيطرته على الدولة، وحتى يخضع الجميع لسلطته مدنيين وعسكريين.

وظل هذا التنظيم الإدارى سارى المفعول حتى عهد الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦ - ٣٣٧ م) الذى سار عليه هو ومن بعده من الأباطرة البيزنطيين حتى عام ٣٨٢ م حيث قام الإمبراطور ثيود وسيوس الأول بإدخال تعديل على هذا النظام، وتمثل هذا التعديل فى فصل ولاية مصر عن دوقية الشرق وأصبحت مصر دوقية مستقلة بذاتها وألحقت بها ليبيا، يحكمها الوالى الأغسطسى أو الاوجستالى Praefectus Augustalis (أى العظيم) وكان يعادل حكام أربع مقاطعات (شرق الدلتا وغرب الدلتا، طيبة، الإسكندرية) الذى يقيم فى الإسكندرية على أنه نائب الإمبراطور والذى أصبح له السيطرة التامة على جميع البلاد، فهو الحاكم العسكرى الفعلى وله مطلق السلطات بمصر، مع

---

[1] تضم دوقية الشرق كل من مصر وإقليم قورنية بليبيا بالإضافة إلى الإقليم السورى (الشامى).

عدم إغفال الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية .

وفى القرن الخامس حدث تطور إدارى هام فى مصر إذا ألغى مبدأ الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية تماماً، وذلك لحاجة البلاد الماسة إلى حكومة قوية، تجمع فى يدها مختلف السلطات، سواء كانت مدنية أم عسكرية ومن ثم أصبح الوالي الاوجستالى بالإسكندرية حاكماً مدنياً وعسكرياً فى آن واحد وطبق هذا النظام على كافة الأقسام الإدارية داخل مصر ومن بينهما طيبة وذلك بسبب موقعها وتعرضها المستمر لإغارات بدو الصحراء .

الوحدات الادارية (القرية –الباجوس(*)– الباجركية):

لقد أدركت الإمبراطورية البيزنطية، لاسيما منذ عهد دقلديانوس إذ نصت تشريعاته على أن القرية تعتبر وحدة إدارية بالغة الأهمية فى زراعة الأرض المحيطة بها، فكثير من القرى جمعت بين الأراض الخاصة والأرض العامة المملوكة للدولة، قبل أن ينتقل الجانب الأعظم من أراضى الدولة إلى الأفراد ويدخل فى نطاق الملكية الخاصة لأهل القرية، ولهذا فقد أصابت بعض القرى من الرخاء والثروة ما ميزها عن غيرها كثيراً، بفضل زيادة أملاكها من الأراضى الزراعية، وزاد فى مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضى القرية لأى أجنبى عنها، بينما أجازت البيع لأهل القرية فقط.

كانت القرية أهم وحدة إدارية فى مصر فى العصر البيزنطى بل هى محور النظام الإدارى، وقد القى على عاتق القرية كوحدة إدارية مهام من بينها: الإشراف على زراعة الأرض، وجمع الضرائب وغيرها من الالتزامات المقررة عليها . وكان للقرية إدراتها الخاصة بها إذ يرأسها موظف يطلق عليه

(*) الباجوس هو الاصطلاح اللاتينى التقليدى لأقسام الإقليم الزراعى للمدينة.

لقب (كومارك) أو كومارخ Comarch ويعنى شيخ البلد أو العمدة فيما بعد، ويساعده كاتب يعرف بكاتب القرية ويمثل الدولة فيما يتعلق بالإحصاء، والتعداد، وكتابة التقارير عن أهل القرية، ومقدار ممتلكاتهم، وتعيين الأشخاص الصالحين لتحمل الأعباء، وكان يتم اختيار كاتب القرية من بين الملاك، ويرفع باسمه كشف الاستراتيجوس (المدير أو المحافظ). كما يساعد الكومارك مجلس يتألف من شيوخ القرية يتولى الإشراف على شئون القرية الداخلية، وينظر في أمورها المحلية ويكون مسئولاً عن تنفيذ أوامر الوالى، كما يتحمل تكاليف الاحتفالات والأعياد فى القرى وتنظيمها وخاصة الأعياد الدينية. وفى القرن السادس أصبح العمدة (Meizon) أكبر موظف بالقرية، وحل ملاك الإقطاعات محل مجلس شيوخ القرية. وتولى العمدة الاشراف المالى وشئون القضاء، وكان يتقاضى راتباً عينياً حيناً أو نقدياً أحياناً أخرى، وهناك عدد آخر من الوظائف عرفتها القرية منها المسئول عن مياه الفيضان، مسئول الخزانة، حراس الحقول والمشرفون على القنوات وتنظيمها. هذا إلى جانب الجباة والكتاب وعمال البريد حيث يتولون نقل الاموال رأسا إلى عاصمة الولاية. كذلك قامت بالقرية وظائف خاصة بالشرطة ويقوم أصحابها بأعمال الحراسة إلى جانب جمع الضرائب وتوصيلها إلى الإدارة. دون تدخل السلطات العليا فى عملهم.

وهناك تنظيم إدراى آخر يعلو التنظيم الإدارى داخل القرية، ويعرف باسم الباجوس Pagus (المركز) ويتولى إدارته موظف يعرف باسم Praeposilies وقد أدخله الرومان مصر فى عام ٣٠٧-٣٠٨م، وهو عبارة عن أحد أعضاء مجلس الشورى فى كل إقليم، يقوم بالإشراف على عدد من القرى، وكانت له سلطة كبيرة، فهو المسئول عن زراعة الأرض، وتقدير الضرائب النقدية والعينية وجبايتها، وكان يمارس القضاء والشرطة أحياناً. ومن مهام الباجوس أيضاً إجراء التعينات فى وظائف القرية والإشراف على تأجير

أراضى القرية. وفى القرن الرابع ألغى نظام الباجوس هذا وحل محله نظام إدراى آخر وهو نظام (الباجركات) حيث أصبحت المنطقة الريفيـة كلهـا تشكل مقاطعة واحدة . واختير رئيس الباجركية Pagarchia (المحافظة) من بين الأغنياء إذ كان لا يتقاضى إجرًا عن وظيفتـه هـذه . (والبـاجرك أو المحافظ) موظف تابع للإمبراطور، يعين من قبله ومسئولاً أمامـه. وكـان الباجرك يتولى الإشراف على كافة الشئون المالية بالباجركية من مدن وقرى ومتابعة الشئون القضائية .

واستمرت هذه التنظيمات الإدارية معمولاً بها فى مصر البيزنطية، حتـى اعتلى الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) العرش البيزنطـى، وحـاول إدخال العديد من الإصلاحات والتغييرات على النظام الإدارى، الذى كان معمولاً به فـى مصـر، ويظهر ذلك من خلال المرسوم الذى أصدره جستنيان فى عام (٥٣٨ - ٥٣٩ م) والذى يعرف (بمرسوم ١٣) إلى والى الشرق .

وقبل أن نعرض للتنظيمات الإدارية التى تضمنها هذا القـانون، تجـدر الإشارة إلى أن جستنيان أسس أسرة حكمت الدولة البيزنطية قرنـًا من الزمان على وجه التقريب، ولد جستنيان بمقدونيا، وجاء إلى القسطنطينية وهو حـديث السن حيث تلقى علومه فى مدارسها، ثم شـارك خالـه جسـتين فـى حكـم الإمبراطورية ثم حكمها منفردًا . وترجع شهرة جستنيان الواسعة إلى ما تركـه من مجموعات القوانين التى لا تزال تحمل اسمه وتدرس فى جامعات العـالم . هذا فضلاً عما خلفه من عمائر ضخمة . ومن أهمها دير سانت كاترين الـذى بنى فى القرن السادس للميلاد بإيعاز من ثيودورا (هبة الله) زوجة جسـتنيان، وبأمر منه ليأوى إليه الرهبان الذين تجمعوا فى المكان الـذى تجلـى فيـه الله لموسى عند سفح الجبل بوادى "طوى المقدس".

التنظيمات الإدارية فى مصر وفقـًا لقانون ١٣ :

تتلخص التنظيمات الإدارية التى وضعها جستنيان لمصر وفقـًا لقـانون ١٣ فيما يلى :

أولاً : رأى جستنيان ضرورة إعادة مصر مرة أخرى لإشـراف كونـت الشرق وهذا يعنى زوال شخصية الوالى الاوجسـتالى (الأغسطسـى) ذلـك المنصب الذى ظهر منذ عام ٣٨٢م – عندما انفصل والى مصر عـن كونـت الشرق . ومن ثم أصبح والى مصر الاوجستالى مجرد حـاكم علـى وحدتـه الإدارية، وزالت بذلك مهمته كنائب للإمبراطور، وعليه أن يرجع إلـى والـى الشرق مباشرة فى تصريف أموره دون وساطة بينهما . ولذلك جـرى توجيـه مرسوم رقم (١٣) إلى والى الشرق وليس إلى الوالى الاوجستالى .

ثانيـًا : انقسمت مصر إلى خمس دوقيات أو ولايات وهى :

مصر، أوجستامنيكا، اركاديا، طيبة، وليبيا .

١ – دوقية مصر :

وتشمل الجزء الذى يقع غرب الدلتا، بما فى ذلك مدينة الإسكندرية وقسم جستنيان دوقية مصر هذه إلى ابروشيتين أو ولايتين همـا : أبروشـية مصـر الأولى، وأبروشية مصر الثانية، وعين جستنيان على رأس هـذه الدوقيـة دوق يحمل لقب أوجستال، وعهد إليه بالسلطتين المدنية والعسـكرية، فـإلى جانـب الأعمال المدنية التى كان يؤديها تولى قيادة القوات المرابطـة فـى أبروشـيتى مصر الأولى ومصر الثانية وفى الإسكندرية .

٢ – دوقية أوجستامنيكا :

وتشمل الجزء الواقع شرقى الدلتا حتى بلوزيـوم (الفرمـا) والعـريش،

وتنقسم أيضـــاً إلى أبروشيتين : أبروشـــية أوجســـتامنيكا الأولـــى وأبروشـــية أوجستامنيكا الثانية، وعين جستنيان على دوقية أوجستامنيكا دوقا أو واليا يجمع فى يديه السلطتين والمدنية والعسكرية .

٣ - دوقية أركاديا :

سميت بذلك نســبة إلـــى الإمبراطـــور أركـــاديوس ابـــن الإمبراطـــور ثيودوسيوس، والذى آل إليه القسم الشرقى من الإمبراطورية بعد أن قسمها أبوه إلى قسمين شرقى وغربى . وتشمل مصر الوسطى حتى البهنسا، وتمتد علـــى الشاطئ الأيسر للنيل، ابتداء من رأس الدلتا حتى الشيخ فضل، وكانت أركاديـــا وحدة إدارية واحدة، ولم تنقسم كغيرها إلى أبروشتين وكان حاكمها يحمل لقـــب كونت ويجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، وكانت عاصـــــمة أركاديا هى (أرسينوى) أى الفيوم الحالية .

٤ - دوقية طيبة :

وتشتمل على الجزء الجنوبى من إقليم مصر أى من الأشـــمونين حتـــى جزيرة فيلة وأقصى الجنوب . وتعتبر دوقية طيبة إقليم أطراف، وتولى حكمها دوق أوجستال، يخضع لوالى الشرق، ويجمع فـــى يديـــه الســـلطتين المدنيـــة والعسكرية. انقسمت دوقية طيبة إلى أبروشيتين طيبة العليـــا وطيبـــة الســـفلى، وتولى إدارة كل من هاتين الأبروشيتين حاكم مدنى يخضع للدوق الأوجستال .

٥ - دوقية ليبيا :

ضم هذا الإقليم إلى مصر من الناحية الإدارية منـــذ عهـــد الإمبراطـــور انستاسيوس(٤٩١ - ٥١٨ م) وخضعت ليبيا فى عهده لسلطة دوق، ولكن لـــم يكن فى يده إلا السلطة المدنية فحسب، واستمر الحال كذلك فى عهد جســـتنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) مع إدخال تعديل واحد وهو أن دوق ليبيا لـــم يعـــد يخضـــع

لسلطة أوجستال الإسكندرية . وكانت بارايتونيوم (مرسى مطروح) عاصـمة إقليم ليبيا الإدارية .

يتضح مما سبق أن مصر انقسمت وفقـاً لقانون (١٣) الـذى وضـعه جستنيان فى عام (٥٣٨/٥٣٩م) إلى خمس دوقيات، هى مصر وأوجستامنيكا وطيبة وأركاديا وليبيا، وقسمت كل دوقية منها إلى أبروشيتين، فيما عدا دوقيتى اركاديا وليبيا، فكان لكل منهما أبروشية واحدة . وكان لكل أبروشية حاكم يتميز بصفته المدنية . هذا وانقسمت الأبروشيات إلى وحدات إدارية أصـغر تعـرف باسم (الباجركات) والمدن والقرى والضياع الكبيرة .

على إنه إذ كانـت الاصـلاحات الإدرايـة الكبـرى، التـى قـام بهـا جستينان قد حققت الأهداف المرجوة منهـا، ممثلـة فـى أضـعاف مقاومـة مصر والمحافظة على الأمن، واسـتعادة مـا للحكومـة الإمبراطوريـة مـن سلطان، بأن جعل كل دوق أوجستال يتمتـع بالسـلطتين المدنيـة والعسـكرية فتساوى الدوقات بذلك فى النفوذ والسـلطان ممـا أدى إلـى عـدم التعـاون بينهم، وعدم اتحادهم حتـى يصـبحوا قـوة فـى وجـه الإمبراطوريـة بـل وظهرت المنافسة بينهم. هذا وقـد ترتـب علـى هـذه الاصـلاحات نتيجـة بالغة الأهمية، وهى القضاء على وحـدة الـبلاد السياسـية بمـا أقـدم عليـه جستنيان مـن إلغـاء وظيفـة نائـب الإمبراطـور، ومـنح حـاكم الدوقيـة السلطتين المدنية والعسكرية . هذا فضـلاً عـن أن هـذا الانقسـام أضـعف من مقاومة مصر أمام جيوش المسلمين .

وسوف نتحدث فيما يلى عن اختصاصات كل مـن الـدوقات ورؤسـاء الابروشيات والباجركات، وكذلك عن المسئولين عـن إدارة المـدن والضـياع الكبيرة وما كان لهم من سلطات .

أولاً : الدوقات :

يحتل دوقات مصر مركز الصـــدارة فـــى ترتيـــب الوظـــائف الإداريـــة البيزنطية. وكان الإمبراطور يختار هؤلاء الدوقات من بين مـــوظفى الـــبلاط . كذلك وصل إلى منصب الدوق عدد من السكان الأصليين دون أن يشغلوا مـــن قبل أى منصب أو وظيفة فى البلاط الإمبراطورى، وكان هؤلاء مـــن أعيـــان البلاد، الذين لهم مكانة مرموقة، واشتهروا بنفوذهم وسلطانهم . وكان من حـــق الإمبراطور، أن يعزل هؤلاء الدوقات فى أى وقت يشاء، إذ لم تكن هناك مـــدة معينة لشغل وظيفة الدوق . ومن أهم الشروط التى كان يجـــب توافرهـــا فـــى الشخص، الذى يتولى هذا المنصب، أن يكون مؤمنـــًا بمذهب الدولة الدينى، إذ يحرم على الهراطقة تولى هذا المنصب . هذا وتغاضى بعض الأبـــاطرة عـــن هـــــذا الشـــــرط فهناك عدد من المصـــــريين الـــذين يـــدينون بالمـــذهب المونوفيزيتى (الطبيعة الواحدة) تولوا وظيفة الدوق - رغم كونهم ليسوا على مذهب الدولة الرسمى - ومن أمثلة هؤلاء ولاة طيبة، ومنهم أبيـــون وهوريـــــون (زمن جستنيان) .

ونظرًا لأن الدوق كان يمثل الإمبراطور، ويعتبر نائبه فى البلاد، فقد تمتع بسلطات واسعة من بينها : أنه يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية، فهو الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة، ويقوم بحفظ الأمن العام فى المـــدن، ويساعد عمال الخراج فى استخلاص الضرائب، هذا بالإضافة إلى أعباء وظيفته العسكرية، فهو يتولى قيادة وإدارة فرق الجيش، ويهيمن على مختلف الشـــئون العسكرية وغير العسكرية التى تهم الجند ويحـــرص علـــى صـــرف رواتـــبهم وملابسهم بانتظام، وفى حالة الخطر الذى قد يهدد البلاد عليه أن يخرج على رأس الجيش، أو يندب عنه أحد قادته لدفع هذا الخطر كذلك يخول له الحق فى عقد أى معاهدة أو صلح مع الأعداء .أما فى وقت السلم فكـــان عليـــه أن

يطوف البلاد ليتفقد أحوالها، ويقف على أحوال الحاميات والاستحكامات، ويسهر على حماية الحدود من إغارات البدو .

ازداد سلطان الدوق داخل البلاد، بفضل ما ركزه جستنيان فى يديه مـــن سلطات، وكان يهدف من وراء ذلك إلى استتاب الأمن فى مصر واستغلال هذا الإقليم فى هدوء .

وعمل جستنيان على زيادة مرتبات الـــدوقات وذلـــك ليضـــمن ولائهـــم وإخلاصهم له حتى لا يفكروا فى الخروج عن طاعته من ناحية ومـــن ناحيـــة أخرى لكى لا يتلاعب هؤلاء الدوقات بما تحت أيديهم من أمـــوال الضـــرائب، ويمتنعوا عن إرسالها إلى القسطنطينية، كذلك حرص جســـتنيان علـــى زيـــادة رواتبهم حتى لا ينصرفوا إلى الاهتمام بجمع الأموال وتكديسها لأنفسهم، علـــى حساب خزانة الدولة ودافعى الضرائب . وبلغ راتب الدوقات فى مصر أربعين ليرة ذهبية سنويـــاً وهو أعلى راتب، وكان يفـــوق راتـــب دوق ليبيـــا ودوق أفريقية، ويدل ذلك على ما كان يحظى به دوق مصر من مكانة كبيـــرة لأنـــه المكلف بجمع الضرائب وارسالها الى بيزنطة.

ولم يكتف جستنيان بزيادة مرتبات الدوقات، وإغداق الأموال عليهم بـــل سعى إلى استرضائهم وغمرهم بكثير من كرمه وسخائه، وإذا كان الإمبراطور قد أغدق عليهم من نعمه، فإنه انتظر منهم أن يؤدوا عملهم فى شىء من الأمانة والدقة، وأن تبقى يد الدوق طاهرة نظيفة، وأن يكون جديرًا بثقة الإمبراطـــور، ولذلك وضع الإمبراطور عقوبات صارمة لمعاقبة من يقع منهم فى خطأ.

وكان للدوق حاشية خاصة، تتألف فى حالة السلم من حـــرس الشـــرف، وفى حالة الحرب من الجند المختارة، وللدوق ديوان خاص به، يضم مجموعـــة من الموظفين المدنيين والعســـكريين، لا تقـــل عن ستـــمائة موظـــف، منهم المبعوثين (الرسل) والمترجمين الذين يتولون نقل النصوص الرسمية إلى

القبطية ورجال الدين ورجال البريد والموثقين، بالإضافة إلى الوظائف المختلفة التى يضمها الديون .

ويقوم الدوق بتأليف الديوان وتنظيمه وترتيبه، ثم يُخطر والى الشرق بنتيجة عمله هذا، حتى يتم تصديق الإمبراطور على التشكيل النهائى للديوان، وعندما تتم موافقة الإمبراطور على اختيار موظفى الديوان، يتلقى كل منهم الموافقة الرسمية من الديوان الإمبراطورى، مع إقرار رسمى من القسطنطينية بتعينه فى وظيفته . وهذا يعنى أن موظفى الديوان يعينون من قبل الحكومة المركزية بالعاصمة الإمبراطورية .

ويتألف الديوان من عدة إدارات هى :

١ – الإدارة المالية : وتتولى الإشراف على جباية الخراج وأموال الضرائب.

٢ – إدارة التجنيد : وتتولى توزيع الشهادات على المجندين، وهى التى تشير إلى أنهم أصحاء البدن، وأن التحاقهم بالجيش لم يكن الغرض منه الهرب من الالتزامات البلدية أو المدنية .

٣ – إدارة الشئون القضائية : ولها السلطة العليا فى القضاء الجنائى .

٤ – إدارة المحفوظات (ديوان الإنشاء) : ويجرى بها تحرير الوثائق وحفظ السجلات .

٥ – إدارة المظالم : وترفع إليها الشكاوى والملتمسات .

٦ – إدارة المنشآت العامة : وتنظر فيما يتعلق بالعمائر، وبفضل اهتمامها تم تشييد استحكامات فيلة، والحصون فى مصر الأولى وفى طيبة .

٧ - إدارة الخزانة : وتتجمع فيها ما يتم جبايته من ضرائب الدوقية أو الولاية.

ونظرًا لأن الدوق كان يمارس القضاء، وكان الرئيس الأعلى لـــه، فقـــد كانت محكمة الدوق من أهم المحاكم المحلية، وكانت تعقد جلساتها فى عاصـــمة الدوقية، وكان الدوق ينظر فى القضايا الجنائية والمدنية، كما ينظر فى الدعاوى والخصومات المتعلقة بالإدارة المالية، كذلك قضايا القادة والجنود . وكان لـــــه مستشـــــار قضـــــائى، كما كان بمحكمته محامـــــون، وكذلك له نـــــــواب أو مندوبين فى مدن الدوقية .

ثانيـــًا : رؤساء الأبروشيات :

من المعروف أن كل دوقية كانت تنقسم إلى أبروشيتين فيما عدا دوقيتـــى اركاديا وليبيا، وأن رؤساء الأبروشيات اتخذوا ألقابـــًا من بينها، لقب أرخـــون وأحيانـــًا لقب دمستق ومنهم من اتخذ لقب تريبون Tribun وتعنى نقيب العامة.

ويختار رئيس الأبروشية من موظفى الإقليم نفسه، عن طريق أهل الإقليم، وكانت سلطات رئيس الأبروشية محدودة للغاية، فهو مجرد تابع للدوق يرجع إليه فى كل الأمور، وذلك نظرًا لما يتمتع به الدوق من سلطات واسعة على مختلـــف الشئون المدنية والعسكرية، ولهذا اقتصرت مهام رئيس الأبروشية، على ممارسة القضاء وجباية الضرائب، ويتم ذلك أيضـــًا تحت إشراف الدوق . ومن ثم كـــان رئيس الأبروشية يشرف على الشئون المدنية ولم يكن له أى سلطات عسكرية .

ويتبع رئيس الأبروشية ديوان صغير، يضم عدد من المـــوظفين الـــذين يتولون العمل بالأبروشية منهم الكاتب، وعمال البريد، والمشرفين على ميـــادين السباق، ومرافقين مدنيين وعسكريين لرئيس الأبروشية، هـــذا وكـــان يخضـــع لسلطات رئيس الأبروشية فصيلة من رجال الشرطة، تساعده فى تنفيـــذ أحكـــام القضاء .

أما عن ديوان رئيس الأبروشية فيتألف من إدارات مختلفة منهـا الإدارة المالية، والإدارة القضائية، وإدارة المحفوظات وكتابة الإنشاء، وإدارة الإشراف على موظفى الديوان .

ثالثـًا : الباجركات (المحافظون) وحق الجباية الذاتية :

ومفردها باجرك، وهى وظيفة مدنية، يتولاها أحد الموظفين أو أحد كبار الملاك المحليين، وكان الباجرك موظفًا تابعـًا للإمبراطور، يستمد سلطانه منه مباشرة، ومعينا من قبله ومسئولاً أمامه، وعلى الرغم من أن الباجرك يخضـع لإشراف الدوق، إلا أن الأخير لا يملك الحق فى عزله، إذ لم يقم بواجبه، أو إذا أساء استخدام سلطاته، أو صدر منه أى خطأ . وفى حالة تقصير الباجرك فـى تأدية واجبه على الوجه الأكمل، يتقدم الدوق بتقرير عنه إلى والى الشرق، الذى يقوم بدوره، بإبلاغ الإمبراطور، الذى من حقه وحده أن يقرر عزل البـاجرك وتعيين آخر فى منصبه .

أما عن مهام الباجرك فيغلب عليها الصفة المالية، إذ كان مسـئولاً عـن جباية الضرائب من سائر الجهات التابعة له . كما كان الباجرك يشارك أيضـًا فى الأمور القضائية إذ كان يقوم بتنفيذ القرارات والأحكام، التى تصـدر عـن محكمة الدوق . فضلاً عن إنه كان ينظر فى القضايا الجنائية الصغيرة وبعـض القضايا المدنية، على أهم المهام القضائية التـى مارسها الباجرك وظيفة (قاضى المصالحات) إذ كان ينظر فى عقود الضمان، وفى الشكوى ويـرد الحقوق لأصحابها من خلال محكمته . وكانت مهمة الباجرك غايـة فـى الدقة لأنه يتصل بالسكان مباشرة أثناء جباية الأموال وتنفيذ أحكام القضاء.

هذا ويساعد الباجرك فى تأدية مهـام منصـبه، ويخضـع لأوامـره جماعـة من الموظفين، منهم الجبـاة والمراقبـون والكتـاب والمسـاعدون . وتقـرر أن يكون تحت تصرفه سفينة وبحارة عندما يطوف بالبلاد لتفقد أحوالها.

وتشمل سلطة الباجرك عاصمة الإقليم وكل ما يحيط به أو يتبعه من قرى وضياع باستثناء الأراضى التى تتمتع بحق الجباية الذاتية .

سعت الدولة لضمان حصولها على الخراج، إلى منح ما يعرف بالجبايـة الذاتية، لعدد من القرى وكبار الملاك والكنيسة، بمعنـى أن البـاجرك لا يقـوم بجباية الضرائب من هذه القرى أو من هؤلاء الملاك أو الكنيسة، بل يقوم هؤلاء بإرسال أموال الضرائب مباشرة إلى حاكم الإقليم، أما إذا كانت الضرائب عينية كالقمح مثلاً، فيقومون بإرسالها إلى الإسكندرية .

وتعنى الجباية الذاتية بالنسبة للقرية، أن أهلها يشكلون نقابة معينة، تكون مسئولة مسئولية جماعية عن جمع الضرائب وإرسالها إلى حـاكم الإقلـيم دون وساطة الباجرك فى ذلك . ومن ثم صار لمجلس القرية علاقـات دائمـة مـع دواوين رؤساء الابروشيات فيما يتعلق بالشئون المالية.

ويرجع سبب اللجوء إلى نظام الجباية الذاتية إلى ما كـان يتعـرض لـه الفلاحون من ضغط وإرهاب على يد الباجرك، لذلك كانت حالة الفلاح الخاضع لسلطات الباجركية أسوأ من حالة زميله الموجود فى القرى التى تتمتـع بحـق الجباية الذاتية .

وقد ترتب على تمتع القرى وكبار الملاك والكنيسة بحق الجباية الذاتيـة، أن أصبحت سلطة الباجرك فى جمع الضرائب قاصرة على صغار الملاك أو من المستأجرين من الفلاحين الأحرار وعلى الأراضى التى تخص الدولة .

ومع أن سلطة الباجرك كانت غير واضحة فـى داخـل المدينـة، إلا أن المدينة وكل ما يحيط بها من أراضى كانت تعتبر وحدة مالية بالفعل، وتخضـع للإشراف العام من قبل الباجرك .

رابعـًا : إدارة المدن أو البلديات (حامى المدينة) :

تعرضت إدارة المدن (البلديات) منذ القــرن الثالث الميلادى للإنهيار إذ أن نواب المدينة (البلدية) بعد أن تجردوا من سلطاتهم، تخلوا عــن واجبــاتهم لممثلى الحكومة، ونتيجة لذلك أخذوا يخضعون بالتدريج لنوع مــن الوصـــاية . ودفع ذلك الإمبراطور جستنيان إلى الاهتمام بإعادة تنظيم إدارة المدن .

وكان لمدينة الإسكندرية مكانة خاصة فى إصلاحات جستنيان، فأبقى فــى داخلها على الموظف المعروف باسم Vindex أى النائب الذى عينه الإمبراطور انستاسيوس لإدارة الشئون المالية، والــذى يخضـــع لســلطانه نــواب بلديـــة الإسكندرية، ويعتبر ممثلاً للسلطة المركزية . ويخضع لسلطة الدوق الأوجستال فيما يتعلق بالشئون المالية . أما خارج الإسكندرية فقد اهتم جســتنيان باتخــاذ الإجراءات اللازمة من أجل جعل أعضاء البلديات عمالاً مخلصــين للحكومـــة المركزية فى جباية الضرائب وحفظ الأمن العام .

وعلى هذا فقد تولى الإشراف على المدن إلى جانــب البــاجرك نــواب البلدية، وكانت مهمتهم جباية الخراج . ويساعدهم ديــوان البلديـــة أو مجلـــس البلدية، ويتألف من الكاتب وكاتب الحسابات، ومتولى الــدعاوى أو الشــكاوى والخازن الذى يعهـــد إليه بحفظ الضـــرائب بعد جبايتهـــا . كــذلك يــرتبط بالمدينة (البلدية) موظفون يتولون الإشراف على الجسور وآخرون يشــرفون على الحمامات بالمدينة، هذا فضلاً عن كبير الأطباء .

وظيفة حامى المدينة

وسرعان من تضاءلت أعمال البلدية بسبب وجود وظيفة حامى المدينـــة. أنشأ هذه الوظيفة الإمبراطور فالنتيان عام ٣٦٤م، لكى يحمـــى الســكان مـــن استبداد الموظفين وظلمهم، ومن واجباته أن يحمـــى دافعـــو الضــــرائب ممـــا

يتعرضون له على يد جباة هذه الضرائب وتعسفهم، وكذلك حماية أرباب الشكاوى، والقضايا مما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد فى المحاكم التى لجاءوا إليها يلتمسون العدالة والإنصاف وأصبح بذلك حامى المدينة هو العلاج الوحيد لأحوال الإدارة المدنية البالغة السوء .

وتطور منصب حامى المدينة، ففى سنة ٣٨٧م صدر قرار بتعديل وظيفة حامى المدينة بأن أصبح من حق المدن وأهلها، أن يختاروا حامى المدينة، لأنهم أقدر على اختيار من يمثلهم، وذلك بعد أن كان يقوم باختياره كونت الشرق أو والى الشرق . إلا أن حماة المدن لم يؤدوا واجبهم على نحو مرض، مما دفع الحكومة البيزنطية، إلى أن توجه نظرهم إلى مراعاة الأمانة فى تأدية واجباتهم. وإدراك الأباطرة فى عام ٤٠٩ أن الفقراء فى حاجة ماسة لمن يتولى حمايتهم، ولم يعد سكان المدينة هم الذين يختارون الحامى بل أصبح يختاره الأساقفة ورجال الدين، والأعيان، وملاك الأراضى ونواب البلديات . ولكن لم يؤد ذلك إلى نتائج مرضية نظرًا لكثرة الأعباء التى القيت على عاتق حماة المدينة، مما جعلهم لا يقلون عن نواب البلدية رغبة فى التخلص من الالتزامات المفروضة عليه . ويبدو أن وظيفة حامى المدينة اختفت قبل جستنيان مما جعله يعيدها مرة ثانية، وأصبح حامى المدينة فى عهده رئيسًا لهيئة نواب البلدية، ويشارك فى الإدارة المدنية والإدارة القضائية إذ كانت له محكمة وينظر فى الدعاوى المالية . وبذلك انتهت وظيفته التقليدية التى تتمثل فى كونه وسيلة لجأت اليها السلطة المركزية لحماية دافعو الضرائب من ظلم الجباة.

وكان لكل قرية مجلس محلى، يتألف أعضائه من الجباة والكتاب وعمال البريد، وكان هذا المجلس يختلف باختلاف حال القرية، إذا كانت تتمتع بالجباية الذاتية أو لا تتمتع بها، فإذا كانت تتمتع بحق الجباية الذاتية، صار لأعضاء

مجلس القرية علاقات دائمة مع دواوين رؤساء الأبروشيات فيما يتعلق بـإدارة الشئون المالية .

هذا وقد استمرت هذه النظم معمولاً بها فى مصر حتى نهاية العصر البيزنطى بها أى حتى دخول العرب مصر .

النظام المالى فى مصر فى العصر البيزنطى :

كان الوضع الاقتصادى لمصر، وما تمتعت به من ثراء وموارد طبيعية على رأسها القمح والنقود، من الأمور التى جعلت الحكومة الرومانية تضع سياسة، تستهدف بها استغلال مصر إلى أقصى درجة ممكنة . ولذلك فقد خضعت الأراضى لنظام معين فى ملكيتها، ووضع الرومان سياسة محكمة لجمع الضرائب .

أولاً : نظام ملكية الأرض :

سار الرومان على سياسة البطالمة فى توزيع ملكية الأرض بمصر، حيث اعتبرت الأراضى ملكاً للملوك أو الحكام وكذلك للمعابد . وكانت هناك إقطاعات أخرى، اختص بها الجند المسرحون (الذين انهوا الخدمة العسكرية) ووزعت عليهم، وأراض منحت للجند المرتزقة لربطهم بـالأرض وبمصالح الإمبراطور، وكذلك وزعت أراضى أخرى على بعض اليونانيين المقيمين فى مصر، وعلى بعض أعضاء البلاط ورجال القصر، تمنح لهم مدة خدمتهم . غير أن هذه الأراضى لم تلبث أن اندمجت فى الضياع الإمبراطورية قبل نهاية القرن الأول، وذلك بعد مصادرات نيرون وفسبسيان وتيتوس ولم يبق منها إلا ما جرى منحه للجند المسرحيين. هذا إلى جانب الأراضى ذات الملكية الخاصة وهى التى يستصلحها الأثرياء ويزرعونها، وكانت تمنح لهم مقابل ضريبة مخفضة أو كانت معفاة من الضرائب، وكذلك الأراضى التى كانت الدولة تبيعها للأفراد .

وعلى هذا النحو وجدت ثلاثة أنواع لملكية الأرض هـــى أرض التـــاج، وأرض الكنائس، والأملاك الخاصة، وتعتبر جميعها من الضياع الإمبراطوريـــة فكانت أكثر الأراضى ملكـــًا للدولة ممثلة فى شخص الإمبراطور . ومن أملاك الإمبراطور بمصر محاجر الجرانيت والمرمر والشب، كما كان الملح احتكـــارًا إمبراطوريـــًا فى سائر أنحاء الإمبراطورية.

١- أرض التاج

غير أن الإمبراطور لم يحتفظ لنفسه بالأرض التابعة للإمبراطورية بـــل اقطعها فى شكل هبات للموظفين والجنود بشتى درجاتهم ورتبهم، ولم تكن هذه الهبات ملكـــًا لأصحابها، بل كان لهم حق استغلالها بدلاً مـــن رواتـــبهم مـــدى الحياة، ولم تلبث أرض التاج أن انتقلت إلى الأفراد، فأصبحت ملكـــًا خاصـــــًا لهم، كما أن جانب من هذه الأراضى جرى التصرف فيه بالبيع للأفراد، مثل بيع الأراضى البور والمهملة، أو التى تقع على الأطراف . ولهذا أخـــذت أمـــلاك الإمبراطور وأراضيه فى التناقص، ولم يعد الإمبراطور فى العهد البيزنطى هو المالك الوحيد للأرض كما كان فى عهدى البطالمة والرومان، بدليل أنه اختفـــى من الوثائق المصرية ذلك النوع من الأرض، وكان عام ٣٣٢م هو آخـــر عـــام يحمل إشارة إلى أرض التاج، ولذا فمن المحتمل أن تكون أرض التاج أو أرض الدولة قد ألغيت زمن قسطنطين أو بعده بقليل، إذ بدأت الدولة فى تمليـــك أرض التاج لمزارعيها مقابل دفع ضرائبها.

وكان تحول أرض التاج إلى ملكية خاصة ينطوى على الخطر، لأن مـــا شهدته الإمبراطورية الرومانية فى الغرب من الضياع الكبيرة، أصبح له مثيـــل فى مصر، هذا وقد بذل بعض الأباطرة وعلى رأسهم ثيود وسيوس جهودًا كبيرة لوقف نمو الضياع الكبيرة فى مصر، عن طريق سن القوانين وحماية الموظفين الأقوياء والملاك الأغنياء وأرباب الأملاك على نحو ما سنرى.

٢- أرض الكنائس والأديرة

أما أراضى الكنائس والأديرة وأملاكها، فقد تكونت أساسًا من الهبات الخيرية، التى كانت تقدم لها سواء من الحكام أو الأفراد الأتقياء، فقد اشتهر الأباطرة فى كثير من الأحيان بالكرم والجود كما أن المصريين جعلوا فى وصاياهم نصيبًا للكنيسة، فقد منح كبير الأطباء فلافيوس فيمون اراضى مزروعة بالكرم لدير القديس جريما، ووهب أحد ولاة اركاديا فى القرن السادس ارضاً للكنيسة، كذلك احتوت سجلات ابيون الكبير على هبات كثيرة للكنيسة وكذلك للأديرة الواقعة فى نطاق اكسيرنخوس (البهنسا) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأراضى التى حصلت عليها الكنيسة كهبات من الأباطرة كانت تتمتع بالأعفاء التام من الضرائب. أما أراضى الحيازة (والتى للكنيسة حق استغلالها فقط) وكذلك أراضى الهبات من الأفراد أو حصلت عليها الكنيسة عن طريق الشراء فكانت تدفع عنها ضرائب.

كذلك مصادرات قسطنطين لصالح كنيسة القسطنطينية والإسكندرية فى القرن الرابع الميلادي بعد انتصاره على شريكه ليكينيوس، إلى جانب أن نظام الرهبانية أدى إلى زيادة أملاك الكنيسة عن طريق هبات الأفراد أملاكهم لها قبل انخراطهم فى سلك الرهبانية، فالقديس أنطونيوس ترك مزرعة مساحتها ٣٠٠ فدان للكنيسة، بعد أن احتجز منها نصيب أخته، كذلك دخل فى حوزة الكنيسة بعض الأراضى التى عجز ملاكها عن مقاومة استبداد موظفى المالية أو أصحاب السلطة وطغيانهم، فهجروها وحازتها الكنيسة، علاوة عن دخول بعض الأراضى المهملة أو القابلة للاستصلاح فى حوزتها، ويعتبر هذا النوع من الأرض من أراضى الدولة، وكان يجرى تأجيرها مقابل دفع ضريبة مخفضة، مقابل أن تقوم الكنيسة بإصلاحها وزراعتها.

وليس أدل على ضخامة ممتلكات الكنيسة ونموها نموًا مضطردًا فى العصر البيزنطى، مما ترويه المصادر عن ثروة كثير من الكنائس وخاصة كنيسة الإسكندرية . فيشير قانون ثيودوسيوس الصادر فى ٤١٥م إلى أنه كان لكنيستى القسطنطينية والإسكندرية أملاكًا بمصر، هذا وكثرت أملاك الكنائس فى مصر فى القرن السادس، وأصبح للكنائس صفة قانونية فى امتلاك الأراضى، وليس أدل على ذلك مما كان يرد إلى الكنائس والأديرة من محاصيل بكميات كبيرة خاصة الشعير، مما يدل على اتساع أملاكها.

أما عن أراضى الأديرة فقد اتسعت فى القرن الرابع بصفة خاصة، بعد أن حث الرهبان على العمل فى الحقول والبساتين، واستصلاح الأراضى وزراعتها، فتزايدت الأراضى التابعة للأديرة واتسعت لتضاف إلى أراضى الكنيسة.

٣- الأملاك الخاصة ونظام الحماية

ولم يقتصر بيع الأراضى على أرض التاج فحسب، وإنما امتد إلى أرض الكنائس والمعابد أيضًا، وحدث هذا التحول عام ٣٤٠ أو ٣٥٠ م . وترتب على ظاهرة بيع أراضى التاج، أن بدأت تظهر الملكية الخاصة أو الأملاك الخاصة Res Privata. وقد نشأت هذه الظاهرة فى مصر فى عهد دقلديانوس، ثم تطورت زمن قسطنطين، وتزايدت فى القرن الرابع الميلادى نتيجة الهبة والميراث والزواج فقد أباح القانون الرومانى للزوج حق استغلال أراضى زوجته التى حصل عليها بمقتضى مهرها، هذا إلى جانب الشراء والغرامات والمصادرات. هذا فضلا عن اتساع الملكية الخاصة على حساب الملكية العامة أو أرض الدولة التى أخذت فى الانكماش المستمر، يكفى أن نأخذ مثالا على تراجع أرض الدولة وزيادة الملكية الخاصة على حسابها من خلال وثيقة مؤرخة فى الربع الثانى من القرن الرابع الميلادى فى مدينة هرموبوليس

(الاشمونين) ومن السجل يلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ ٢٩٥٠ ارورا (أى فدان) والأرض العامة أو أرض الدولة تبلغ ١٠٩٣ ارورا. يتضح من ذلك زيادة مساحة الأرض الخاصة، وانكماش مساحة أرض الدولة أو الأرض العامة.

وتشير كل الأدلة والوثائق إلى أن عملية التوسع فى الملكية الخاصة وانكماش الملكية العامة، كانت شائعة فى القرن الرابع، واستمرت فى القرن الخامس الميلادى نتيجة ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة فى القرن الرابع وهى "نظام الحماية".

وتجدر الإشارة قبل الحديث عن نظام الحماية إلى أن سجل هرموبوليس (الاشمونين) هو المصدر الأساسى لنمو الضياع والاقطاعات الكبيرة فى القرن الرابع الميلادى، ويشير هذا السجل إلى :-

- أن الضياع الكبيرة أخذت تنمو، بيد أنها لم تبلغ من الضخامة، ما كان معروفا فى الغرب الأوروبى.
- أن الغالبية العظمى من الأسماء الواردة فى هذا السجل أنما تدل على أن أصحابها مصريون، أو مصريون متأغرون.
- إن ٤٧ مواطناً، بلغ متوسط ما يحوزه الفرد منهم ٤٠ فدانا، وبلغت أكبر مساحة نحو ١٣٧٠ فدانا حازها عدد من ورثة أمونيوس أحد اقطاعى مدينة انطونيوس (الشيخ عبادة) ولم يجر تقسيمها.

أما عن ظهور نظام الحماية فإن صغار الملاك أصبحوا لا يجنون ثمرة أملاكهم نظرًا لسوء الأحوال الاقتصادية من ناحية، وكثرة الضرائب المفروضة عليهم من ناحية أخرى، فضلاً عن قسوة جامعو الضرائب واستبدادهم، لذلك لجأ صغار الملاك إلى الحيلة، فطلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ فى

المنطقة، على أساس أن يتنازلوا له عن أملاكهم وأراضيهم، فى مقابل أن يتـولى السيد الكبير، أمر دفع الضرائب للدولة، وبذلك تحول الفلاح الحر إلى قن وتـابع وعبد للأرض ولكن ليس بالمعنى المعروف للكلمة، على نحو ما سيتضح فيمايلى، وأصبح يستأجر الأرض من سيده والتى كانت ملكا له قبل أن يسلمها لها.

وتزايد نفوذ كبار الملاك نتيجة لذلك اذ كانوا قد تمتعوا بحـق الجبايـة الذاتية، مما ترتب عليه اضعاف سلطة الباجرك الماليـة مـن ناحيـة ونقـص الضرائب من جهة أخرى، مما دفع الدولة إلى أن تنظر بعين القلق لانتشار نظام الحماية، وذلك ليس خوفًا على المالك الصغير أو حريته ولكن خوفـًا من نقص الضريبة، وحتى لا تتحول الأرض أو تنتقل لأصحاب النفـوذ وكبـار المـلاك خاصة وأن صغار الملاك وجدوا فيه الملاذ للخلاص مما يعانوه.

تدخلت الحكومة لضبط نظام الحماية، مستخدمة **عدة وسائل** مـن بينهـا:- التدخل فى حق الارث او مصادرة بعض كبار الملاك أو فرض وقـف امـلاك بعض الملاك على الامبراطور او مصادرة املاك بعض الاديرة وغير ذلك مـن الوسائل، كذلك وأصدر بعض الأباطرة سلسلة من القرارات والمراسيم الرادعـة، للحد من نفوذ السادة الإقطاعيين وكبار الملاك، ومن أهمها :

أولاً : المرسوم الذى أصدره الإمبراطور قسطنطينوس عام ٣٦٠م وقد نص هذا المرسوم على : "أننا علمنا أن عدداً من المزارعين المقيمين فى مصر لجأ إلى حماة رسميين من الحكام العسكريين، وعن طريق وظـائفهم قـاموا باسـتغلال الوضع، وأنى أرغب فى أن كل من بلغت به الجرأة – إلى ضم هؤلاء الأشخاص إليه على وعد بالحماية، علية أداء ما عليهم من الأعباء العامة، إلى جانـب دفـع الأعباء التى على الفلاحين الذين هربوا من قراهم، وأن يدفعوا ذلك مـن دخلهـم الشخصى. وكـل مـن دخل فى حمايتهم وجب رفع الحماية عنـه ". وبايجـاز ينص القانون على منع الحماية، إعادة الفلاح إلى أرضه، وتغريم الحامى.

ثانياً : مرسوم ثيودوسيوس الصادر فى عام ٤١٥م، والذى يـنص علـى الاعتراف بأعمال الحماية التى تمت قبل عام ٣٩٧م، وإلغـاء جميـع محـاولات الحماية بعد هذا التاريخ، باستثناء الكنيسة؛ فقد كان يسمح للأفراد بالـدخول فـى حماية الكنيسة، فكانوا يهبون أراضهم لها ثم يعودون لاستردادها ثانية بالإيجـار. وألغى قانون ثيودوسيوس استخدام لقب "السيد" فعندما كان المستأجرون يخاطبون أسيادهم، استخدموا كلمات وألقاب أخرى منها الديسـبوت Despotes أو Korios كما حرم هذا القانون على الأجانب والغرباء امتلاك أراض فى القرى، ومن ثـم أصبحت كل قرية تمثل وحدة تعاونية مغلقة محرم على الغرباء دخولها.

وقد حاول بعض الملاك التلاعب بالقانون والتهرب من تطبيقه وذلك عن طريق التأجير الصورى، أى قيام المالك الصغير بتأجير أرضـه لأحـد كبـار الملاك، ثم استعادتها بالإيجار ثانية، وهذا الإجراء منعته قوانين الإمبراطور ليو عام ٤٦٨م وأكده الإمبراطور جستنيان فى قانون رقم ١٣. ورغم ذلك فإن مـا جرى تطبيقه فى مصر من القوانين الإمبراطورية سالفة الذكر لم يكن من القوة بحيث يوقف من نمو الضياع والملكيات الاقطاعية بمصر.

وفى القرنين الخامس والسادس وصل هذا التطور الذى حدث فى نظـام الأملاك الخاصة إلى مداه الطبيعى، إذ أصبحت الاقطاعات الكبيرة هى الطـابع المميز للحياة الزراعية فى مصر فى القرن السادس المـيلادى. وأمسـت هـذه الاقطاعات الكبرى تفوق كل ما عرف فى مصر من قبـل، وأصـبحت أشـبه بالإقطاعات التى عرفت فى أوربا فى العصور الوسطى. فكان صاحب الاقطاع يمتلك قرى ومدنا بأسرها، وهو صاحب السلطة العليا فى إقليمه دون أن يكـون لموظفى الإدارة أى سلطة، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه. وسوف يتضح ذلك فى جلاء عند الحديث عن الحياة الاجتماعية للأسر الاقطاعية التـى عرفتها مصر البيزنطية ومن أشهرها أسرة ابيون.

ثانيـاً : نظام الضرائب :

(١) أنواع الضرائب :

تقررت عدة ضرائب على أنواع الأرض المختلفة، فالأراضى المؤجرة يسدد عنها المستأجر ضرائب تعرف باسم " الخراج " كذلك كان ملاك الأراضى يدفعون ضرائب عن أراضيهم، ويمكن تقسيم الضرائب التى كان يدفعها المصريون فى ظل الحكم البيزنطى إلى نوعين ... ضرائب عينية وضرائب نقدية.

أ) الضرائب العينية :

تقرر هذا النوع من الضرائب على الأراضى الصالحة للزراعة، ولذا فقد توقف مقدار هذه الضرائب المقررة سنويـاً علـى فيضـان النيـل . وشـملت الضرائب العينية كافة المحاصيل الزراعية من قمح وشعير وفول وكتان وزيتون وغيرها .

أما عن مقدار هذه الضريبة، فقد تراوح بالنسبة للأراضى التابعة للدولـة والتى هى ملك لها بين أردب وسبعة أرادب عن كل أرورا (فدان) اورورا كلمة يونانية تعنى "ارض زراعية"،وكانت تشير فى مصر فى العصر الرومانى الـى وحدة قياس الارض، تساوى حوالى سبعة اعشار الفدان أو تساوى ٢٧٥٦متـرا مربعاً . وتتراوح بالنسبة للأراضى الخاضعة للدولة والتى تقوم بالإشراف عليها واستغلالها بين ثلاث اربع إلى أردبين عن كل اورورا (فدان). وكـان هنـاك موظف مسئول عن جمع هذه الضرائب، وكان هذا الموظف يقوم بإعطاء الفلاح إيصال بأنه سدد ما عليه من ضرائب، حتى لا تطلب منه ثانية . وبعد أن يـتم جمع هذه الضرائب من سائر أنحاء مصر، ترسل بـدورها إلـى القسـطنطينية عاصمة الإمبراطورية .

وفرضت ضرائب عينية أخرى، من أجـل الميـرة الحربيـة والتمـوين

العسكرى، ذلك لسد نفقات تحركات الجيش، وتموين القوات العسكرية المقيمة فى مصر أو فى المناطق المجاورة، غير أن هذه الضرائب لم تكن فيما يبدو منتظمة . ولم تلبث هذه الضريبة أن صارت ضريبة دائمة زمن دقلديانوس.

الميرة الحربية :

منذ القرن الثالث الميلادى، ومع نشوب الحرب الأهلية، لم يعد الجند يحصلون على أجورهم، بل أصبحوا يحصلون على مقرر عينى، إلى جانب بعض المبالغ المالية من آن لآخر، غير أن أجورهم الثابتة كانت عيناً، وأكد دقلديانوس هذا فى قانونه، فكان الجنود يتسلمون مرتباتهم قمحاً، وزيتاً، ونبيذاً وملحاً، ولحماً، أو ما يكفى الجندى لمدة عام من الغذاء. وهذا إلى جانب مقرر عينى خاص لجيادهم وكانت هذه الميرة الحربية تختلف فى مقاديرها بحسب درجة الجندى.

ومن العوامل التى ساهمت فى تقرير هذه الضريبة العينية ازدياد نفقات الدولة واندلاع الحروب واستمرارها، وزيادة أعداد الجند فى الجيش وكثرة الموظفين وكثرة نفقات البلاط وتكاليف المنشآت المعمارية، التى أضافت إلى الأعباء المالية على الدولة. وما يتحصل منها صار يعتبر أساس اقتصاد الدولة، إذ تقررت على كل أقاليم الإمبراطورية بما فيها مصر، وارتبطت بما ينتج من المحاصيل، ومن ثم أعفى منها سكان المدن . وفى مصر جرى تحصيلها قمحاً لينفق منها على الجيش .

ومن الضرائب العينية كذلك مقدار من القمح عن كل فرد يريد أن يمسح أراضيه ويقيسها، وحزمة من البرسيم الجاف عن كل (أرورا) ثم ما لبث أن تحولت إلى ضريبة نقدية .

ب) الضرائب النقدية :

من بين الضرائب النقدية ما فرض على الأراضى، التى تزرع محصولات غير الحبوب، مثل الكروم والزيتون والنخيل وأشجار الفاكهة، وما ينتج من الحدائق . وكانت ضريبة الكروم، أهم هذه الضرائب النقدية، وسبب ذلك أن مزارع الكروم كانت هى الشىء الوحيد الثابت لملاك الأراضى الخاصة . هذا وقد اختلف مقدار ضريبة الكروم من إقليم لأخر تبعًا لجودة الأرض ونوعية المحصول .

من الضرائب النقدية الأخرى ضريبة صغيرة، خصصت لإصلاح الرى ومشروعاته، من تقوية الجسور والقنوات وتطهير لها، وفرضت ضريبة كذلك نظير تحويل الأراضى الزراعية إلى أراضى بناء، ويضاف إلى ما سبق أنه فرضت ضريبة نقدية على مختلف أنواع الحيوانات، من إبل وحمير وخيول وأغنام وماعز وخنازير، بل وعلى الطيور كالحمام والدجاج. وجرى تقدير هذه الضريبة حسب العدد الذى يملكه الفرد، كما كلف كل فرد بكتابة تقرير يشمل أنواع الحيوانات والطيور وعددها، وأن يوضح فى التقرير ما فقد منها وما تكاثر خلال العام المنصرم.

أما عن ضريبة الرأس، وتعنى الكلمة فى المصطلح اليونانى (تسجيل الناس) فكانت تعتبر من أهم مصادر الدخل للحكومة البيزنطية، فرضت هذه الضريبة منذ أوائل العصر الرومانى على الذكور دون الإناث بداية من سن ١٤ – وهى السن التى يبلغ فيها الشباب تلك المرحلة من عمرهم وتمثل سن الرشد طبقاً للقانون البطلمى وتعتبر بداية لكسب الرزق –٦٠ سنة وقيل ٦٣ أو ٦٥ سنة، واختلف مقدارها من إقليم لأخر، بل وداخل المنطقة الواحدة . وأعفى من هذه الضريبة الرومان، ومواطنو المدن اليونانية فى مصر (نقراطيس

والإسكندرية وبطلميس)، وعدد من رجال الدين والعلماء والمــوظفين المــدنيين مثل حاكم الإقليم وغيره، وعدد من الكهنة فــى كــل معبــد وســلالة أربــاب الاقطاعات فى(ارسينوى) الفيوم.

وحدث فى عام ٢١٢م أن أصدر الإمبراطور كراكلاCaracalla[*] (٢١٢-٢١٨م) - ابن سبتميوس سفيروس- قرارًا بمنح الجنسية أو حقــوق المواطنــة الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية الرومانية، ويتمتع أصــحاب هــذا الحــق بالالتحاق بالجيش والترشيح للمناصب وحق الانتخاب بالإضافة إلى حق الزواج من نساء الرومان. فهل كان لهذا القرار تأثير فيما تقرر من الضرائب خاصــة ضريبة الرأس، وهــــل تم إعفاء المصريين من هــذه الضريبة لمنحهم حــق المواطنة الرومانية هذا ؟

اختلف الباحثون حول هذا الموضوع، فمنهم من يرى أنه لم يترتب علــى هذا القرار إعفاء المصريين من ضريبة الرأس بل أنهم أصبحوا بمقتضى هــذا القرار خاضعين لضريبة أخرى هى ضريبة الميراث ومقدارها ٥%، التى كانت تجبى على تركات الرومان جميعــًا . واســتند هــؤلاء البــاحثون علــى أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن على استعداد، لأن تخسر خزائنها نتيجة اعفــاء المواطنين من ضريبة الرأس، خاصة وأن كراكلا كان يهدف بقراره هذا تحقيق أغراض اقتصادية، على رأسها جمع أكبر قدر ممكن من الأموال، لســد عجــز الخزانة الإمبراطورية، هذا فى حين يرى فريق آخر من الباحثين، أن المصريين أعفوا من ضريبة الرأس بعد قرار كراكلا، ويستندون فى ذلك إلى قلــة عــدد الوثائق التى عثر عليها فى مصـــر عــام ٢١٩م والتــى تفيــد اســتمرار أداء المصريين لهذه الضريبة .

[*] سمى هذا الإمبراطور بكاركلا نسبة إلى الجلباب الطويل الغالى الذى كان يرتديه.

وقد قام الإمبراطور قسطنطين بإلغاء ضريبة الرأس نهائيـاً، وهناك العديد من الأدلة على أن هذه الضريبة، لم تعد تفرض بعد عام ٣٢٥م، فقد ذكر قسطنطين فى مرسوم أصدره عام ٣٢٤م، أن الضريبة التى علـى الفـلاح سـترفع عنـه، وتوضع على ممتلكاته وأرضه لا على شخصه. وهكذا حـل محـل ضـريبة الرأس ضريبة جديدة على الأرض وأخرى على القمح.

ثانيا : تقدير الضرائب :

أما عن تقدير الضرائب، فكان يقوم به مندوبون، جـرى تعييـنهم لهـذه المهمة، ولم يكن مقدار الضريبة المطلوبة ثابتـاً بصفة مستمرة، إذ أنـه كـان يجرى كل عام بمقتضى أمر إمبراطورى تقدير ما تحتاجه الحكومة، ثم تتـولى إدارة الوالى الأوجستالى أو الأوغسطسى، التى تعتبر أهم سلطة مالية، توزيـع هذا المقدار على الإقليم، فيقوم حكام الأقاليم باتخاذ الخطوات اللازمـة لجمـع الضرائب، فإذا حدث لسبب من الأسباب أن المبلـغ المقـرر بمقتضـى أمـر الإمبراطور، لم يكن كافيًا تقرر فرض مبلغ إضافى .

ثالثا جباية الضرائب :

أما جمع الضرائب وجبايتها، فيقوم به موظفون خاضعون لحاكم الإقلـيم وتحت إشرافه، وخاصة أعضاء مجالس البلديات، ويتحتمَ على هؤلاء الموظفين المكلفين بجمع الضرائب تسديد العجز الناجم عن الضرائب التى لم تتم جبايتهـا، فإذا لم يؤدوا هذا العجز، وقعت المسئولية على هيئة الأعضاء التى عينتهم .

واستمرت هذه الأوضاع معمولاً بها فى مصر حتى عصر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) الذى وضع تنظيمـاً ماليـاً جديـدًا بمقتضـى قانون ١٣، حيث أدخلت تعديلات كبيرة على النظام المالى الذى كان معمولاً به .

التنظيمات المالية بمصر وفقـاً للقانون رقم (١٣) :

أولاً : بالنسبة لنظام ملكية الأرض وخاصة الأمـلاك الخاصـة، حـاول جستنيان فى مرسوم ١٣ الحد من الحماية التى تتمتع بها الكنائس، فلقد لجأ إلـى الكنيسة عدد من المتهربين من دفع الضرائب، وكذلك المختلسين من الموظفـين حتى يحتفظوا بمـا اختلسوه، وطلب من مسئولى الكنيسة ألا يعطوا حق اللجوء لكل من يطلبه، بل سمح فقط لمن حصل على إيصال بتأجيل الضـرائب مـن الموظفين على أن يتعهد بسـداد ما عليه من ضرائب .

والحقيقة أن جستنيان لم يهتم بنمو نظام الحماية وتزايده، وهذا يعنـى أن قانون ثيودوسيوس ٤١٥م قد ظل سارى المفعول إذ أن نمو الإقطاعيـات وتزايدها عن طريق الحماية لم يكن ممكناً فى عهده إلا عن طريـق عقـود زائفة للبيع أو التأجير، ومن ثم فإن جستنيان لم يصدر أية قـوانين خاصـة بالحماية بل ظل يعمل بقانون ٤١٥م.

ثانيـاً : لم يفرض جستنيان ضرائب جديدة غير الضرائب المقررة ولكنه أدخل بعض الإصلاحات التى يكفل بها جباية الضرائب المقررة علـى النحـو التالى:

أولاً : بالنسبة لأنواع الضرائب :

جعل جستنيان الضرائب على نوعين :

ضرائب مباشرة **وأخرى غير مباشرة**

وعلى رأس الضرائب المباشرة تأتى (ضريبة الأرض) وتحصل هـذه الضريبة عينا أى من نفس المحصول أو نوعـاً (تقديرًا) وتقـررت ضـريبة أخرى مباشرة وهى (ضريبة الرأس) وهى ضريبة شخصية، وتقرر تسـجيل

وإثبات دافعو هذه الضريبة حسب الشوارع والدروب التى يقيمون فيها، ويدفع هذه الضريبة أيضاً أرباب الحرف . ويلاحظ من خلال ذلك أن جستنيان أعاد هذه الضريبة بعد أن ألغاها قسطنطين العظيم.

ومن الضرائب غير المباشرة (المكوس الجمركية) التى تفرض على البضائع والمتاجر، التى ترد إلى مصر أو تخرج منها وخاصة وأن حركة التجارة عبر مصر كانت بالغة النشاط، فمن الإسكندرية ومن الموانئ المصرية على بحرالقلزم " البحر الأحمر "، خرج التجار للسعى وراء الحصول على ما تحتاجه بيزنطة من آسيا من مواد الترف والزينة، فاحضروا المر والعطور من اليمن، والتوابل واللؤلؤ من الهند، والحرير من الصين لسد حاجة المصانع الإمبراطورية .وكانت تجارة الحرير قد تعرضت لبعض الاخطار نتيجة للصراع بين الفرس والروم، لذلك حاول جستنيان البحث عن طريق جديد لتجارة الحرير بدلا من الطريق، الذى يمر بالاراضى الفارسية،لذلك عقد معاهدة صداقة مع الاحباش، الذين تولوا نقل الحرير عن طريق البحر القلزم "الاحمر"، وسرعان ما تبين للاحباش ان الفرس يسيطرون على أسواق التجارة فى الهند والصين، فأحجموا عن ذلك.ولكن ما لبثت العلاقات ان تحسنت بين الفرس والروم، وعقد الصلح بينهما فى عام ٥٣٢م وعادت بيزنطة تستورد الحرير عن طريق فارس.

كذلك نشطت حركة التجارة بين الموانئ المصرية وبين ميناء عدول (زيلع) الذى يعتبر من أهم موانئ أثيوبيا، فمن هذا الميناء صارت ترد المتاجر من داخل أفريقية كالزمرد والعاج والذهب وغيرها وصارت السفن المصرية تحمل مقابل هذه المتاجر إلى أهل البلاد اللحوم والملح والحديد والرقيق .

وقامت مصر كذلك بتصدير بعض منتجاتها ومنها القمح بعد أداء ما هو مقرر عليها من ضريبة القمح للقسطنطينية، والبردى والأوانى الفخارية

والمنسوجات الكتانية والصوفية وغيرها، وكانت تصدر من الإسكندرية إلى غرب بحرالروم " المتوسط" .

ويبدو أن الرسوم الجمركية التى فرضتها الحكومة المركزية على السلع والبضائع كانت باهظة، فجاء مرسوم ١٣ ليقرر تخفيض مقدار الضريبة المقررة على المتاجر المصدرة من الإسكندرية، وتحصيل رسوم على السلع التى تصدر من الموانئ المصرية الأخرى، ومنها القلزم ويوتاب (تيران الحالية) بخليج العقبة، وكان يقيم بالقلزم موظف إمبراطورى، هو مراقب حسابات يقوم بجباية الرسوم الجمركية من السفن العابرة، وعلى السلع التى ترد إليها . والدليل على أهمية الرسوم الجمركية أن جستنيان عهد بها إلى أحد الموظفين الكبار، وكان يدعوه للاجتماع بالدوق الأوجستال ومتولى الخزانة العامة، ويطلب منه الاهتمام بما يدفعه الممولون من الضرائب .

ومن الضرائب غير المباشرة أيضًا ما تحمله دافعوا الضرائب من أعباء السخرة، إذ تحتم عليهم أن يقوموا بصيانة الجسور وحفر الترع وتطهيرها، وزراعة الأراضى العامة، ومراقبة توزيع مياه الفيضان فى النيل، وتعرف هذه الضريبة بضريبة الأيام الخمسة، وفى نهايتها يتسلم الفلاح إيصالاً بأنه أدى هذه الضريبة . ومن الضرائب الأخرى رسوم البلدية وتقررت على المدن والقرى لسد النفقات المحلية، إلى جانب الالتزام بتزويد الجيش بالمؤن(الميرة الحربية).

ثانياً : بالنسبة لتقدير الضرائب :

حدد جستنيان فى قانون ١٣ الوسائل التى يتم بمقتضاها تقدير الضرائب وهى : أن يبعث والى الشرق من قبله فى كل عام فى شهر يوليه وأكتوبر مندوبين مفوضين إلى حكام الأقاليم، ويوضح لهم ما ينبغى تحصيله من كل وحدة ضريبة من الخراج نوعاً أو عيناً، وما هو مقرر على كل وحدة من

الوحدات من الضريبة كان يجرى وفقـاً للعـرف والعـادة . ويقـوم هـؤلاء المندوبون بشرح الطريقة التى تتبع فى تحصيل الضريبة من سائر الإقليم وكان على حاكم الاقليم ان يحسن استقبالهم ويقدم لهم كافة التسهيلات،ويرسل معهـم فرق من الجند لمساعدتهم، ويتصل هؤلاء المندوبون برؤساء الأبروشيات، الذين يتولون توزيع مقادير الضرائب للباجركات والمدن والقرى باعتبـارهم الحكـام المدنيين للإقليم. وعلى رئيس الابروشية أن يعلن بوصول المندوبين والا دفـع غرامة قدرها عشرة دنانير، وعزله من منصبه وإذا تعرض المندوبين للمقاومة من جانب دافعى الضرائب يدفع ديوانه خمسة دنانير.

جرى تقدير الضرائب بحسب طبيعة الأرض ومساحتها، ودرجة خصوبتها وقوتها الإنتاجية، أو بحسب حالة الإقليم وقدرته الإنتاجية . كذلك جرى التفرقـة عند تقدير الضرائب بين الأرض المهملة (البور) وبين الأراضى التى لا تصلها مياه الفيضان، غير أنه يصح أن تصل إليها المياه بالأدوات الرافعة .

ثالثـــاً : جباية الضرائب :

اهتم جستنيان بما ينبغى أن تسير عليه جباية الضرائب من حيث تقـدير المبالغ المطلوبة من دافعى الضرائب، والوقت المناسب لتأدية هـذه الضـرائب والإيصالات التى يحصلون عليها، وذلك لحرصه على المحافظة على مصـالح الخزانة من جهة، ولحماية سكان الإقليم من جهة أخرى، ولتجنب الأزمة المالية التى تهدد الدولة البيزنطية من جهة ثالثة، ولذلك وضع قانون رقم (١٣) بعض القواعد التى تتبع فى جباية الضرائب ومن بينها :

١ - تجـرى جبـاية الضريبة العقارية النوعية تحت الإشراف المباشـر لوالى الشرق، أو يعهد بجبايتها إلى الـدوقات حسـب مـا تقتضـيه الأحـوال .

٢ – تقسم الضرائب الثابتة إلى قسمين، يرسل القسم الأول منها إلـــى الخزانـــة العامةبالعاصمة القسطنطينية، أما القسم الثانى فيرسل إلى خزانـــة الـــوالى الكبير"الوالى الكبير.

٣ – قرر قانون ١٣ ألا يتدخل الدوق الاوجستال وإدارته فى جبايـــة الضـــريبة التى ترسل إلى خزانة الوالى الكبير، وأن يعهد الوالى بجباية هذه الضريبة إلى عدد من الموظفين يعينهم بمعرفته .

٤ – أما بالنسبة للضرائب النوعية، التى ترسل إلـــى الخزانـــة العامـــة فيعهـــد بجبايتها إلى الدوق وإدارته والجند .

٥ – يتولى رئيس الأبروشية الإشراف على جباية الضرائب المقررة علـــى أبروشية وكذلك يتولى الباجرك الإشراف على جباية الضرائب المقررة على باجركيته، فهو الذى يعطى الإيصالات لدافعى الضـــرائب، وهـــو المسئول عن جباية الضرائب فى باجركيته . وكان فى كـــل باجركيـــة موظفان أحدهما يختص بالضرائب العينية والآخر بالضرائب النقدية .

٦ – يتولى جمع الضرائب فى المدن المصرية ما عدا الإسكندرية نواب البلدية أو حماة المدن الذين يخضعون مباشرة لسلطة الدوق .اماالاسكندرية فكـــان الفندكس يتولى القيام بهذه المهمة.

رابعـــاً : إيداع الضرائب والنفقات العامة :

لم تكن الضرائب المحصلة من الأقـــاليم المصـــرية ترســـل كلهـــا إلـــى القسطنطينية، لتودع فى خزائنها المختلفة، فالمندوبون الذين يرسلهم والى الشرق كل عام إلى ولاة الأقاليم المصرية، ينبغ عليهم أن يبينوا ما يجب إرســـاله مـــن الضرائب إلى الخزانة العامة، وما يرسل منها إلى خزانة والى الشرق وما ينفق

منها بمصر ذاتها، وما هى المبالغ المقررة على كل أبروشية .

أنشأ جستنيان إدارات للحسابات بالأقاليم المختلفة بمصر، وكان يهدف من راء ذلك إلى ضبط الموظفين الذين يميلون إلى القيام بأعمال غير سليمة . كما أصر جستنيان فى قانون ١٣ على ضرورة عمل موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات حتى يتجنب الوسائل التى حاول بها بعض الموظفين زيادة النفقات على الإيرادات، وراعى جستنيان فى ذلك ما كان مألوفًا فى مصر من النفقات، وقرر انشاء إدارة لمراجعة ما يتحصل من الإقليم من الضرائب - فى كل وحدة إدارية تودع الضرائب - وما جرى انفاقه منها .

وكان فى كل مدينة من مدن مصر خزانة، يودع بها ما يتحصل من الضرائب، ويتولى إدارة الحسابات بها موظف، وتولى أمر الجباية فى كل أبروشية موظفان أحدهما متولى الخزانة والثانى يتكفل باستلام ما يتحصل من الضرائب .

وكان للدوق إدارة خاصة فى ديوانه تودع بها الضرائب المحصلة، وكان عليه أن يؤدى ما يتحصل من الضرائب فى دوقيته إلى الموظف الذى يرسله متول الخزانة العامة بالقسطنطينية إلى مصر . والراجح أن الخزانة العامة بالعاصمة القسطنطينية لم ترسل إلا مندوبًا واحدًا لكل القطر المصرى، وذلك لأن الضرائب التى تحصل من سائر الدوقيات لابد من إرسالها أول الأمر إلى الإسكندرية، ومنها إلى القسطنطينية، وكان الدوق هو المسئول عن التصرف فى النفقات والمصروفات فى دوقيته، فيتحمل هو وديوانه المسئولية فى تنظيم صرف الأموال فى النواحى المقررة .

النفقات

وكانت نفقات الدوقية على ثلاث أنواع : نفقات حربية وتشمل رواتب

الجند، شراء اسلحة ومعدات ومؤن للجيش،وبناء الحصون والاستحكامات . ونفقات مدنية ثم النفقات العامة، وتشمل المدنية مرتبات موظفى البلدية، والانفاق على الخدمات العامة كالبريد والمدارس والحمامات وألعاب السيرك. وينظم النفقات المدنية مندوبو جباية الضرائب الذين يتولون فى الوقت نفسه التصرف فى هذه النفقات، فيتسلم الموظفون رواتبهم من الجباة . وفى القرية كان جانب من الضرائب ينفق لسد الحاجات المحلية للقرية، وما يتبقى يرسل إلى خزانة الباجرك أو رئيس الأبروشية فى حالة التمتع بحق الجباية الذاتية .

العقوبات المتعلقة بالإدارة المالية :

أصبح الموظفون فى الدولة – بفضل اصلاحات جستنيان واستتباب الأمن – يعملون لصالحها فى أمانة كبيرة، وأصبح الإمبراطور يثق فى موظفيه بدرجة كبيرة، ولكن جستنيان وضع فى اعتباره من ناحية أخرى أن هؤلاء الموظفين سوف لا يغفلون مصلحتهم الخاصة، ولذلك فرض جستنيان غرامات مالية وعقوبات على المخالفين من بينها الطرد من وظائفهم فضلاً عن مصادرة أملاكهم . ومن أمثلة ذلك ما يلى :

إذا لم يتم إرسال مندوبي والى الشرق فى الميعاد المحدد من كل عام، يلتزم مستخدمو خزانة الوالى بدفع غرامة قدرها ثلاثون دينارًا ذهبيًا، وإذا لم يعلن رئيس الأبروشية خبر قدوم المندوبين تحتم عليه أن يدفع عشرة دنانير ذهبية، وتقرر عزله، وأن يدفع ديوانه خمسة دنانير ذهبية وإذا تعرض مندوبو والى الشرق للمقاومة من قبل دافعي الضرائب، تحتم على الدوق الأوجستال وموظفى ديوانه من عسكريين ومدنيين، أن يبادروا باستخدام الشدة ضد المعارضين، حتى لا يتعرضوا للعزل ودفع الغرامات، وقد يصل العقاب إلى حد المصادرة وقد يصل إلى التعذيب حتى الموت .

والزم جستنيان الموظفين الكنسيين والمدنيين بعدم منح دافعى الضـــرائب خطابات بالإعفاء إلا فى الحالات التى تقرها القوانين الإمبراطورية، فإذا اتهـم بطريرك الإسكندرية بأنه أظهر الضعف حيال المدينين لبيت المال، تحتم علـــى موظفى الكنيسة أن يدفعوا تعويضًا لما أصاب الحكومة من الضرر، فـإذا لـم يتوفر لديهم المال اللازم، تقرر الحصول على التعويض الـلازم مـن خزانـة الكنيسة .

وتعرض الدوق الأوجستال والقادة العسكريين فى حالة الأهمـــال للعـزل والغرامة، ويظلوا مدينين للحكومة حتى بعد وفاتهم، فيتعهد ورثـتهم بسـدادها بضمان أملاكهم .

ولم يسلم دافعو الضرائب من العقوبات، إذا امتنعوا عن تأديـة المقـرر عليهم من الضرائب، فإذا قاوموا مندوبى والى الشرق تقرر مصادرتهم ونفـيهم من مصر، فإذا تمادوا فى إثارة الفتن والقلاقل تقرر مصادرة أملاكهم ونفيهم إلى شواطئ البحر الأسود .

ولم يتردد كثير من دافعى الضرائب فى هجر أراضيهم تهربًا من تأديـة الضرائب والتكاليف المطلوبة منهم، ولمنعهم من ذلك أجـاز جسـتنيان للـدوق الأوجستال أن يتتبعهم ويبحث عنهم حتى فى الأقاليم التى لا تدخل فـى نطـاق ولايته، وهكذا حرص جستنيان على أن يستخلص الضرائب كاملة .

ضريبة القمح :

من الأعباء التى كانت مفروضة على مصر ما يعرف باسم الميرة المدنية أو الشحنة السعيدة، وهى عبارة عن القمح الذى يرسل من مصر إلـى القسـطنطينية لإطعام أهلها وكان جزء من هذا القمح يرسل إلى الإسكندرية لإطعام شعبها أيضًـا. فقد كان لمدينة الاسكندرية ضريبة قمح خاصة بها توزع على أهلهـا، منـذ عهـد

دقلديانوس وذلك تميزًا لها، وكانت هذه الضريبة تزداد دائماً فى عهد من تبعه من أباطرة، حتى وصلت فى عهد جستنيان إلى ما يعادل ٨٠٠٠ رغيف، ولم تتوقف هذه الضريبة إلا أثناء الاضطرابات التى أثارها أهالى المدينة عام ٥٤١م لطرد أحد الأساقفة.

اهتم جستنيان اهتماماً خاصاً بإدارة الميرة لأنه من المعروف أن أى تأخير فى تسليم القمح، وأى نقص فى الكمية المطلوبة إنما يؤدى إلى إثارة حوادث الشغب والاضطراب فى كل من القسطنطينية والإسكندرية . فقد كان يوزع فى القسطنطينية يومياً ٨٠ ألف رغيف، وهى تحتاج إلى ألفين أردب قمح يومياً، لذلك كان أى تأخير فى وصول تلك الشحنة إلى القسطنطينية يؤدى إلى أحداث ثورة فى المدينة، مثلما حدث فى عام ٤٠٨م حين عجز والى مصر عن إيجاد السفن اللازمة لشحن القمح، فحدثت مجاعة فى القسطنطينية، وقام العامة فى المدينة بإحراق منزل والى القسطنطينية . أما بالنسبة للاسكندرية فيذكر المؤرخ يوحنا النقيوسى أن ثلاثة أخوة قاموا بثورة قرب الاسكندرية، وهاجموا مدينة بوصير، وأحرقوا السفن التى تحمل القمح إلى مدينة الاسكندرية، وحدثت مجاعة، وثأر أهل الاسكندرية على والى المدينة يوحنا، وأرادوا قتله، وتدخل الإمبراطور ، وعين والياً آخر وهو بولس، وعاد يوحنا إلى الإمبراطور ثانية الذى ما لبث أن أعاده إلى الإسكندرية مرة أخرى، وتم إخماد الثورة. لذلك لجأ جستنيان إلى إعادة تنظيم إدارة الميرة (القمح) واهتم بجباية القمح ونقله من أنحاء مصر، ثم حمله عن طريق النيل إلى الإسكندرية، وشحنه منها إلى القسطنطينية، وليس أدل على أهمية ضريبة القمح عند جستنيان مما تضمنه قانون ١٣ من تفاصيل عن النظم المتعلقة بالقمح، وما اشتمل عليه هذا القانون من عقوبات، ينزلها الإمبراطور بكل من يتسبب فى الإهمال .

وفى الفترة بين عامى ٥٨٢- ٦٠٢م قام الإمبراطور البيزنطى موريس

ببيع قمح الانونا مقابل الذهب. كما قام نقيتــاس – حــاكم مصـــر مـــن قبـــل الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) بخفض نسبة هذه الضريبة فى الربـــع الأول من القرن السابع الميلادى.

ويشترك فى توريد القمح كل من مصر الأولى ومصـــر الثانيـــة وطيبـــة وإركاديا واوجستامنيكا ما عدا ليبيا، لأنها لم تنتج القمح بوفرة مثلما تجــود بـــه مصر . وتوزع ضريبة القمح على أساس مساحة الأرض ودرجة خصـــوبتها . وفى السنوات التى يخيب فيها محصول القمح فى مصر، وضــــع الإمبراطـــور نظام خاصا، يحصل بمقتضاه على ما تحتاجه البلاد من قمح تراقيـــا وبيثينيـــا وفريجيا . أما إذا زاد ما يرد من قمح مصر عن حاجة الســكان، لجـــأ والـــى الشـــــرق إلى أن يخزن فى الشـــــون الإمبراطورية الكميات الزائـــدة مـــن القمح، ثم يلزم أهل الإقليم بشراء هذه الزيادة بأثمان مرتفعة. ومر نقل القمح الى القسطنطينية بثلاث مراحل هى:**الأولى** : نقل القمح من الحقول إلـــى الأجـــران العامة (الشون) ليتم درسه وذره وغربلته وتعبئته فى أجواله، ثم ينقل من الشون المحلية إلى سفن الشحن الراسية على أقرب ميناء لها علـــى النيـــل باســـتخدام الدواب، فقد كان يحدد لكل أقليم ميناء معين. **المرحلة الثانية** : ويتم فيهـــا نقـــل القمح عبر النهر من الاهراءالخاصة بالاقليم الى الاهراء الخاصة بالاســـكندرية تمهيدا لشحنه الى القسطنطينية . **المرحلة الثالثة** : ويتم فيها نقل القمح بعد ذلك بواسطة الاسطول البحرى الى العاصمة البيزنطية عبر بحـــر الـــروم (البحـــر المتوسط).

ويراعى عند تحميل القمح على ظهر المراكب النيلية أن يقوم ربان كـــل مركب أو سفينة بتسلم الكمية المنوط بنقلها من جباة الضرائب مقابل إيصال يفيد تسلمه الكمية المذكورة بعد قيامه بتكييلها بالمكيال الحكومى، والتأكد من سلامتها وخلوها من الغشوش، ويتعهد بنقلها وتسليمها كاملة غير منقوصـــة إلـــى إدارة

الشون المركزية سواء فى الإسكندرية أو فى القسطنطينية. وكان يراعى أيضاً لضمان وصول السفن سليمة وعدم تعرضها لقطاع الطرق، أن يصاحبها طاقم حراسة، وأحد مشرفى النقل منعاً لتسرب القمح سراً أثناء النقل، والتأكد من سلامة الكمية من الغش عند تسليمها.

وكانت جباية القمح تجرى وفقاً لشروط من بينها، التأكد من جودة صنف القمح، وخلوه عند استلامه من الفلاحين من الغشوش، وأن يكون مغربلاً خالصاً من الفصالة وحصى الأرض، وغير مخلوط بحبوب أخرى رخيصة كالشعير وخلافه. وينبغى أن تتم جباية القمح فى سرعة بالغة فى سائر أنحاء مصر، حتى يتيسر على قوافل السفن أن تنقلها إلى الإسكندرية . على أن ما يتم جمعه من القمح من القرى والمدن بمصر لا يشحن كله إلى الإسكندرية، بل أن شطرًا من هذا القمح يبقى بالإقليم، أما لدفع المرتبات العينية للموظفين المحليين، وأما للوفاء بما يمنحه الإمبراطور من الإعانات سنوياً للأديرة والكنائس، وكانت كنيسة الإسكندرية من الكنائس التى أفادت من الميرة المدنية.

تحمل الدوق الأوجستال لمصر مسئولية ثقيلة، إذ كان عليه أن يبادر إلى إعداد الأسطول اللازم لنقل (الشحنة السعيدة) إلى القسطنطينية بعد أن تتجمع فى الإسكندرية حوالى منتصف سبتمبر، وذلك حتى لا تتعرض لأى تأخير بسبب خطأ ينسب إليه أو إلى إدارته . ونظرًا لأن دوق مصر كان المسئول الأول عن انتظام وصول شحن القمح إلى القسطنطينية فقد صار له ولإدارته مكانة تعلو مكانة سائر الدوقات . ويوضح قانون (١٣) أن دوق مصر كان يهتم اهتماماً كبيرًا بأن يرى خيرات مصر تتجمع وترسل فى شكل ضريبة القمح إلى القسطنطينية لإطعام أهلها .

وتحمل مسئولية نقل القمح إلى القسطنطينية إلى جانب الدوق الأوجستال بحارة الإسكندرية، فقد ظل هؤلاء يتعهدون إعداد أسطول الميرة وتسييره مقابل

امتيازات خاصة، ولم يشر قانون ١٣ إلى الأساطيل العامة، فلــم تكــن هيئــة البحارة فيما يبدو سوى طائفة صغيرة من أرباب السفن، دفعت لهــم الحكومــة أجرًا معتدلاً، وخضعت سفنهم باستمرار لأوامر الحكومة، إذ تحــتم علــيهم أن يحملوا كل سنة قمح الميرة إلى العاصمة الإمبراطورية .

وهكذا تحمل مسئولية شحن القمح إلى القسطنطينية عدد مــن المــوظفين بدايــــة من والى الإسكندرية وحكام الإقليم وانتهاء بمســئولى الإهــراء (أى المخازن) والجباة والملاحظين ونقابات النقل المختلفة مثل نقابة أصحاب السفن والملاحين والبحارة، ورابطه أصحاب دواب الحمل أو النقل .

التنظيمات الحربية

تألفت القوى العسكرية فى القرن الرابع من فئتين رئيسيتين هما :

الجيش النظامى .. وجيش الأطراف أو الحدود ...

ويعرف الجيش النظامى باسم Comitateneses ويصاحب الإمبراطور فى كل تحركاته ويتولى الإمبراطور قيادته فى جميع الحـروب الهامـة، ويتـألف الجيش النظامى من الفرسان والمشاة معًا . وأضيفت إلى الجيش النظامى فـى أواخر القرن الرابع قوتين آخريتين ثم أضيف إليـه جماعـات مـن المشـاة عرفت باسم (القوات المساعدة Auxilia) وجند هؤلاء من غاله ومن الفرنجـة وسائر البرابرة الجرمان . وكان الجيش النظامى هذا أعلى مكانـة مـن جنـد الأطراف المرابطين على حدود الإمبراطورية .

أما جيش الأطراف أو الحدود Limitanei فكما هو وضح من أسمه يرابط على أطراف الإمبراطورية وحدودها وفى وقت السلم يقوم جنود هـذا الجـيش بزراعة الأرض الواقعة على امتداد الأطراف الإمبراطورية، ويحصلون عليهـا كنوع من الإقطاع الحربى، ويتوارثها أبناؤهم عند دخولهم الخدمة الحربية .

وإلى جانب الجيش النظامى وجيش الأطراف، نشأت فئات جديدة تعـرف باسم قوات الحرس الإمبراطورى، فمنذ عهود الإمبراطورية الأولـى، ويحـيط بالإمبراطور حرس من المقربين، وتكون هذا الحرس فى بـادئ الأمـر مـن البرابرة الجرمان، ثم اشتمل على الجرمان والرومان من مختلف الطبقات العليا والدنيا . ثم أضاف دقلديانوس إليها فئة جديدة تألف جزء منهـا مـن الفرسـان والجزء الآخر من المشاة (وهى القوة المختارة) واستخدمت هذه الفئة الجديـدة فى تدريب القادة، والتحق بها أبناء وأفراد من مختلـف الطبقـات مـن أبنـاء الأسرات الشريفة والموسرة، واتخذت اسم « خواص الإمبراطـور » ويـرابط

أفراد هذه الفئة بالقصر الإمبراطورى، عهد إليهم الإمبراطور إحيانًا بأداء أعمال خارج العاصمة، وتمتع أفراد هذه الفئة بمكانة خاصة، وذلك بما صار لهم من امتيازات وأجور خاصة .

ظلت الفرق الرومانية حتى أوائل القرن الثالث الميلادى تتألف من المواطنين الرومان، حتى تقرر منح حق المواطنة لكل سكان الولايات الرومانية. ومنذ ذلك الحين لم تعد الفرق الرومانية من المشاة والفرسان لها مكانة ممتازة، بل آلت هذه المكانة إلى القوات المساعدة والتى كانت تتألف من المتبربرين .

ففى القرن الرابع جرى التخلى عن المبدأ الذى يفرض الخدمة العسكرية على المواطنين الرومان، فلا يجوز إرغام أحد من الرعايا الرومان على الخدمة العسكرية، إلا فى حالة واحدة وهى الدفاع عن مدينة عند تعرضها للخطر، وتقرر كذلك إلغاء المبدأ الذى يقضى باستبعاد الأجانب من الخدمة، هذا فى حين ظل المبدأ الذى يقضى بألا يدخل الجيش إلا الأحرار باقيًا، وأن لم يتم تطبيقه .

ولم يأت القرن الخامس الميلادى إلا وأصبح المجندون ينتمون إلى أربع فئات هى :

١ – عدد كبير من المغامرين الرومان أو الأجانب، يتقدمون من تلقاء أنفسهم للقائد المكلف بتجنيد العساكر .

٢ – فئة من المجندين يجمعهم كبار الملاك من بين فلاحيهم ويتقدمون بهم إلى قائد التجنيد، ويعتبر ذلك من الإلتزامات المقررة على الضياع فى بعض الولايات .

٣ – أبناء الجنود المسرحين وأبناء الجنود الذين لا يزالون تحت السلاح، فقد تم

فرض التجنيد الإجبارى بالميراث أى أن ابن الجندى يجند .

٤ – المعاهدون أو المحالفون، وهم القبائل الجرمانية التى استقرت على أطراف الإمبراطورية الرومانية، وارتبطوا معها بمعاهدات تحالف معينة، إلتزاموا بمقتضاها بأن يدافعوا عن أنفسهم وعن الإمبراطوريـــة، ضـــد أى عـــدو خارجى، وذلك لقاء الحصول على حماية الإمبرطوريـــة، والإعفـــاء مـــن الأتاوة المقررة .

وفى القرن السادس برزت قوة أخرى من المحاربين لعبـــت دورًا هامًـــا، وعرفت باسم (البقلار أى الاتباع) وتعتبر هذه الفئة حرسًا خاصًا بكبار القـــادة أو كبار المدنيين، وتوقف عدد الاتباع على ثروة السيد الذى يقوم بتأليف حرسًا خاصًا له، واتخذ صغار القادة أيضًا حرسًا مسلحين .

جيش مصر :

أما بالنسبة لمصر، فنظرًا لأهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية مـــن حيث كونها مستودعًا للغلال والأموال، ونزوع أهلها إلى مقاومة الإمبراطورية، واشتداد الحاجة إلى حفظ الأمن بها، فقد تطلب الأمر إقامة حامية عسكرة قويـــة بها، ولذلك وضع أغسطس فى مصر مالا يقل عن ثلاث فرق رومانية فضـــلاً عن القوات المساعدة المسلحة بها، ثم سحبت إحدى هذه الفرق فى عهد خليفتـــه تيبريوس، بعد أن ظهر أن الحاجة ليست ماسة إلى هذا الجيش الضخم، نظـــرًا لسهولة الدفاع عن مصر .

ولم يختلف الجـــيش الإقليمـــى فـــى تكوينـــه عـــن الجـــيش الأساســـى للإمبراطورية إذ كان يتكون كذلك مـــن ثـــلاث فئـــات أساســـية فضـــلاً عـــن الاتباع، هذه الفئات الثلاث هـــى (الجـــيش النظـــامى) يعتبـــر أفـــراده مـــن خيرة الجند، ويجرى تجنيدهم عن طريـــق الإلـــزام أو التطـــوع أو بالوراثـــة. أما الفئة الثانية فهى المعروفة (بجـــيش الأطـــراف) أو حـــرس الحـــدود :

Limitanei يطلق عليهم اسم الليميتـــانى أى قـــوات الحـــدود، ويطلـــق علـــيهم أيضا اسم (المرابطون فى القلاع) إذ كـــانوا يرابطـــون علـــى امتـــداد حـــدود مصر الشرقية والغربية والجنوبيـــة فـــى قـــلاع متقاربـــة. وحصـــل هـــؤلاء على أرض الحدود مقابل الوفاء بالتزامـــاتهم العســـكرية، وكـــانوا يحصـــلون على الأرض لـــذلك كانـــت الخدمـــة العســـكرية هنـــا وراثيـــة، إذ أن جنـــد الأطراف كانوا يخدمون فى الجهات التى ينزلـــون بهـــا، ويجـــرى تجنيـــدهم بانتظام. وكان كل مجند جديد يسجل اسمه فى ســـجل الوحـــدة، التـــى تعمـــل بها بناء على أمر الدوق، ويخصص جـــزء مـــنهم فقـــط للقيـــام بالتـــدريبات العسكرية. أما الباقون فيعملون بالزراعة.

أما عن واجبـــات حـــرس الحـــدود فهـــى حمايـــة الحـــدود، حراســـة الطرق، مراقبة القبائل المتمردة، منع رعايا الامبراطـــور مـــن الهـــرب إلـــى بلاد البربر إلا بعد الحصول على أذن الدوق.

وقد حرص جستنيان على توفير الأمـــن والســـلام علـــى حـــدوده مـــع ليبيا فأنشأ فرقة جديدة من الجند عرفت باسم (فرقـــة ليبيـــا الجســـتنيانية) كمـــا عمر الأسوار هناك، وشـــيد المـــدن والحصـــون. كـــذلك اهـــتم البيزنطيـــون بصيانة استحكامات جزيرة فيلة وقلعتهـــا، التـــى كـــان يـــرابط فيهـــا حاميـــة عسكرية من أجل حماية الحد الجنوبى لمصـــر مـــن خطـــر النـــوبيين، هـــذا فضلاً عن اهتمام البيزنطيين بحماية حدود مصر الشرقية.

أمـــا الفئـــة الثالثـــة مـــن الجـــيش فهـــى (المعاهـــدون والمحـــالفون Foedrati) فكان بمصر فئة مـــن المعاهـــدين، وكـــان مـــن العســـير التعـــرف على الدور الذى قام به هـــؤلاء فـــى مصـــر. أمـــا المحـــالفون (الســـماخوى) الذين يمثلـــون الشـــعوب أو الأقـــوام المجـــاورة للإمبراطوريـــة، وتعهـــدوا بمقتضى المعاهدات أن يقدمـــوا للدولة عـــدد معـــين مـــن الجنـــد للاشـــتراك

فى الحروب ويتولى قيادتهـم جماعة منهم . وكـان يمثـل هـؤلاء (النوبـاد) على الطرف الجنوبى لمصر، وظل الأباطرة البيزنطيـون يـدفعون لهـم مـا قرره دقلديانوس لهم من الإعانـات حتـى يخلـدوا إلـى الهـدوء والسـلام، وليدافعوا عن الحدود الجنوبية لإقليم طيبـة ضـد غيـرهم مـن المتبربـرين خاصة وأنهم كانوا شديدى المـراس. ومـن حلفـاء الدولـة البيزنطيـة فـى غرب مصر، قبائـل البـدو المعروفـة باسـم (المازيـك Maziques)، وقـد أفادت الدولة كثيرًا من مساعدتهم الحربية. وعلـى الحـدود الغربيـة لمصـر مع ليبيا كانت هناك قبيلـة (الماكـاى) وارتبطـت مـع البيـزنطيين باتفـاق صلح منحهم بعض التسهيلات التجارية.

أما الاتباع أو البقلار(*) فهم من الجند المأجورين ومن ثم فهم يتـألفون مـن أجناس عدة، ويتكونون من فريقين فريق ينتمى إلى كبار مـوظفى الإمبراطوريـة كدوقات الأقاليم وقادة الجيش، وفريق آخر يتألف من جند خاص لبعض الأفراد، ولم يكن لهؤلاء صلة بالجيش ألا فى حالة أذ ما عرض سيد هؤلاء الأفراد خدماتهم على الدولة نظير أجر خاص، فيسهمون بذلك فى الدفاع عن الإمبراطورية .

ومن الجدير بالذكر أن الفئات السابقة التى يتكون منها الجـيش الإقليمـى كانت ممثلة فى الجيش البيزنطى المرابط بمصر إذ حرصت الحكومة المركزية بالقسطنطينية على أن يكون لها بالقطر المصرى جيش قوى التنظيم، هذا إلـى جانب وجود جيش لبيزنطه فى مصر .... لحفظ الأمن بهـا والقضـاء علـى اغارات المغرين عليها، وجباية الضـرائب والقضـاء علـى المنازعـات والثورات التى نتجت عن الخلافات الدينية .

(*) البقلار نوع من الخبز المجفف بالإضافة إلى لوازمهم الأخرى مع جزء من الغنيمة أيضاً ويحصلون على ذلك ممن يعملون لهم كحرس خاص سواء أن كانوا أشخاص عـاديين أم قادة أم ضباط أم سادة.

وفى القرن السادس لم يختلف تكوين الجيش فى الولايات البيزنطية ومنها مصر عن الجيش الرئيسى للدولة من حيث الفئات الأربع التى سبق الحديث عنها، وظل هذا التنظيم معروفاً فى مصر زمن جستنيان، غير أن الجند أصبحوا من المصريين، بعد ان كانوا يتخذون من سكان الأقاليم الأخرى فكان كل مالك مكلفاً بتقديم عدد من الأفراد يتفق مع مساحة ما يملكه من الأراضى وحسب ثروته . ويتضح من ذلك أن معظم عسكر الجيش البيزنطى فى مصر فى عهد جستنيان كانوا من المصريين سواء فى الجيش النظامى أو جيش الأطراف والحدود . ويجند هؤلاء عن طريق التجنيد الاجبارى أو بالتطوع والإلتزام المفروض على أبناء المقاتلين أو الجند المسرحين، ولم يكن بالجيش البيزنطى بمصر من الجند المتبربرين إلا قلة نادرة، ولم يكن بمصر من الجند المرتزقة إلا بعض كتائب ألفها جستنيان من العناصر الأجنبية .

تراوح عدد الجيش البيزنطى فى مصر بين ٢٥ و ٣٠ ألف جندى، انتظموا فى وحدات، يتراوح عدد الوحدة منها بين ٣٠٠ - ٥٠٠ جندى، ويتولى قيادة كل وحدة قائد عرف باسم (التربيون Tribun) وتشمل الوحدة على جميع فئات الجيش من فرسان وخيالة ومشاة.

وكان الجندى البيزنطى يتقاضى نوعين من المرتبات، راتب نقدى وجراية (مؤنه) وتتولى الحكومة أمداده بالسلاح والكسوة، واشتملت الجراية على القمح والشعير والنبيذ والزيت، وعلوفات الخيل والدواب واللحم والدجاج والسمك المملح، والسروج والماشية والبغال والفحم النباتى فضلاً عن الأموال .

وقد استخدم المقاتل فى مصر نوعين من الأسلحة الأول أسلحة هجومية والثانى أسلحة دفاعية، ومن الأسلحة الهجومية الرمح ومنه الطويل والقصير، والسيف والفأس أو البلطة، كما يطلق عليه البعض، والدبوس وهو آلة من الحديد لها رأس حديدية مربعة أو مستديرة وتستخدم لكسر الدروع واختراق الخوذات

المعدنية التى يرتدها المقاتلون. هذا فضلاً عن الخنجر أو السكين ومنها ما هـو صغير أو منحنى أو مستقيم أو عريض أو مستطيل، كبير القبضة أو صغيرها. وكان القوس أيضاً من الأسلحة الهجومية الرئيسية فى الجـيش فـى العصـر البيزنطى، وقد استخدمه الفرسان والمشاة معاً، وكان للقوس أدوات أخرى ليمكن قضاء الغرض منه، ومنها السهام والكنانة (أى جعبة السهام).

أما عن الأسلحة الدفاعية فيأتى على رأسها القوس يستخدمه المقاتل ليقـى نفسه من الضربات الموجهه إليه بالسهام أو الرمـاح أو السـيوف. والتـروس متنوعة منها البيضاوى والدائرى أو المستدير وغيرها. والدرع وهو فى الأصل ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس فى وقت الحـرب، ومـن أنـواع الـدروع الزردية، والمصفح والرقائقى (الصدرية) والأخير كان السـائد. ويتـألف مـن شرائح صغيرة مستطيلة الشكل بدرجة رئيسية، وقد ربطت معا فى صفوف عن طريق انفاذ الثقوب الجلدية خلال الثقوب التى بها، ثم تشد الصفوف بعضها إلى بعض إلى أعلى. وكانت هناك دروع أخرى لأجزاء معينة من جسم المقاتل منها حاميات السيقان، وحاميات السواعد، وحاميات العنق والوجه والقفازات وأخيراً الأحذية وقامتها حديدية أيضاً. وكانت الخوذة من أهم آلات الدفاع المعدنية تلبس لوقاية الرأس، وتصنع من الحديد، وكان يعلوها عقدة معدنية صغيرة، ويقويهـا إطار من الحديد مع أربطة تدور حولها من الحافة إلى التاج.

على أن النظام الحربى فى مصر ظهـرت عـدم كفايتـه رغـم كـون التحصينات قوية والحدود منيعة وعدد الجيش وفير .

فالجيش فى مصر لم يكن فى جوهره سوى جيش اقليمى، جرى تجنيـده من سكان البلاد، وتولى قيادته أفراد من نفس سكان الأقليم، على أنه لـم يـؤد مهامه العسكرية، وأهمل التدريب والنظام العسكرى، واتخذ أفراده لأنفسهم مهنا مدنية إلى جانب مهنتهم الحربية فصاروا يستثمرون ما يملكـون مـن منـازل

وأراض، هذا فضلاً على أن معظم الجند فى هذا الجيش كانوا من المصـــريين، لذلك كانوا يشاركون مواطنيهم فى كراهية البيزنطيين، ولذلك لم يخلصوا للدولة البيزنطية، ولم يتحمسوا للدفاع عنها أو القتال لصالحها .

ولم يزد الجيش عن كونه قوة للشرطة، اختصت بحفظ ألا من ومســاعدة جباة الضرائب . فمهمة الدوقات الذين تولوا السلطة العسكرية لم تعدو أكثر من جباية الضرائب وارسال القمح إلى الإسكندرية وشحنه منهـا إلــى العاصــمة البيزنطية القسطنطينية، وتنفيذ السياســة الدينيــة التــى اتخـذها الإمبراطــور البيزنطى، ولم يكن الدوقات إلا رؤساء دواوين جهلوا فنون الحرب والقتال وذلك لأن مصر كانت بمأمن من الغارات الخارجية .

كذلك لم يكن الجيش يخضع لقيادة موحدة، فكل دوق يتولى قيــادة الجنــد المرابطين فى دوقيته، وعليه أن يقاتل وحده، ولم يكن له من الصفة ما يجعلــه يطلب المساعدة من الدوقات الآخرين، ومن ثم فقد الجيش روح التعــاون بــين قواته.

وعلى الرغم من الوفرة العددية التى تمتع بها الجيش إلا أنه كــان ســيئ القيادة والتنظيم والتدريب، فاشتهر القادة بالضعف وتفرق الكلمة، وعدم الاتفــاق على خطة موحدة، هذا فضلاً عن المنافسات والمنازعات والأحقــاد الشخصــية التى كانت بينهم . ومما لا شك فيه أن كل هذه العوامل ســاهمت فــى هزيمــة بيزنطة فى مصر .

التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان :

محاكم القضاء العام :

حدث فى القرن السادس الميلادى، ان تحمل مسئولية ادارة القضاء عادة ولاة (حكام) الاقاليم،ومن يخضع لسلطانهم من الموظفين. ولما كــان الــدوقات يقلدون الوظائف المدنية، فأصبحوا يمارسون على هذا الأساس وظيفة القضاء.

وتعتبر محكمة الدوق أهم المحاكم المحلية، وكانت تعقـد جلسـاتها فـي عاصمة الدوقية. ويمارس الدوقات القضاء الجنـائي العـالي ويفصـلون فـي الخصومات التي تقع بين من يخضع لادارتهم، فينظرون مـثلا فـي الـدعاوى المتعلقة بالادارة المالية ويحكمون في القضايا المدنية الهامة، لاسيما تلك التـي يشتبه فيها القادة والجند.

وللدوق مستشار قضائي، رهن اشارته، وارتبط بمحكمة الدوق محـامون وفي وسع المتقاضين أن يلجأوا في بعض الحالات الى نائب عنه ينتدبـه لهـم الدوق، على الرغم من ان استخدام هذا النائب لم يكن مشروعا (الا في بعـض الاحوال الاستثنائية). ولكن هل بعث الدوق بهولاء النواب الى المـدن الواقعـة بدوقيته أم اقاموا مكانه وفي مجلسه بالمحكمة المنعقدة في عاصمة الدوقيـة ؟ . الحقيقة اننا لانستطيع ان نجزم بما جرى في الحالتين، ويلاحظ ان الدوق كـان يرسل مندوبا عنه الى سائر المدن والباجركات بالدوقيـة وهـذا لا يتعـارض بطبيعة الحال مع حقيقة أن الباجرك كان يقيم في كل من هذه المدن التي يتوجه اليها مندوب الدوق، وان صلاحية الباجرك للنظر في القضايا لا تتعارض مـع صلاحية مندوب الدوق. ولعل الباجرك ومندوب الدوق هما اللذان يتوليان تنفيـذ الاحكام الصادرة من محكمة الدوق، بين المتخاصمين الذين يقيمون في دائـرة الباجركية.

ونظرا لانه صار في يد الدوق من السلطات المدنية ما اختص به رئيس الابروشية، فاصبح بذلك كبير القضاة في اقليمه، وفقد رئيس الابروشية كل ماله من الامتيازات المتعلقة بالقضاء،اذ لم يعد حقيقة سوى مرءوس للدوق.

ولم يكن ثم محكمة متوسطة بين محكمة الدوق، التي تنعقد في عاصـمة الدوقية والتي كان للدوق فيها مباشرة القضاء الجنائي العـالي بالاضـافة الـى القضاء المدني، وبين محاكم الباجركية وحماة المدن، الذين لم يكن لهم من ولاية القضاء الجنائي آلا النظر في القضايا الجنائية الصغيرة، وبعض القضايا المدنية.

ومن ثم قام بالباجركية محكمة الباجرك، وتدل النصوص على أن الباجرك لـم يمارس من الوظائف القضائية الا وظيفة قاضى المصالحات فينظر فى عقـود الضمان وفى الشكاوى، فيرد الحقوق الى أصحابها . وكان حامى المدينة ينظر فى قضايا المعاملات المالية التى تتجاوز قيمتها ٣٥٠ صولدا ذهبيا، على حـين انه لم يكن ينظر قبل صدور الملحق ١٥ من قانون ١٣الا فى القضايا الصغيرة التى لم تتجاوز قيمتها ٥٠ صولدا ذهبيا .

وفى القرى يباشر رجال الشرطة المحلية Riparii السلطة القضائية فى بعض الامور، فيتسلمون من سكان القرى الشكاوى، ويبـادرون الـى فحـص موضوع الشكوى ويجوز لهم بعد فحص الشكوى، ان يلزموا المتهمين باصلاح ما افسدوه، أو ما انزلوا به الاذى والضرر، فاذا امتنعوا عن تنفيذ ذلك بعثـوا بهؤلاء المتهمين الى الباجركية، فيتولى الباجرك محـاكمتهم حتـى اذا مثـل المتهمون امام المحكمة اصبحت مهمة رجال الشرطة قاصرة علـى مـراقبتهم، والحرص على الا يختفوا قبيل المحاكمة. وفى المنازعات البسـيطة، يجـرى الاتفاق بين المتخاصمين على ان يحتكموا الى اشخاص يختارونهم من شـيوخ القرية.

والى جانب المحاكم القائمة بالبلاد، صار لسكان مصـر الحـق فـى ان يرفعوا مباشرة امورهم وقضاياهم الى محكمـة الامبراطـور بالقسـطنطينية . فالمعروف ان المتخاصمين جاز لهم بمقتضى الاجراء المعروف بالالتماس، ان يرفعوا شكواهم رأسا الى محكمة الامبراطور فى صورة ملتمس، فيصدر الحكم فى هذه الحالة فى صورة أمر واجب التنفيذ .

محاكم القضاء الخاص

أما القضاء الخاص الذى يتمثل فى المحاكم العسكرية والمحاكم الكنسـية، فكان ايضا معروفا فى القرن السادس . على انه فى الواقـع، اخـتلط القضـاء العسكرى بالقضاء المدنى فى محكمة الدوق، غير ان الامر لم يكن كـذلك فـى

الاحوال الاخرى، اذ قامت محاكم عسكرية خالصة تألفت من ضباط، تنظر فيما يرفع اليها من القضايا التى يكون الجند فيها احد الطرفين المتخاصمين .

اما القضاء الكنسى، فأنه نشأ منذ زمن الامبراطور قسطنطين الكبير . للمتخاصمين فى الامور المدنية ان يلجأوا باختيارهم ايضا الى تحكيم الاسقف، حتى اصبحت اعباء القضاء والمحاكم تثقل كاهل الاسقف . وما اصدره الاسقف فى مجلسه من الاحكام، جرى الاعتراف بها قانونا .ويخضع رجال الدين ايضا للقضاء الكنسى، فلا ينبغى مطلقا لاحد رجال الدين ان يمثل امام محكمة مدنية الا فى حالة اذا كانت الدعوى فيها جنائية، غير ان ما يصدره الاسقف من احكام، يتولى تنفيذها بالنيابة عن القاضى اذا وافق على ذلك الطرفان . وفى زمن هرقل " ٦١٠-٦٤١م" ازداد ما لرجال الدين من حصانة من الناحية القضائية، اذ صار للاسقف الحق فى تنفيذ الاحكام . يضاف الى ذلك ما جرى فى كل القضايا المتعلقة بأحد رجال الكنيسة، انه لا يجوز للمتهم ان يلجأ الى القضاء المدنى، بعد ان اعتبرته الكنيسة الاسقفية مذنبا .

الاستئناف :.

كان للمتقاضين الحق فى استئناف الاحكام الصادرة من محكمة ادنى الى محكمة اعلى، فاحكام الباجرك وحامى المدينة كان من الممكن اســتئنافها أمــام محكمة حاكم الدوقية. وكانت الاحكام التى يصدرها حكام الدوقيات تستأنف أمام محكمة والى الشرق أو أمام محكمة الامبراطور فى القسطنطينية خاصة اذا مــا تجاوزت الدعوة سبعمائة صولدا ذهبيا. ويجوز للمتخاصمين أيضا أن يرفعــوا أحكام القضاء، الى محكمة الاسقف، وذلك الى جانب ما كان لهم من الحق فى رفع هذه الأحكام إلى محكمة الامبراطور .

وقد ادخل الامبراطور جستنيان تعديلات جديدة فى نظام القضــاء، اكثرها تتعلق او ترتبط بالاستئناف بالولاية القضائية ذاتها وذلك وفقــا لقــانون ١٣الصادر فى سنة ٥٣٨م أو فى ٥٣٩ م، ملحق رقم ٣٢ ودفعه الى ذلك مــا

يلى:-

١) بعد المسافة بين مصر والقسطنطينية أو بين قرى مصر ومدنها وعاصمتها مما يجعل المتقاضين مضطرين لان يسيروا مسافات طويلة،وان يتعرضوا لتكاليف باهظة.وان يدفعوا من النفقات ما يجعل مصاريف الدعوى فى بعض الاحيان تبتلع المبلغ المتنازع عليه، وقد تفوقه.

٢) عدم وجود محكمة استئناف وسط بين محكمة الدوق وبين محكمة الوالى الكبير بالقسطنطينية أو والى الشرق، أو بين محكمة الدوق ومحكمة الباجرك أو حامى المدينة.

٣) ازدحام العاصمة بفئات من المتقاضين فى قضايا قد تكون تافهة.

٤) اضطرار المتقاضين اذا كانوا من المزارعين الى ان يتركوا زراعتهم تتعرض للاهمال مدة طويلة انتظارا للحكم فى قضاياهم.،مما يؤثر على الزراعة والاقتصاد وبالتالى يؤثر على ضريبة القمح،التى تذهب الى العاصمة البيزنطية.

٥) شعور المتقاضين بالقلق والاضطراب نتيجة لانشغالهم بقضاياهم حتى ولو كانت تافهة أو ضئيلة الاهمية.

ولذا قرر جستنيان انشاء محاكم الاستئناف وهى محاكم متوسطة، بين محكمة والى الشرق فى بيزنطة، وبين محاكم الدوقات، وهذا الاصلاح جرى تطبيقه بمصر فى سنة ٥٣٩م فجعل جستنيان، لاوجستال الاسكندرية عاصمة دوقية مصر ان يفصل نهائيا فى كل القضايا التى لا تزيد قيمة الدعوى فيها على خمسمائة صولدا ذهبيا، فلا يجوز استئناف القضايا التى من هذا القبيل، او الالتجاء بها الى سلطة اخرى .

على ان هذه الصفة التى للاوجستال، فيما يتعلق بالقضاء فى مصر، لم تلبث ان تعرضت للتغيير، حينما فقد الاوجستال مكانته على انه نائب الامبراطور فى مصر، وصار مجرد حاكم مدنى وعسكرى لدوقية من الدوقيات.

والواقع انه اصبح يجوز الاستئناف الى الاوجستال دون الرجوع الى اية هيئة اخرى، فى كل الدعاوى التى لا تزيد قيمتها عن خمسمائة صولد.

واتخذ الامبراطور جستنيان بعض الاجراءات التى من شأنها أن تجعل القضاء نزيها خاصة بعد أن أصبح القضاء سلعة يجرى بيعها لمن يدفع أعلى الاثمان . هذا فضلا عن أن بطء اجراءات القضايا لم يكن النقيصة الوحيدة التى شاعت فى القرن السادس . فما اتصف به القضاة من الفساد والاستخفاف بواجباتهم، وما غلب عليهم من الجشع والشراهة فى جمع المال، تطلب ايضا ما اورده جستنيان من الاصلاحات . فما اورده جستنيان من نصوص تتعلق بما ينبغى على الموظفين فى انحاء الامبراطورية ان يتبعوه من احكام، عند مباشرة القضاء، جرى حتما تطبيقها فى مصر، حيث كان القضاء يعتبر سلعة يجرى بيعها، مثلما حدث فى سائر الاقاليم لمن يدفع أعلى الاثمان .

الشرطة :

يعتبر الدوق فى إقليمه رئيس الشرطة، لأنه يقوم بمساعدة الجند على حفظ الامن العام، ويكفل انتظام جباية الضرائب، بما يبذله لعمال الخراج من المساعدة بالقوة العسكرية . ويؤدى رئيس الابروشية فى اقليمه مهمة قائد الشرطة فيصدر من ديوانه أوامر القبض والاعتقال، وفى اقليمه سجن يلقى فيه من يعيث فسادا، او يرتكب جرما .

وتضمن قانون ١٣ تفاصيل دقيقة عن تنظيم الشرطة، فى منطقتى مينيلاتيس ومريوط، اللتين تعرضتا بصفة خاصة للاضطراب والقلق، نظرا لقربهما من الاسكندرية . والمعروف أن هاتين الجهتين تدخلان فى اختصاص ليبيا . فدرج حاكم ليبيا على ان يرسل الى هاتين الجهتين نائبا عنه، عهد اليه بأن يقبض على من يلجأ الى هذين الموضعين من مثيرى الفتن بالاسكندرية والذين ارادوا ان يتجنبوا مطاردة مندوبى الوالى الاوجستال لهم . ولمندوب الوالى القضائى ان يتصرف فى هذه الحالة، اما من تلقاء نفسه، او بناء على

طلب الاوحستال، بأن يسلم المذنبين الى نواب الدوق الاوجستال ولتنفيذ ما صدر عن محكمة نائب والى ليبيا من احكام ومن اجل القبض على المشبوهين وتسليمهم الى نائب الاوجستال، كان لدى نائب حاكم او والى ليبيا، الى جانب الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه، خمسون جنديا اتخذهم من الحامية المعسكرة أو المرابطة بالمنطقة ذاتها .

ومهما يكن من الاهمية لما قام به الجيش المرابط بمصر من أعمال الشرطة فأن الجند لم يكونوا وحدهم هم المكلفون بالسهر على حفظ الامن في البلاد، اذ ان فئة خاصة من الموظفين تولت ايضا تأدية اعمال الشرطة في المدن والقرى.. ففى المدن صارت ادارة الشرطة فى القرن السادس، موكولة دائما الى حامى المدينة، والى من يخضع لسلطاته من رجال الشرطة . والراجع ان مهمة هؤلاء المساعدين كانت فى القرن السادس، مثلما كانت في القرن الخامس، من قبيل السخرة والتكليف، على الرغم من ان متوليها حصلوا على اجر وراتب. اما من باشر منهم مهمة الشرطة العادية، فقد جرى تكليفهم بحفظ الامن فى المدينة، وفى الاحتراز والتحفظ على أشخاص المتهمين وجعلهم يمثلون أمام القضاء .

وفى القرى أيضا جماعة من رجال الشرطة، بينما اهتم أعيان القرية بالقبض على المتهمين، وارسالهم للمثول أمام المحاكم، مثل محكمة الباجرك، وبذلك اذا تلقوا من المحكمة المذكورة امرا بذلك .

ولا شك أن أعيان القرية، برغم ما بيدهم من السلطة العامة، كانوا يلجأون فى القبض على المذنبين إلى الموظفين المكلفين باعمال الشرطة، امثال الحراس فى القرية الذين يخضعون لأوامر التربيون، والذين جرى تعيينهم من قبل رئيس الابروشية .

واذا حدث انه لم يكن فى وسع اعيان القرية، وقوات الشرطة المحلية ان يقوموا بتسليم المجرمين، او اهملوا تأدية ذلك الواجب، نتيجة سوء قصد ظاهر

جرى الالتجاء إلى الاستعانة بالعساكر الامبراطورية . اذ ان السلطات المسئولة قد تبادر، فى بعض الاحوال، الى استدعاء قائد العساكر من مدينة مجاورة، فلا يلبث أن يأتى على رأس ثلة من العساكر، تعيد السكان الى رشدهم .

وفى الجهات الواقعة على أطراف الصحراء، لاسيما ما كان تابعا منها لطيبه، حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين، جرت اقامة أبراج منيعة، يصح الالتجاء اليها والاحتماء بها، عند حدوث خطر شديد، ويعتبر حارث البرج فى هذه الحالة مندوب الشرطة، جرى تعيينه بصفة خاصة فى هذه المواضع .

وعلى الرغم من أن كبار الملاك صار لهم فى مصر نفوذ قوى، واستقلال داخلى كبير، وانشأوا لانفسهم فى ضياعهم جيوشا خاصة (البقلار)، واخذوا ينفقون عليها، فالواقع انه لم تكن لهم ولاية قضائية على املاكهم ومع ذلك كانت لهم شرطة خاصة بهم .

الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية :

ازدهرت الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر البيزنطى ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة نشاطًا كبيرًا وملحوظًا .

فى مجال الزراعة والرى :

من المعروف أن الزراعة قامت فى مصر أساسًا على نظام الرى، حيث لعب النيل دورًا هامًا فى زراعة مختلف أراضى مصر، يقول بلينى Pliny فى كتابه Natural History أن ارتفاع الفيضان إلى ١٦ ذراع هو الفيضان الأمثل فإذا قل عن ذلك لا يكتمل رى الأرض وإذا زاد عن ذلك تظل الأرض مغمورة بالمياه ويضيع الموسم الملائم لبذر البذور. وقد تم تقدير مقاييس النيل على النحو التالى : منسوب ١٢ ذراعاً يؤدى إلى حدوث المجاعة، منسوب ١٣ ذراعاً تظل المجاعة قائمة، منسوب ١٤ ذراعاً يجلب السعادة، منسوب ١٥ ذراعاً يبعد

القلق، منسوب ١٦ ذراعاً يجلب البهجة والسرور. لذلك كان من الضرورى توجيه الاهتمام نحو مشروعات الرى.

ولذلك اهتمت الإدارة البيزنطية فى مصر وركزت جهودها نحو إصلاح القنوات وتطهير الترع من الطمى الزائد، وذلك لضمان وصول المياه إلى كافة الأراضى. كما كان يتطلب تنظيم مياه فيضان نهر النيل إقامة أحواض لكى يترسب فيها الغرين أو الطمى على مساحة الأراضى القابلة للزراعة، ثم انشاء شبكة من قنوات الرى والصرف لكى تمد هذه الاحواض بالمياه ولتسحب منها المياه بعد أن تترك الطمى. وقد تطلب ذلك وجود جماعة من المهندسين ذوى الخبرة والتدريب العالى للاشراف على الاحواض والقنوات خلال موسم الفيضان، مع المحافظة على القنوات نظيفة من الطمى الذى قد يحمله التيار سواء كان بطيئاً أم سريعاً. كما كان هناك حراس للجسور، يتولى الكومارك (الكومارخ) فى كل قرية تحديد اختصاصاتهم، وتتمثل فى ملاحظة بوابات الفيضان ليمنعوا تحويل الفيضان عن منطقتهم.

وهكذا كانت عملية الرى تتم تحت إشراف موظفين عرفوا باسم ريبارى Riparii، منهم مراقب الجسور، ومساح، وموزع العمل، وحارس الطريق العام، ويبدو أن هذه الوظيفة الأخيرة كان متوليها يقوم بحراسة القنوات، حيث أن الطرق كانت تتبع شواطئ القنوات وكان هؤلاء الموظفون يحصلون على أجر مقابل قيامهم بهذا العمل، وذلك من الضريبة التى تفرض لعمليات أو لمشروعات الرى، إذا كان مشرف الجسور يقوم بتحصيل مبلغ من المال من مستأجرى الأرض ومزارعيها. كما قام حكام الأقاليم أو الباجركات بمتابعة العمل فى شبكة الرى حتى يتم الحصول على محصول وفير، ويظهر ذلك من خلال أحدى البرديات التى تحتوى على أوامر صادرة من أحد الباجركات جاء فيها "لقد وصلنا إلى موسم إصلاح الجسور وتطهير القنوات... لذلك فعلى أهالى المنطقة

أن يبدأوا العمل المكلفين به بكل حماس.. وعلى المراقبين أن يلزموا كل فـرد، دون تعنت أو تحيز، لإنجاز العمل المكلف بـه حتـى تصـل الجسـور إلـى ارتفاعها... وكذلك يتم تطهير الترع حتى تتدفق المياه وتروى الحقـول ويعـم الخير على الجميع. ومع ذلك فقد ظهر ضعف الحكومة فى السيطرة على توزيع المياه واضحاً فى القرن السادس على الرغم من أن جستنيان، نص فى مجموعته القانونية على عقوبة سرقة المياه وكسر القنوات قبـل الفيضـان. ونظـراً لأن حراسة المياه أصبحت عمل جد خطير فى ذلك الحين فقد جرى تعيـين عشـرة رجال لهذه الوظيفة.

وانقسمت الأراضى الزراعية فى مصر إلى قسمين : – أراض تروى ريًا دائمًا وهى القريبة من النيل، وتزرع أكثر من محصول فـى العـام الواحـد، وأراضى لا تروى سوى مرة واحدة فى العام لـذلك فهـى لا تـزرع سـوى محصول واحد وهو المحصول الشتوى .

ومن أهم المحاصيل الزراعية التى اشتهرت مصر بإنتاجها فى هذه الفترة محصول القمح الذى كانت له أهمية اقتصادية قصوى فـى حيـاة المصـريين لأهميته فى إعداد الخبز لذلك قرنه المصريون بالذهب أو التبر، ثم يلـى القمـح الفول والشعير والعدس والحمص والترمس والذرة الرفيعة والبرسيم، وزرعـت بمصر كذلك مجموعة من الخضروات والفاكهـة، ومـن بـين الخضـروات الفاصولية والبسلة والقلقاس، ومن أهم أنواع الفاكهة والكروم والزيتون والنخيل.

الصناعة والتعدين :

نشطت الحركة الصناعية فى مصر فى العصر البيزنطى نشـاطًا كبيـرًا وكانت مدينه الإسكندرية مركزًا رئيسيًا لهذا النشاط وعد الإنتاج المصرى مـن المصنوعات الراقية أرقى إنتاج فى العالم القديم .

ويأتى على رأس الصناعات التى اشتهرت بها مصر فـى ذلـك الوقـت صناعة (ورق البردى) الذى يزرع فى مستنقعات الدلتا وأحراشها وفى الفيوم. وكان لهذا النبات أهمية كبيرة بالنسبة للمصريين فقد بنوا من سـيقانه منـازلهم الأولى، وقلدوا صوره فى نقوش أعمـدة معابـدهم، واتخـذوا منـه طعامًـا يستخلصونه من جذوره ويطحنونه، كما اتخذوا منه أكفانهم الأولى، وبنـوا منه مراكبهم الخفيفة، وأهم ما صنع من سيقان البردى ورق الكتابـة، لـم يصنع الورق من لحاء النبات كما قد يتبادر إلى الذهن، بـل مـن اللبـاب الليفى اللزج الموجود بساق نبات البردى، وهى ساق عريضة مـن أسـفل ومدببة من أعلى. وهذا اللباب كان يقطع بمدية حادة إلى شـرائح رقيقـة طويلة ومنتظمة، ثم توضع هذه الشرائح جنباً إلى جنب فى اتجاه رأسـى، وتوضع فوقها طبقة ثانية من الشرائح متقاطعة معها أى فى اتجاه أفقى، ثم تضغط الطبقتان ضغطاً شديدًا فتلتصقان بفضل العصارة اللزجة بعد إضافة قليل من ماء النيل (دون أى صمغ). وتترك فى الشـمس لتجـف، وبـذلك تظهر الألياف على وجهها أفقية، وعلى ظهرها رأسـية. ويسـوى وجـه الورقة بعد ذلك بمطرقة خشبية أو يدعك بصدفة أو قطعة مـن العـاج أو الحجر الخفاف حتى يصبح ناعماً ومصقولاً.

وكان وجه الورقة وهو ما تكون فيه الألياف أفقية هـو المخصـص أصلاً للكتابة، وقلما كان النص المدون على الوجه يستكمل على الظهـر، غير أنه كان من السهل أن يكتب أيضاً على ظهر الورقـة، إذ كـان ورق البردى "المستعمل" كثيراً ما يستخدم، بعد الاستغناء عن الـنص المكتـوب على الوجه، لتدوين الرسائل الخاصة والحسـابات والمسـودات، وصـور الوثائق الرسمية والقانونية أو لنسخ المخطوطات الأدبية الرخيصة لتعلـيم الأولاد فى المدارس.

وكانت أطراف الأفرخ تلصق بعضها بالبعض الآخر بمعجون خاص فتتكون من ذلك لفافة طويلة، وغالباً ما كانت لفافة البردى تحتـوى علـى عشرين فرخًا، وعلى هذه الصورة كان البردى يخرج من المصنع. وعنـد تاجر البردى بالتجزئة كان المشترى يقتطع من هذه اللفافة الحجـم الـذى يحتاجه لتأدية غرضه. ولما كانت اللفافة العادية التى تشمل عشرين فرخـاً لا تكفى أحياناً لتدوين السجلات الرسمية فكانت تلصق هذه اللفائف الكبيرة بعضها بالبعض الآخر فيتكون منها كشف جامع. وكانت الكتابة على فرخ اللفافة تجرى فى أعمدة كل منها يسمى (Selis) وهو ما يقابل الصفحة فى الوقت الحاضر. وكانت الأعمدة ترقم بالحروف الأبجدية اليونانية لتسـهيل الرجوع إليها. كذلك كانت اللفائف ترقم أبجدياً حسب الحروف الأولى مـن أسماء أصحاب المستندات.

شجع الأباطرة البيزنطيون هذه الصناعة، التى كانت تصدر إلـى جميـع أنحاء العالم، وأطلقت الحكومة البيزنطية حرية صناعة وتجارة ورق البـردى، ذلك فى مقابل بعض الضرائب النقدية على صناعها وتجارها، هذا بالإضافة إلى فرض ضريبة عينيه على صناعة ورق البردى، تكفى لسد حاجة القسـطنطينية منه طوال العام . ومما يدل على أن البردى المصرى كان سلعة عالمية أنه ذكر فى نقش يحتوى على جزء من قائمة الأسعار، التى أصدرها دقلديانوس، ولكـن الثمن غير موجود لسوء الحظ .

واستمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة، كما كان الحال من قبل، ويثبت ذلك ما جاء فى حسابات كنيسة روما، التى كانـت لهـا ممتلكـات بالقرب من الإسكندرية، ومن بين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى .

ومن الصناعات الهامة الى اشتهرت بها مصر كذلك (صناعة النسـيج) وكانت من أكثر الصناعات انتشارًا بمصر، سواء كانت منسـوجات كتانيـة أم

صوفية . واشتهر عدد من المدن المصرية بإنتاجه الوفير من هـذه الصـناعة ومن بين هذه المدن وأهمها مدينة (الأشمونين) التى كان بهـا أكبـر مصـنع لنسيج التيل، كذلك اشتهرت الإسكندرية بنوع معين من التيل المزين بالرسـوم، الذى كان يصنع بنسج عدد من الخيوط معًا، ويذكر دقلديانوس فى قائمة أسعاره كتان الإسكندرية، وأنه كان ضمن أفضـل خمسـة أنـواع مـن الكتـان فـى الإمبراطورية بأسرها .

وإنتجت مصر من الكتان فى العصر البيزنطى أنواعًا رقيقـة وجميلـة، وكان الكتان الخام يوزن بالرطل، أما المنسوج منه فيباع بالمقطع أو الفرخ ومن أشهر الألوان لتى استخدمت فى صبغه الأبيض والإرجوانى والأزرق، وإلـى جانب استخدام الكتان فى صناعة الثياب فقد استخدم أيضًا فى صناعة الأغطيـة والفرش والستائر .

وقامت مصر بتصدير منسوجاتها الكتانية إلى الأسواق الشرقية فى بـلاد العرب والهند، ووجدت هذه المنسوجات سوقًا رائجًا لها فى تلك الأسواق وذلـك لرخص ثمنها ودقة صنعها .

أما عن المنسوجات الصوفية فقد تقدمت صناعتها فى مصـر فـى القـرن الرابع الميلادى، واستخدم الصوف فى الأردية والمعاطف، وصنعت منه السجاجيد والستائر، وصبغ كذلك بالأرجوانى والأزرق والأبـيض، غيـر أن المنسـوجات الصوفية كانت قاصرة فى بداية الأمر على الاستهلاك المحلى، ولم تتعـداه إلـى مجال التصدير، ثم أخذت صناعة هذا النوع من المنسوجات تتحسن وتتطور فـى أواخر العصر البيزنطى، لذلك بدأت تصدر إلى أسواق الشرق الأقصى . وتجـدر الإشارة إلى أن سجاد الاسكندرية نال شهرة كبيرة، وكانت أسعاره مرتفعة، يذكر أحد الكتاب أنه يمكن أن تستخدم الواحدة منه كملاءة سرير وقد استخدمها هكذا فى القسطنطينية وأحضرها معه إلى برقة وأعطاها هدية.

أما القطن فكان نادر الاستعمال، واستورد من الهند فـي القـرن الثالـث الميلادى، واقتصر استخدامه فى العصر البيزنطى علـى التطريـز . وتجـدر الإشارة إلى أنه اكتشفت خيوط قطنية فى كرانيس، كما اكتشفت ثياب مشـغولة بالقطن فى ارسينوى (الفيوم) ترجع إلى الفتـرة التاليـة لعصـر الإمبراطـور جستنيان.

أما الحرير فقد تم استيراده من الصين، وكان اسـتعماله قاصـرًا علـى الطبقات العليا، التى تستطيع اقتناءه لارتفاع أثمانه . وفى بدايـة الأمـر كـان الحرير ينسـج فى مصانع الكتان والصوف، ولكن خلال القـرن الرابـع الميلادى أصبحت له مصانعه فى الإسكندرية، وعمل بها عدد كبيـر مـن النساء، وإلى جانب الإسكندرية كانت أخميم من أهم مراكز صناعته .

وفرض الأباطرة قيودًا شديدة على صناعة الحرير، فأصدروا سلسلة مـن المراسيم منها مرسوم عام ٣٩٦م، ٤٠٦م، ومرسوم عام ٤٢٤م وقد نصت هذه المراسيم على الحد من صناعة المنسوجات الحريرية وانتاجهـا إلا إنتـاج مـا يخص القصر الإمبراطورى. كما صدر مرسوم فى عـام ٤٣٨م يـنص علـى تحريم إنتاج المنسوجات الحريرية الأرجوانية اللون بمصانع الاسكندرية خاصة.

أصدر جستنيان أثناء حكمه (٥٢٧ – ٥٦٥م) قرارات بتحـريم نسـج الحرير الأرجوانى (القرمزى) فى مصانع الإسـكندرية، لأن الحريـر خـاص بالأباطرة وبالتالى لا يصنع إلا فى المصانع الإمبراطورية علاوة على قلة خام الحرير وغلاء سعره لسوء العلاقات بين الروم والفرس الذين كانوا يتحكمـون فى طرق جلبه. ومن ثم أصبحت صناعة الحرير احتكارًا للإمبراطورية . ومع ذلك فقد كانت هناك العديد من المصانع الخاصة بعضـها أقـيم فـى المنـازل للاستهلاك الشخصى كما وجدت عدة مصانع للنسيج فى القرى.

وجرى استخدام الصبغات سواء فى المنسوجات التى تستهلك محلياً أو تلك

التى تصدر إلى الخارج، فكانت الصبغة الأرجوانية تستخرج من أصداف السمك، أو من بعض الجذور أو أغلفة السقط والقرطم.

ومما تجدر الأشارة إليه انه كان لا يمكن للشخص العمل بصناعة النسيج إلا بعد فترة تدريب، والحصول على شهادة ممن قام بتدريبه، يذكر فيها أنه انهى فترة التدريب، وكانت تتراوح بين ١ - ٤ أعوام وحصوله أيضًا على رخصة من النقابة لممارسة العمل . كان سن التدريب يبدأ فى العادة فيما بين العاشرة والثالثة عشر من العمر، وأثناء فترة التدريب كانت إقامة الصبية وكسوتهم على المعلم وهو الاسطى وكذلك يدفع المعلم خلالها ما على الصبى من ضرائب مثل ضريبة الرأس وغيرها وإذا كان الصبى لا يرغب فى الإقامة عند معلمه فإن الأخير يدفع لأمه أو أبيه مبلغاً من المال كل شهر خلال سنوات التدريب. أما إذا انسحب الصبى خلال فترة التدريب فعلى من يعوله أن يدفع غرامة مالية كبيرة لمعلمه.

ومن الجدير بالذكر أن صناعة النسيج كانت من الحرف المألوفة عند الرهبان والراهبات، فهى لا تتعارض مع تأدية الواجبات الروحية . كما ان مصانع النسيج والصباغة، كانت ملكًا للحكومة، ووضعت تحت أشرافها، بعكس ورق البردى، وفرضت عليها كذلك ضرائب نقدية وأخرى عينية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة .

واشتهرت مصر كذلك (بصناعة الزجاج) إذ توفر لديها بعض المواد التى تدخل فى صناعته، وخاصة الرمل، ومناجم ملح النطرون (الصودا) مع توافر مواد الحرق مثل جذور البردى التى قدمت الوقود اللازم لصهر كل من الرمل وملح النطرون. هذا إلى جانب توافر الأيدى العاملة الحاذقة، مما ساعد على ازدهار هذه الصناعة بمصر، واشتهر الزجاج المصرى بألوانه الجميلة وصناعته الدقيقة ومن أهم مراكز صناعته الإسكندرية ووادى النطرون وأديرته

وأرسينوى (الفيوم) وأكسير ينخوس (البهنسا). وصنع من الزجاج الأكواب والأطباق، وزجاجات والقوارير لأدوات الزينة والدوارق والشمعدانات والقناديل وغير ذلك، وتم تصدير المنتجات الزجاجية المصرية إلى الخارج، وخاصة إلى بلاد البحر المتوسط . ويحتوى المتحف القبطى على عدد من الأوانى الزجاجية ترجع إلى العصر البيزنطى، ولكنها ليست من الزجاج الشفاف الرقيق الذى كان يصدر إلى الخارج بل من الزجاج السميك .

واشتهرت مصر أيضًا (بصناعة الفخار)، ويرجع ذلك إلى أن تربتها كانت غنية بالطمى اللازم لصناعته، مع وجود الأفران اللازمة للحرق ووفرة الأيدى العاملة المدربة، واستخدم الفخار فى العصر البيزنطى فى اغراض متنوعة فصنعت منه جرار النبيذ والزيت، وجرار لحفظ الغلال وأوعية يبيع فيها الباعة بضائعهم فى الأسواق . كما استخدم الفخار فى الاستعمالات المنزلية كقدور الطهى والأكواب والأطباق، والآنية والأباريق والمسارج والقوارير ذات الاستخدامات الدينية أى التى يوضع فيها الماء المقدس. وكان ما يستعمل منها لحفظ الأطعمة يدهن بالقار، ليخفف الترشيح كذلك استخدم الفخار فى حفظ العطور .

واتخذت الأوانى الفخارية صورًا وأشكالاً مختلفة، وتفنن المصريون فى زخرفتها بالألوان المختلفة كالبنى والأحمر والأصفر والأرجوانى، واتخذت هذه الزخارف صور الحيوانات والأسماك .

وانتشرت مصانع الفخار على طول أقاليم وادى النيل، كما وجد عدد منها يحيط بالأديرة أذ عثر على أفران بجوار أديرة الفيوم وسقارة وديرميناس فى مريوط على مقربة من الإسكندرية. ونتيجة لوفرة الإنتاج من الأوانى الفخارية وغيرها وكثرة استعمالها، انخفضت أسعارها وصدرت إلى الخارج، إذ يشير قانون (١٣) المادة رقم ١٥ الذى اصدره الإمبراطور جستنيان إلى أن الضريبة

المقررة على تصدير الفخار من الإسكندرية تضاف إلى موارد البلدية .

ازدهرت أيضًا بمصر (صناعة العطور والتوابل) التى كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع فى مصر، ويعاد تصديرها ثانيه . ويــذكر كشــف حساب ممتلكات كنيسة روما فى مصر، المشار إليه سابقًا، أن مئات الأرطــال من الزيوت والتوابل والعطور بأنواعها كانت تصنع فى مصانعهم بالقرب مــن الإسكندرية .

وكان جزء كبير من المواد الأولية المســتعملة فــى صــناعة العطــور والعقاقير الطبية موجودة بمصر ومتوفرة فيها، ومن النباتــات المصــرية ذات الشهرة الطبية: البلسم والخروع والكركم والكمون والزعفران وشــجر اللبــان وبذور اللوتس، وكانت هذه المواد تصنع وتصدر فى شكل عقاقير فتذكر أحدى البرديات أنه كان هناك (١٩٢) مادة مختلفة ما بين نباتية وحيوانيــة ومعــادن كانت تستخدم فى إنتاج العقاقير والعطور وأغلبها من المنتجات المحلية. وكانت العقاقير تصدر إلى الخارج فيذكر سينسيوس أسقف كنيسة قورينه فى ليبيا أنــه تسلم فى برقة شراب السلفيوم Silvia المرسل إليه من الإسكندرية. أما العطور فقد كان للمصريين دراية هائلة بصناعتها، ووجدت لها حوانيت فى الفيوم وغيرها. وقد قام الصانع المصرى فى الاسكندرية بإعادة تصنيع ما كــان يستورد من طيوب خام وبعد خلطها بالزيوت العطرية المصرية ينتج منها عطوراً ذكيه الرائحة، تصدر إلى كل أنحاء العالم.

ومن الصناعات الأخرى التى انتشرت بمصر صــناعة التماثيــل والعــاج والخمور والآلات الموسيقية والصناعات الخشبية حيث توفرت فى مصــر ثــروة خشبية، متمثلة فى أشجار السنط والنخيل والجميز والــدوم وغيرهــا، إلا أن تلــك الأخشاب لــم تكن تفى لتغطية صناعات البناء والأثاث والسفن لــذلك اســتوردت مصر الخشب مــن الخارج . وكانــت الصناعات المعدنية من الحــرف الرائجــة

أيضاً؛ فقد وجدت منتجات معدنية من ذهب وفضة وبرونز ونحاس محفوظة الآن فى المتحف القبطى المصرى، ومنها حلى من العقيق والفضة، واقراط من الفضة مطعمة بالمرجان على شكل حلقات، وقلائد من ذهب، وصلبان وخواتم ذات فصوص ملونة، وسوار فضى مطعم بالعقيق، إلى جانب مجموعة من العقود خرزها مصنوع من مواد مختلفة كالعقيق وعجينة الزجاج الملون والودع والقاشانى.

الصناعات الغذائية :

ومن أهم الصناعات الغذائية التى اعتنت بها الحكومة البيزنطية فى مصر صناعة الزيوت وخاصة زيت الزيتون الذى استخدم فى الطعام، كما استخدم كذلك فى الاضاءة، ووجد فى كل إقليم من أقاليم مصر معاصر للزيت، كانت تؤجر مقابل مبلغ من المال، فضلا عن معاصر الزيت الخاصة بأصحاب الاقطاعات الكبرى والمعاصر الخاصة بالكنائس.

اهتمت الإدارة البيزنطية كذلك بصناعة الخبز، لضمان وصوله إلى المستهلكين من عامة الشعب، وكان لشعب الاسكندرية حصة من الشحنة السعيدة أو الميرة المدنية (الانونا) حيث وزع الخبز بالمجان على عامة العاصمة. وكانت صناعة الخبز تتم على مرحلتين، الأولى عملية طحن الغلال، والثانية صناعة الخبز، وتملكت الدولة عدداً من المطاحن كما تملكت الكنائس والأديرة عدداً آخر؛ وكان من يمتلك طاحونة يلحق بها عادة مخبزاً. أما فى القرى فكان يجرى طحن الغلال بمطاحن يدوية تعمل بها القرويات، ثم يقمن بإعداد الخبز فى الأفران المنزلية الموجودة فى القرية. وقد فرضت الدولة رقابة إدارية على المطاحن والمخابز، ولذا وجب على أصحاب هذه المخابز إبلاغ مسئول السوق بما لديهم من غلال مطحونة. وكان الخبز يباع بالرطل.

ومن أهم مراكز الصناعة فى مصر مدينة الإسكندرية - عاصمة مصر - فقد اشتهرت بالعديد من الصناعات من بينها (صناعة العقاقير) فما كان يرد إلى الإسكندرية من المواد الخام من الهند ومن الشرق الأدنى بل ومن مصر ذاتها وبصفة خاصة من طيبة والواحات، كان يتم تحويله بالإسكندرية إلى سلع

تجارية وأظهر صناع الإسكندرية براعة وحذق فى صناعة **الأدوية والعطور**، وفى تعبئتها وتسويقها، ومن ثم أصبح لها شهرة ذائعة وارتفعت **أسعارها** وحصل صناعها من أهالى الإسكندرية على أرباح وفيرة . وازدهرت **كذلك** بالإسكندرية (صناعة السفن) إذ كانت الإسكندرية ميناء تجاريًا **هامًا، ومن ثم** كان من الضرورى أن تقوم بها هذه الصناعة الهامة، وكانت مصر تستورد الأخشاب من الشام وأفريقيا وآسيا الصغرى وغيرها، وفى نفس **الوقت** كان يصنع الكتان بمصر، والذى يدخل فى صناعة الحبال المستخدمة فى صناعة السفن، واشتهرت الإسكندرية أيضًا بصناعة **(الأحجار الكريمة) وصقلها** وتهذيبها، كما ازدهرت بها كذلك صناعة **(الأطباق من الفضة) والتى كانت** تصدر إلى القسطنطينية .

أما التعدين :

فقد ذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض **الأحجار الكريمة والمرمر** والبازلت والجرانيت وغيرها، واهتم الأباطرة البيزنطيون **باستخراج المرمر** الذى استخدم فى صناعة الآنية والتوابيت والتماثيل والقدور **والصحاف..الخ** والبازلت والجرانيت والرخام الأحمر، وقد استخدم فى بناء **الأعمدة وصناعة** الآنية والتماثيل، كذلك الحجر الجيرى وقد انتشرت محاجره **فى سلسلة جبال** البحر الأحمر وفى أسوان، واستخدمه المصريون كمادة للبناء، **كما استغل** المصريون مناجم وملاحات الملح، وأهمها ملح النطرون.

كذلك اهتم البيزنطيون باستغلال مناجم الأحجار الكريمة **كالزبرجد (قرب** سيناء) والزمرد (بالقرب من أسوان على الجانب **الشرقى من النيل) والفيروز** (فى سيناء)، وكذلك الأحجار نصف الكريمة **كالعقيق الأحمر (بأرمنت)** واستخدمه المصرى فى عمل التمائم، والبلور **(بالبحر الأحمر)، كذلك أهتم** البيزنطيون بمناجم المعادن الثمينة كالذهب والفضة، **التى استخلصها المصريون** من خامات الذهب والرصاص والنيكل، ولم يكن لها مناجم منفصلة، تستخرج

منها الفضة الخالصة. والمعادن التى تستخدم فى الصناعات المختلفة ومنها النحاس والحديد الذى استخرجه المصريون من مناجمه الواقعة فى شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية فى وادى الحمامات وبجوار أسوان، وفى الصحراء الغربية فى الواحات، واستخرج المصريون أيضاً الرصاص من مناجمه الواقعة بجوار أسوان.

وتجدر الإشارة إلى أنه عمل بصهر المعادن وصياغتها عدد من العمال منهم "صاهر المعادن"، و"المشرف" على طحن وجرش الصخور خاصة المحتوية على خامات الذهب والفضة، و"صاغ الذهب" الذى يقوم بصياغة كافة أنواع الحلى الذهبية، والحلى المطعمة بالأحجار الكريمة مثل الزمرد واللؤلؤ، والعقود والأقراط والخواتم والأساور، والتيجان الذهبية وغيرها. وكذلك "صاغ الفضة" الذى يقوم بتنقية خام الفضة من الشوائب، وإنتاج الأطقم الفضية المنزلية، والأكواب والشمعدانات والمباخر علاوة على الحلى الفضية. ومن عمال المعادن أيضاً الحداد وصانع الأقفال والمفاتيح والحلقات المعدنية والأسلحة والأدوات الزراعية مثل الفئوس والمناجل وغيرها.

التجارة :

أولا التجارة الخارجية :

صحب النشاط الزراعى والصناعى فى مصر فى العصر البيزنطى رواجًا تجاريًا، ويرجع ذلك الرواج التجارى إلى :

أولاً : اهتمام الدولة البيزنطية بتجارة الشرق وبالمنتجات الشرقية، حيث اعتمدت اعتمادًا كليا على بعض هذه المنتجات وعلى رأسها الحرير والتوابل.

ثانيًا : عداء الفرس للدولة البيزنطية، وما ترتب عليه من عدم سماح الفرس للتجارة البيزنطية بالمرور عبر أراضيهم ولذا سعى البيزنطيون إلى إعادة النشاط التجارى فى البحر الأحمر إلى سابق عهده . فعن طريق هذا البحر

وعبر الأراضى المصرية يمكن الوصول إلى موانئ البحر المتوسط، ومن موانئ البحر المتوسط، يمكن الوصول بحرًا إلى القسطنطينية . واستخدم البيزنطيون هذا الطريق بدلاً من الطريق الذى يعبر الخليج الفارسى ثم إلى البلاد الفارسية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى القسطنطينية . ونظرًا لأهمية طريق بحرالقلزم " الأحمر" بالنسبة للدولة البيزنطية، وكان طبيعيًا أن يسعى الأباطرة البيزنطيون إلى تأمين هذا الطريق، الذى أصبح هو الطريق الوحيد أمامهم لنقل متاجر الشرق مما ترتب عليه تنشيط الحركة التجارية بمصر .

وكانت مدينة الإسكندرية بحكم موقعها الممتاز فى شرق بحر الروم "المتوسط "، مركزًا من مراكز التجارة العالمية، واحتكر تجار الإسكندرية التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد كما كان أسطولهم التجارى فى بحرالروم "المتوسط" يعتبر الأول بين الولايات جميعًا، فمن الإسكندرية وعلى أسطولها كان يصدر القمح إلى البلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط وإلى بلاد العرب بل والى الغرب كذلك . وبفضل الملاحين المصريين انتظمت طرق الملاحة بين مصر والقسطنطينية وأيطاليا، وتوغل التجار المصريون فى البحر الادرياتى، وانتظمت العلاقة بين مصر وبلاد الغال (فرنسا)، وحملت السفن المصرية البردى إلى مارسيليا، كما اتصلت مصر بأسبانيا، وقدم تجارها إلى مصر وكذلك تجار بلاد الغال .

وتردد تجار الإسكندرية على جزيرة تابروبان (سيلان) مستودع الهند الكبير، الذى حفل بالحرير، وعود الند والقرنفل، وخشب الصندل والمسك، والفلفل والسمسم والعطور، والنحاس، والقطن، فضلا عما توافر بها من الأحجار الكريمة.

وتثبت رحلات الراهب المصرى السكندرى كوزماس(*) – الذى كان

(*) يعرف بالبحار الهندى، وعاش فى الإسكندرية فى القرن السادس، وقام برحلة إلى الهند عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى، وذهب إلى جزيرة سيلان .

يعمل فى التجارة الشرقية على ظهر سفينة حملت عـدد كبيـر مـن البحـارة المصريين - أن التجارة الشرقية المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف. وقد ذكر ذلك فى الفصل الأخير من كتابه الذى كتبـه حوالـى عـام ٥٤٥ - ٥٥٠م فى وصف البلدان، وفى دير سيناء الذى أكمل حياته فيه يمارس الرهبانية، وسجل أخبار رحلته فى هذا الكتاب . وأخذت الإسكندرية تصدر إلى بلدان البحر المتوسط منتجات مصر، وما يصنع بالإسكندرية من السلع، وما يرد إليها من ثروات الهند والشرق الأقصى . ولذلك حقق تجار الإسكندرية أرباحًا وفيرة من وراء التجارة مثال ذلك التاجر فيرموس، الذى تمكن مـن أن يكـون جيشًا من أرباح تجارته ومن دخله من تجارة البردى والصمغ، بل تطلـع إلـى منصب الإمبراطور ذاته. لذلك ليس بمستغرب أن يتمسـك أهـل الإسـكندرية بممارسة التجارة بكل ما أتوا من قوة. ويبدو أنهم نجحوا فـى الحفـاظ علـى مركزهم على رأس التجارة العالمية فى العصر البيزنطى .

ومن الجدير بالذكر أنه كان لكنيسة الإسكندرية نشاطها فى مجال التجارة الخارجية، ويتضح هذا النشاط من خلال سيرة القديس يوحنا الذى تولى أمر الكنيسة فى مطلع القرن السابع، والتى يتضح من خلالها أن الكنيسة كانت تملك ثلاث عشرة وقيل ثلاثين سفينة، فضلا عن سفنها التى كانت تنقل المتاجر فى نهر النيل، هذا واستخدم أسطول الكنيسة فى استيراد القمح من صقلية أثناء مجاعة حلت بالبلاد نتيجة لهجوم الفرس على مدينة الإسكندرية، وعدم وصول القمح من الريف إليها وذلك فى عام ٦١٨م . واستخدام كذلك فى إرسال الإمدادات إلى بيت المقدس حينما هاجمها الفرس في عام ٦١٤م . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن الحرير والأوانى الفضية وغيرها ووصلت حتى بريطانيا والبحر الادرياتى .

التجارة الداخلية والنقل :-

نشطت حركة التجارة كذلك فى أسواق مصر الداخلية التى انتشرت فـى كل مدينة مصرية تقريبا، ومنهـا أسـواق اكسـرنخوس (البهنسـا) وأسـواق

هرموبوليس (الاشمونين) وأسواق انطونيوبولس (الشيخ عبادة) وغيرها. وكانت السوق أكثر أجزاء المدينة أهمية وحيوية ونشاط، ،كان فى كل مدينـــة ســـوق توسطها وعلى جانبيه تقام الحوانيت التـــى عمـــرت بمختلـــف أنـــواع الســـلع المصنوعة داخل مصر أو الواردة إليها من الخارج كالأسلحة والثياب الدلماشية والطرسوسية. وكانت كل فئة من التجار تعمل فى تجارة معينة، تجتمع فى مكان خاص بها فى السوق، فتجار الفخار لهم منطقتهم، التى يعرضون فيها أوانـــيهم وجرارهم، وتجار الأقمشة لهم مكان مخصص بالسوق، يعرضون فيه منتجاتهم من الثياب الكتانية والصوفية وهكذا. كذلك انتظم التجار كغيرهم من الطوائـــف فى نقابات منها نقابة تجار الخبز، وأخرى لتجار الزيت والنبيذ وثالثـــه لتجـــار التوابـــل ونقابة تجار المنسوجات وغيرها مـــن النقابات. وسوف نفصل لهـــذه النقابات فيما بعد.

وكان العمل بالتجارة يتطلب موافقة الدولة، فعلى الشخص الذى يرغب فى مزاولة التجارة، أن يتقدم بطلب رسمى إلى كاتب المدينة يطلب فيه السماح لـــه بمزاولة تجارته، ويحدد نوعيتها، وكان الهدف من هذا الأجراء، هو حصر عدد التجار، وفرض الضرائب عليهم . كذلك كان على من يريد، أن يفـــتح حانوتـــاً للبيع والشراء، أن يخطر الدولة بذلك، بل أن الدولة كانت تمتلك بعض الحوانيت والأماكن، وتقوم بتأجيرها للأفراد وفقاً لمزاد عام.

كذلك اهتمت الدولة بتوفير المواد والسلع الغذائية فى الأســـواق وخاصـــة الخبز، وعملت على الحد من جشع التجار، وضمان حصولها على الضرائب فى نفس الوقت ولذلك أجبرت الدولة التجار على عرض سلعهم بالأسواق وإعـــلان قائمة شهرية بالأسعار ترفع إلى (مراقب السوق Logistis) فهو المسئول الأول عن إمداد المدينة بالطعام.

وكان التجار يدفعون على بضائعهم التى تباع بالأسواق مكوسًـــا تســـدد شهريًا وقـــد بلغت ١٢/١ من ثمن البضائع . وفرض الإمبراطور قســـطنطين فى القرن الرابع الميلادى ضريبة تقدر كل خمس سنوات على بعـــض أنـــواع التجارة والحرف لتجارة الزيت وتجبى سنوياً، ومقدارها ٢٠٠ ديناراً وقـــد قـــام

الإمبراطور انستاسيوس بإلغاء هذه الضريبة. وفى القرن السادس الميلادى وفى عصر جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) فرضت ضريبة، كانت تؤخذ من الذهب أو من الفضة، ووردت هذه الضريبة فى قوانين جستنيان، وكانت النقابات هى المسئولة عن تحصيل هذه الضريبة من أعضائها وتقديمها لخزانة الدولة شأنها شأن سائر الضرائب المفروضة على طوائف الحرف المختلفة.

وقد اكتظت أسواق مصر التجارية بمختلف التجار الذين جاءوا إلى مصر من شتى جهات العالم خاصة من القسطنطينية وبلاد الشـام، وبـلاد العـرب . وهكذا شهدت مصر فى العصر البيزنطى ازدهارًا فى النواحى الاقتصادية مـن زراعة وصناعة وتجارة .

أما عن النقل الداخلى للبضائع فكان يتم عبر الطرق البرية أو النهريـة، وبالنسبة للطرق البرية استخدمت الدواب فى عملية النقل، وأحيانا كانت تستخدم عربات مغطاة لنقل المسافرين، وكان النقل البرى مقصـوراً علـى المسـافات القصيرة بين القرى، وفى المناطق التى يتعذر فيها النقل النهرى. ومن الـدواب المستخدمة فى النقل الخيل والبغال والحمير، وكان لأصحاب دواب النقل نقابـة خاصة بهم، وكان الهدف من هذه النقابة إجبار أفرادها على تسخير دوابهم فـى النقل والبريد كذلك. وكان أفراد هذه النقابة يخضعون لإشراف موظفى البلديـة، وكان الانضمام إلى هذه النقابة يتم عن طريق الوراثة والإلزام.

وكان العاملون فى النقل النهرى يتمتعون بوضع أفضـل عـن أقـرانهم العاملين فى النقل البرى، فقد كانت تضمهم نقابة الملاحـين النهـريين، وكـان عملهم الأساسى هو نقل الشحنة السعيدة إلى الإسكندرية ومنها إلى القسطنطينية، هذا وقد امتلك بعض الأفراد عدد من القوارب استخدموها فـى نقـل البضـائع والأفراد، وبعضها خصص للنزهة فى النيل. وفى بعض الأحيان كـان مـلاك قوارب وسفن النقل يعهدون بقيادتها إلى بعض البحارة المؤجرين، وكان التأجير يستغرق فترات طويلة قد تصل إلى خمسين عاماً، وذلك فى مقابل مبلغ مـالى يتفق عليه الطرفان.

الحياة الاجتماعية

تجدر الإشارة بداية إلى أن مصر شهدت خلال فترة الحكم البيزنطى لهـا عددًا كبيرًا من فئات السكان ومن بين تلك الفئات :

١ - اليونانيون (الإغريق) :

وهم الذين وجدوا بمصر منذ الفتح المقدونى لهـا، فقـد حضـروا إلـى مصر بصحبة الإسكندر الأكبر، وكونوا جالية كبيـرة بهـا وبصـفة خاصـة الإسكندرية زمن الحكم البطلمى، ويلاحظ أن الجاليـة اليونانيـة فـى مصـر تمتعت فى ظل حكم البطالمة والرومان بمميزات كثيـرة منهـا: أنهـم اعفـوا من الضرائب خاصـة ضـريبة الـرأس، وكـان الطريـق مفتوحًـا أمـامهم لتولى المناصب الكبيرة فى الجهـاز الحكـومى، كمـا كانـت لهـم ضـياع كبيـرة، ومـنهم مـن اشـتغل بالصـناعة والتجـارة إلـى جانـب امـتلاك الأراضى. وأصبح اليونـانيون يشـكلون فـى مصـر جاليـة ارسـتقراطية، وكان معظم رجال السـناتو ينتخبـون مـن هـذه الجاليـة اليونانيـة . وأزاد نفوذ هذه الجالية وسلطانها فى مصر نظرًا لما تمتعـت بـه مـن ثـروة ومـا ارتبطت به من صـلات وعلاقـات، فضـلاً عـن كونهـا جاليـة الحكـام . وليس أدل على نفوذ هذه الفئة من أن اللغة اليونانيـة كانـت اللغـة الرسـمية أما اللغة اللاتينية فقد اقتصر اسـتخدامها علـى الجـيش واللـوائح الخاصـة بالقانون الرومانى .

٢ - اليهود :

يمثل اليهود الفئة الثانية من فئات سكان مصر فى العصـر البيزنطـى، وعاش اليهود بمصر وكونوا بها جالية كبيرة، وكانت الإسكندرية تمثـل أكبـر تجمع لهم. وكان لهم بها وضع خاص، فقد تمتعوا بالحرية الدينية، وأعفوا مـن

تقديم القرابين للامبراطور، وسمح لهم بإقامة معابدهم الخاصة بهم، وأن يحاكموا أمام محاكم خاصة بهم وعلى الرغم من أنهم رفضوا أن يضعوا تماثيل الأباطرة فى معابدهم كما أنهم ظلوا يمارسون عادة "الختان" التى لم يكن الرومان يمارسونها رغم ذلك كله تسامح الرومان معهم، بل مالوا إلى حمايتهم وإزالة أى تجاوزات قد تؤدى إلى الأضرار بالعلاقة معهم، وذلك لأنهم اتباع لهم، يقفون إلى جانبهم ضد السكندريين. ومع ذلك كان اليهود أقل منزلة من اليونانيين، إذا لم يتمتعوا بالحقوق المدنية فى الإسكندرية . كما كان اليهود من الفئات التى فرض عليها الرومان ضريبة الرأس، مثل سائر الخاضعين الحكم الرومانى، وباءت محاولات اليهود للتخلص من هذه الضريبة بالفشل .و كما هى العادة اهتم اليهود بالاقتصاد والتجارة وجمع الثروات . وظل اليهود يشكلون طائفة كبيرة من طوائف المجتمع المصرى حتى عام ٤١٥م، ففى هذا العام قام الشعب فى المدن والرهبان الوافدون من الصحارى الغربية بثورة ضد اليهود بالاسكندرية والمدن الاخرى، ونهب العامة اموال اليهود وممتلكاتهم،وطردوهم من بيوتهم، وعمت المدينة الفوضى .

أما عن سبب هذه الثورة فقد حدث خلاف بين البطريرك كيرلس وبين الوالى البيزنطى أورستيس Orestes، وأصر كل منهما على أن تكون له دون غيره السيادة بمدينة الإسكندرية، وازدادت الكراهية بين الرجلين بعد مقتل الفليسوفة الوثنية هيباشيا عام ٤١٥م على يد المسيحيين بإيعاز من كيرلس وكان الوالى البيزنطى شديد الإعجاب بشخصها. استخدم كيرلس أول الأمر ما له من سلطة على رجال الكنائس، فأمر بإغلاق إحدى الكنائس التى تدين بمذهب الكنيسة البيزنطية، فازداد الحالة سوء بينه وبين الوالى البيزنطى فى ذات العام (٤١٥م) خاصة حينما أمر أورستيس بالقبض على أحد أنصار كيرلس، وأمعن فى تعذيبه والتنكيل به، وكان اورستيس يميل إلى اليهود الذين أفلحوا فى خداع المسيحيين. ولم يلبث أن نشب القتال بين اليهود والمسيحيين، ودارت مذبحة

رهيبة، وغضب كيرلس، وعزم على الانتقام من اليهود، ولكنه اكتفى بطـــردهم من المدينة، وسمح للمسيحيين بنهـــب ممتلكـــاتهم، دون أن يكتـــرث بـــالوالى البيزنطى، الذى لم يسعه الا أن قدم شكوى إلى الإمبراطورية ثيودوسيوس الثانى ضد كيرلس، لأنه اعتدى على سلطته، وتجدر الإشارة إلـــى أن رهبـــان وادى النطرون وقفوا فى هذا الصراع إلى جوار كيرلس، فجاءوا - كما سبق أن ذكرنا - إلى الإسكندرية، وتظاهروا ضد الوالى فى الشارع، بل أن أحدهم قذفه بحجر أوجعه، ولم ينج الا بعد عناء شديد.

واصل اليهود سياسة إثارة الفتن والقلاقل، ففى عام ٤٣٥م تجمعـــوا فـــى مدينة الإسكندرية، وصلبوا تمثال على هيئة المسيح عليه السلام، وعبثـــوا بـــه، فثار عليهم المسيحيون، واندلع قتال بين الجانبين، قتل فيه العديد منهم، وبعـــث الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) جيشاً إلى مصر، انتقم من اليهود وقتل الكثير منهم. وبادر بإتخاذ إجراءات صارمة ضد اليهـــود فأصـــدر ســـنة ٤٣٨م مرسوماً خاصاً باليهود جعلهم طبقة أقل من الشعب البيزنطى، وفى العام التالى (٤٣٩م) أصدر مرسوماً آخر حرم فيه تعيـــين اليهـــود فـــى الوظـــائف القضائية، التى من حق شاغلها أن يوقع العقوبة على المسيحيين.

وكان التطور الوحيد الذى طرأ على أفكارهم هو ظهور طائفة النســـاك التى أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط (بالإسكندرية) والتـــى عرف أفرادها (بالمتأملين فى الإلهيات) . ويصف الفيلسوف اليهودى فيلو Felo نظام حياتهم بقوله : "أنهم يبدأون بالصلاة من الفجر، ثـــم يقضـــون يومهم فى التأمل فى التوراة ثم يختمونه بالصلاة عند المساء، عرف عنهم مداومة الصوم، لايذقون الخمر على الإطلاق، ولا اللحم، بل الماء شـــربهم الوحيد، واطايبهم مع الخبز الملح والأعشاب .. يجتمعون أيـــام الســـبوت للعبادة معاً داخل معبد عام وسط منازلهم وأكواخهم".

٣ – الأجانب من العلماء أو التجار :

تمثل الجاليات الأجنبية الفئة الثالثة من فئات المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى، فقد قدم إلى الإسكندرية عدد كبير من الأجانب سواء من العلماء الذين جذبتهم المدينة بجامعتها زائعة الصيت وبمدارسها الشهيرة، فجاءوا إليها طالبين العلم فى مدارسها ومكتباتها، كذلك جذبت الإسكندرية – كسوق تجارى رائج وكميناء هام ترد إليه السفن التجارية من كل مكان – أنظار التجار، الذين سعوا إليها طمعًا فى الكسب المادى، فجاء إليها تجار من إثيوبيا ومن بلاد العرب بل ومن الهند، مما جعل للإسكندرية طابعًا مختلفًا كالذى اشتهرت به مدن شرقى البحر المتوسط .

٤ – المصريون :

وهم السكان الوطنيون أو الأصليون، الذين شكلوا الغالبية العظمى بالنسبة لباقى الفئات الأخرى . وقد وقع على هؤلاء المصريين العبء الأكبر من العمل والشقاء وأثقل كأهلهم بالضرائب سواء كانت نقدية أم عينية، ولهذا سارعت هذه الفئة باعتناق الديانة المسيحية عقب ظهورها وانتشارها فى مصر رغبة منهم فى التخلص من الذل والهوان والسخرة والعذاب الذى تعرضوا له على يد الحكام الرومان .

ولكن تجدر الإشارة إلى أن زعماء الكنيسة المصريين كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير نظرًا لوضعهم الدينى والاقتصادى، كما برز من بين المصريين طائفة عرفت باسم (المصريين المتأغريقيين)، وذلك لأنهم اختلطوا بالإغريق، وحاكوهم فى لغتهم وملبسهم وأسمائهم، وقد امتلك هؤلاء الأراضى واشتغلوا بالحرف المختلفة وأعفوا من ضريبة الرأس .

ولا تختلف الحياة الاجتماعية مصر عنها فى سائر مدن

الإمبراطورية، فقد صارت بالإسكندرية - عاصمة مصر - حياة اجتماعية صاخبة اختلفت كثيرًا عن تلك الحياة التى سادت المجتمع فى الريف أو فى القرية .

الحياة الاجتماعية بالعاصمة الإسكندرية :

اشتهرت الإسكندرية وأهلها من قديم الزمن بسرعة الإثارة وعدم الاكتراث بالسلطة والحكومة، والميل إلى الشغب والتمرد والثورة،هذا إلى جانب ما عرف عنهم من النزوح إلى المسرح والميل إلى السرور والعبث واللهو . كان لهذه الصفات التى اتصف بها أهل الإسكندرية أثر كبير فى الفترة التى عاشتها مصر فى العصر البيزنطى . فقد شهدت هذه الفترة انتصار المسيحية وانتشارها بمصر، وظهور بعض المذاهب الكنسية وتعصب أهل الإسكندرية بشدة لهذه المذاهب، التى ارتبط معظمها بتفسير طبيعة السيد المسيح، واشتد النزاع بين الأحزاب المتنازعة المتعادية من يهود ووثنيين وأرثوذكس ومونوفيزتيين وادى ذلك إلى حدوث مناوشات ومشاحنات بينهم، وامتلأت الإسكندرية وسائر الأقاليم المصرية بالاضطرابات والمعارك، خاصة فى القرنين الخامس والسادس، وعلى هذا النحو كانت الإسكندرية مسرحًا للمعارك والمشاحنات والاضطرابات وشهدت تلك المدينة حياة صاخبة من جراء ذلك .

حرصت الحكومة البيزنطية على استتباب الأمن، واقرار السلام فى مدينة الإسكندرية، ولهذا اتبعت نفس الوسائل التى كانت سائدة فى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، بأن درجت على توزيع الطعام والنبيذ بالمجان على العامة، وحرصت كذلك على أن توفر لهم وسائل التسلية واللهو، وكذلك مشاهدة المسارح ؛ من ذلك ما قرره الإمبراطور دقلديانوس فى عام ٣٠٢م من توزيع القمح بالمجان على فقراء الإسكندرية، وقد أبقى من خلفه من الأباطرة على ذلك

الامتياز، الذى تمتعت به مدينة الإسكندرية . فقد قام قسطنطين بعد أن نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الشرق بزيادة كمية القمح التى سمح بها سلفه دقلديانوس، وذلك لاسترضاء الشرق وأهله وخاصة مصر، التى كانت مستودع الغلال بالنسبة للإمبراطورية، وأكثر من ذلك سمح قسطنطين بتوزيع النبيذ على أهل الإسكندرية وبمشاهدة الملاهى، وذلك لتكون الإسكندرية كالقسطنطينية فى ذلك . وحرص الإمبراطورية جستنيان أيضًا على منع تأخير توزيع القمح، مما يدل على حذر الإمبراطور من أن يؤدى هذا التأخير إلى أن يقع بالمدينة ما يثير أهلها المشهورين بحدة المزاج .

ومن **مظاهر الحياة الاجتماعية** أيضًا بمدينة الإسكندرية انتشار الحمامات العامة بها، وقد تولت الحكومة الانفاق على جزء من هذه الحمامات إذ تكلفت بوقودها مع بعض النفقات النثرية، وتحمل كبار الاقطاعيين الجزء الآخر . وتردد الأهالى على الحمامات العامة، واهتموا بتزيينها وإمدادها بالماء الساخن وغرف البخار، واحتوت هذه الحمامات على غرف خاصة بالنساء.

ويتكون الحمام من عدة حجرات مزينة بالأعمدة ذات التيجان الجميلة، وبه صنابير للمياه الباردة وأخرى للماء الساخن وغرف للبخار. وفى بعض الحمامات خصصت أماكن للنساء كما سبق أن ذكرنا. وجرى تزيين حوائط الحمام بنقوش بارزة، ولونت بألوان ومع غلبة الديانة المسيحية والفن القبطى، ظهرت أنواع من الحمامات تعرف بالدعامات التى ترفع حجرات الحمام المختلفة عن الأرض.

ومن أشهر الحمامات حمام كوم الدكة بالاسكندرية، وهو حمام خاص استخدم فى فترات من اليوم للنساء، وفترة للرجال، وبه حمام خاص لصاحبه وحمام أطفال. وقد تعرضت بعض الحمامات للزلازل منها زلزال عام ٥٣٥م

ولكن ما لبث أن أعيد ترميمها.

وكذلك انتشرت بالإسكندرية المسارح والملاهى وفرق الرقص والتمثيـل والموسيقى وحرصت الحكومة على أن توفر لأهل الإسـكندرية هـذه المتعـة، فعندما قرر جستين أن يطرد من بلاد الشرق المشـتغلين بـالرقص، اسـتثنى الإسكندرية من هذا القرار .

وكما حدث فى القسطنطينية من ظهور الأحزاب السياسية التى لعبت دورًا هامًا فى السياسة الدينية للإمبراطورية كذلك كان الحال فى الإسكندرية فقد كان بها حزبين كبيرين هما حزب الزرق وحزب الخضر، ولعب هذان الحزبان دورًا كبيرًا فى مختلف النواحى السياسية والاجتماعية والدينية، وتسببا فـى أحـداث العديد من الاضطرابات فى الإسكندرية وإشاعة الفوضى بها، ولذلك حرصـت الحكومة البيزنطية على عدم بيع الأسلحة التى تنتجها مصانع الحكومة للأفراد، كما فرضت غرامة كبيرة على كل موظف يهمل فى تنفيذ هذا القرار، بل وتقرر مضاعفة الغرامة على الدوق الاوجستال بالإسكندرية بصفة خاصة وذلك حرصًا على عدم وقوع الفتن والثورات فى مدينة الإسكندرية .

وحرص أهالى الإسكندرية على الاحتفال بالأعياد والمناسـبات وخاصـة الأعياد الدينية، وأهمها أعياد القديسين ومن أمثلتها الاحتفال بعيد القديس شنودة، يوحنا الانجيلى، والقديس ميخائيل، والقديس كوزمـاس، والعـذراء وغيـرهم. وأشرف رجال الدين على هذه الاحتفالات والأعياد، وقام الأهالى بتقديم هبـات للكنائس فى تلك المناسبات.

أما عن **الطبقات الاجتماعية** التى عاشت فى مدينة الإسكندرية، فيأتى على رأسها (**طبقة الارستقراطية**) أو (**كبار الاقطاعيين**) . لعبت هذه الطبقة دورًا كبيرًا فى المجتمع فى العصر البيزنطى، وتمتع أفرادها بدرجة كبيرة من النفوذ

والسلطان، كما كان لها نظامًا اجتماعيًا خاصًا بها . ويتضح نظام حيـاة كبـار الاقطاعيين من خلال المعلومات التى وصلتنا عن إحـدى الأسـر الاقطاعيـة الكبيرة وهى أسرة (أبيون)(*) وكانت تتألف من ثلاثة أجيال متعاقبـة أبيـون الكبير ثم ابنه فلافيوس (أبيون الثانى) الذى شغل منصبًا هامًـا فـى الفيـوم (أرسينوى) فى عام ٥٥٦م، ربما كان منصب (الباجرك أى المحافظ) وتوفى فى عام ٥٧٧ أو ٥٧٩م، ثم ظهر ابيون الثالث فى الفترة من (٦١٥ - ٦٢٥م) وهو اخر افراد هذه العائلة، وقد لعب دورا هاما وبارزا فى تاريخ الكنيسة خلال تلك الفترة حيث حاول التوفيق بين الكنيسة المونوفيزتيـة والخلقدونيـة.، وقـد أقامت هذه الأسرة بمدينة البهنسا وعاشت بها نحو ١٥٠ عامًا، واشتهر افرادها بأنهم من كبار الأعيان ومن أصحاب الشهرة والصيت بل ومن كبـار السـادة، وشاد الناس بمجدهم العريق، وكانوا ينادونهم بألقاب (أصحاب السعادة).

شغل كبار الاقطاعيين الوظائف العليا، وحظوا بالمراتب الرفيعـة ومـن بينها وظيفة الوالى الكبير، والوالى الاوجستال، ومتولى الخزانة الإمبراطوريـة ومنصب حامى المدينة، وأمير المـنح والعطايـا المقدسـة والاسـتراتيجوس ومنصب القنصل (المستشار)، ومنهم من عمل كرسول للإمبراطور، وذهب إلى بلاد فارس لعقد صلح واتفاق معهم مثلما حدث لابيون الاكبر فى عام ٥٠٣م إذا كان رسول الإمبراطور لحسم الخلاف بين العرب سواء كانوا إتباعًا الفـرس أم

(*) ظهرت عائلة أبيون فى عام ٤٩٧م، وكان أبيون مؤسسها مصـريًا مـن كبـار مـلاك الأراضى وكان كما يصفه البعض رجلاً مصريًا نشيطًا، بارزًا بين النبلاء، ورغم أنه كان يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة المخالف لمذهب الإمبراطورية البيزنطية إلا أن الإمبراطور انستاسيوس خول له السلطة لتصريف شئون الإمبراطورية، كما عمل لـه سـفيرا لـدى الفرس فى عام ٥٠٣م. وعاش أبيون حتى عام ٥١٨م ويرجع له الفضـل فـى المركـز السامى الذى تبوأته أسرته فى القرنين السادس والسابع .

العرب إتباع الروم ومنهم من لعب دورًا فى مجال توحيد الكنيسة المونوفيزتيـة والخلقدونية، ومنهم من اشترك فى بعض المجامع التى عقدت القسطنطينية لإعادة الوحدة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية كنائب عن الإمبراطور .

وكان يخلع على أفراد كبار الاقطاعيين كذلك إلقابا شرفية مثل لقب قنصل ولقب بطريق(*)، وذلك لما تمتعوا به من ثروة طائلة . وكان أصحاب هذه الألقاب ذوى وضع اجتماعى متميز فى المجتمع .

حاز أفراد هذه الطبقة أملاكًا شاسعة لا فى البهنسا فحسب بل فى سائر أنحاء الفيوم (ارسينوى) ومصر كلها، وامتلكوا قرى بأكملها، هذا إلى جانب قصورهم التى كانوا يعيشون فيها بالمدينة على نحو ما يعيش الإمراء . إذ كانت قصورًا عامرة بالخدم والحشم وزاخرة بكل إلوان البزخ والترف . ومن الملاحظ أن افراد هذه الأسر سكنوا بالمدن، وليس بالريف حيث مزارعهم واقطاعاتهم، وذلك على الرغم من أنه كان لديهم منازل بالريف .

كان لتلك الأسر الإقطاعية جيوشًا خاصة بها، تتألف من الجنود المأجورين المعروفين باسم (بقلار أى الإتباع) وذلك للدفاع عن ممتلكاتهم من كافة الإعداء كما كان لديهم سجونا خاصة بهم، ويودعون بها من يرونه مخلا بالأمن. وعلى الرغم من أن القانون كان يحرم اتخاذ الجند الخاص المأجورين وإقامة السجون داخل الضياع الخاصة وذلك حرصًا على أن تكون السلطة

(*) البطريق Patrician رتبة عسكرية أنشأها قسطنطين العظيم، وجعلها وظيفة شرفية ذات نطاق محدود جداً، ثم زادت أهميتها فى الدولة البيزنطية فى القرن الخامس الميلادى. وكان البطريق قائد عسكرى يتولى قيادة عشرة آلاف رجل، ويعرف كبير البطارقة باسم الدمستق؛ وفى عهد الإمبراطور جستنيان اهتم بها وأعطاها رونقها العسكرى والأدبى بعد ذلك.

السياسية والعسكرية مركزه في يد الوالى البيزنطى، وحتى لا تشكل هذه الأسر خطرًا فيما بعد على الحكم البيزنطى إلا أنهم ضربوا بالقانون عرض الحائط إذ أن العرف والتقاليد أقوى من القانون، فأضحى لسائر كبار الشخصيات بمصر حرس خاص، وجعل كل مالك لضيعته شرطة خاصة به، فكان لأسرة (أبيون) رئيس للشرطة تولى حراسة الماشية والآلات الزراعية وتعهد بالقبض على اللصوص .

بلغت هذه الأسر الاقطاعية من السلطة والنفوذ لدرجة أن سكت بأسمها عملة خاصة، كما كان لها بريدًا خاصًا بها . ولما كانت الخيول هى المستخدمة فى البريد فى تلك الفترة فقد انشأت الأسر الاقطاعية محطات للخيل على ممرات الطرق وذلك لتزويد الخيل بما يحتاج إليه من مؤن وعلوفات، وبما يحتاج إليه صاحب البريد من ماء وطعام .

كان لتلك الأسر الاقطاعية أيضًا جهاز إدارى وموظفين وكتبة ومحاسبين ومحصلى ضرائب، يقومون بخدمتهم ويعاونهم فى تحصيل الضرائب وفى ضبط حساباتهم – كما كانت لهم أساطيل تجارية خاصة بهم لنقل محصولاتهم عبر النيل .

تميزت هذه الأسر عن سائر طبقات المجتمع فى كونها لا تؤدى الضرائب لخزانة الولاية الواقعة فى نطاق الأراضى الزراعية الخاصة بها، بل تؤديها للخزانة العامة بالإسكندرية مباشرة، وأن دل ذلك على شئ أنما يدل على ما تمتعت به هذه الأسر من هيبة ومكانة عالية، فصلتها كانت مباشرة مع والى مصر البيزنطى .

شاركت هذه الأسر الاقطاعية فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من ذلك أنها شجعت سباق العربات أو سباق الخيل، وأخذ أفراد هذه الأسر على عاتقهم – خاصة الأثرياء منهم – انشاء الاصطبلات لتربية خيول السباق

والانفاق عليها . كذلك أقامت هذه الأسر الحمامات العامة فى مختلف أنحاء العاصمة (الإسكندرية)، كذلك انشأوا المستشفيات والمصارف والكنائس والأديرة وغيرها من المنشآت التى تخدم المجتمع، وتولوا الانفاق عليها .

يتضح مما سبق أن طبقة الارستقراطية أو كبار الاقطاعيين تمتعت بكل خصائص الدولة، فكان لها جيش وأسطول وبريد وجهاز إدارى وموظفين . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى شارك أفراد هذه الطبقة فى الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر البيزنطى .

ومن الطبقات الأخرى التى لعبت دورًا هامًا فى الحياة الاجتماعية بمدينة الإسكندرية (**طبقة رجال الكنيسة أو رجال الدين**) وعلى رأسها بطريرك الإسكندرية الذى تمتع بثروة طائلة، استمدها من املاكه الشاسعة ممثلة فى الأراضى والعقارات، ومن هبات الأباطرة وسائر الناس، ومن ضياع الكنيسة الواقعة خارج مدينة الإسكندرية، فقد كان للبطريرك ضياع فى إقليم الفيوم .

كما كان لكنيسة الإسكندرية أسطول مؤلف من ١٣-٣٠ سفينة كبيرة، استخدمت فى تجارة البحر التوسط والبحر الادرياتى التى حققت للكنيسة ارباحاً وفيرة .

وكانت خزانة الكنيسة عامرة بالأموال مما أتاح الفرصة للبطريرك لأن يوزع الأموال على من يقصدونه، ويقوم بأطعام فقراء المدينة، بل كثرت لديه الأموال لدرجة أنه كان يقرض الحكومة البيزنطية إذ اقتضت الحاجة ذلك. ولهذا أثارت الثروات الطائلة التى تمتع بها رجال الكنيسة، وامتلأت بها خزائنها مخاوف الأباطرة وقلقهم، ولذلك أعطى جستنيان لنفسه الحق فى الإشراف على اختيار الموظف الموكل بالخزانة هذا فى حين أنه كان يتبع البطريرك فى واقع الأمر .

ولم تكن مكانة البطريرك الروحية أقل من مكانته الدنيوية فهو سيد الكنيسة لا منازع، وأقوى شخصية بالإسكندرية ولذلك كان من الضرورى أن تهتم الحكومة البيزنطية بشخصية البطريرك، وكان الإمبراطور إذا اطمأن إلى شخصية البطريرك يجرى الاتفاق بينهما وتستقيم الأمور، وتستقر أحوال البلاد .

والحقيقة أنه بانتشار المسيحية فى مصر اصطبغت الحياة الاجتماعية بها بصبغة مسيحية، ولعبت الكنيسة دورًا كبيرًا فى الحياة الاجتماعية سواء بالعاصمة الإسكندرية أم بمختلف قرى الريف حيث انتشرت الكنائس فى شتى أنحاء القطر المصرى كما انتشرت الأديرة والرهبانية فى أنحاء مصر وكان لانتشارها أثار اجتماعية كبيرة على المجتمع المصرى، كا سبق أن ذكرنا.

وإلى جانب طبقة الارستقراطية وكبار الاقطاعيين وظهور قوة الكنيسة وطبقة رجال الدين، عاشت بالإسكندرية **(طبقة ثالثة متوسطة الحال)**، تمتعت فى مصر بمستوى طيب. كما شملت هذه الطبقة :

(١) فئة الموظفين الإداريين الذين تولوا الوظائف الصغرى فى الأقاليم مثل كتبة السجلات، ومسئولى المصارف والمشرفين على جمع الضرائب

(٢) صغار الملاك (أعيان القرى) وقد تولوا مجالس القرية، وخضعوا لتعسف الإدارة البيزنطية.

(٣) فئة التجار الذين انتظموا فى شكل نقابات، والصناع والحرفيين، وكانت لهم نقابات تضمهم كذلك مما يدفعنا إلى الحديث عن نقابات طوائف الحرف.

نقابات طوائف الحرف

لم يكن للحرف فى بداية ظهورها مراكز إعداد تعلم أصولها، إنما كانت

وراثية تنقل من الآباء إلى الأبناء الذين ينقلونها بدورهم إلى أحفادهم. وتظل قاصرة على أسرة أو أسر معينة تحتكر أسرارها ولا تفرط فيها. وقد تنوعت الحرف وتعددت كما اتضح من أوراق البردى فمنها : صائدى الأسماك، الخبازين، الجزارين، السقائين، الطباخين كذلك يتبع هؤلاء تجار هذه السلع مثل بائعو الأسماك، وبائعو الخبز، وبائعو الزيت، وبائعو الفاكهة وتجار الغلال وتجار الملح وغيرهم. وصناعة الأقمشة الكتانية والصوفية وتضم مجموعة كبيرة من الحرف منها : الجزازون ومهمتهم قص صوف الأغنام، والنساجون الذين يقومون بنسجه وكذلك من يقومون بغزل الكتان ونسجه وبائعوه. وصناع الفخار، البناءون، النجارون، الحلاقون، صانعو الزجاج.

تعريف النقابة :

جماعة من الأفراد، تجمعوا بارادتهم الحرة، لتحقيق مصلحة متبادلة ودائمة لهم فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والدين .

وأصل هذه النقابات مصرى، وتأثر بالنظم اليونانية الوافدة إلى مصر منذ أيام الإسكندر. واتخذت هذه النقابات صبغة الشرعية إذ يوقع على ميثاقها أعضائها تعبيراً عن موافقتهم إقامتها أو إنشائها -فهناك قائمة لخمسة توقيعات فى قانون أحدث النقابات ترجع إلى القرن الخامس الميلادى توضح أنها قامت باختيارهم الحر- تظهر موافقتهم على الالتزام بقوانينها وعلى هذا تستمد النقابات شرعيتها من مبدأين مهمين :

الأول : أن أعضاء النقابة اتفقوا بإراداتهم الحرة فيما بينهم على قواعد عامة ملزمة للجميع.

الثانى : أن هذا القانون الذى اتفقوا عليه يجرى تسجيله فى السجلات الحكومية الرسمية. لذلك يوقعوا على قانون نقابتهم فى آخره، وهذا يعنى الموافقة عليه.

ويختار لكل نقابة رئيس من بين أعضائها، ويستمر فى منصبه لمدة عام، قابل للتجديد، ويفوض إليه تنفيذ النظم والقواعد المتفق على احترامها. كما يختار للنقابة كاتب فى حالة واحدة وهى إذا كان رئيس النقابة لا يعرف الكتابة. ومـــن ألقاب رئيس النقابة(المشرف، القائد، الحاكم).

أغراض النقابة : (مالى)

تقوم النقابة بتوفير المال لمواجهة مطالب الحكومة، ويتولى رئيس النقابة جمع الأموال من أعضائها وتحصيلها وحفظها، وعليه أن يحـــاكم المقصـــرين ويضعهم فى السجن، كما أن عليه أن يسدد ما على النقابة من أموال شـــهرياً. ويقوم أعضاء النقابة بتقديم مبالغ مالية للمساهمة فى مصاريف النقابة وهى أشبه باشتراكات منتظمة.

يتضح من ذلك أن **الواجبات المالية** المفروضة على أعضاء النقابة هى:

- سداد الضرائب العامة، ومواجهة طلبات الدولة شبه الإجبارية.
- سداد مصاريف النقابة نفسها وهى أشبه باشتراكات منتظمـــة (علىالـــولائم الشهرية – احتفال النقابة مع الرئيس بعيد ميلاد الإمبراطور وما يقدم فيـــه من طعام أو شراب).
- النفقة على اجتماعات الرئيس مع أعضاء النقابة.

الواجبات الاجتماعية :

تظهر الواجبات الاجتماعية المفروضة على أعضاء النقابات فى :

– تقديم المعونات لمن يحتاجها من زملائهم فى النقابة وعدم تركهم فـــى حالـــة العسرة، هناك وثيقة فريدة ترجع إلى عـــام ٤٢٦م تـــنص علـــى ضـــرورة التضامن والتعاون بين أعضاء النقابة جاء فيها : " إذا حدث لأى منا أن وجد

نفسه مديناً أو تحت ضغط طلبات أخرى، فيجب علينا .. الا نتركه إلا بعد أن يحصل على المساعدة وإذا تخلى عنه أحد، يخضع أو يتعرض للعقوبة التـــى تنص عليها الأعراف..."

- الامتناع عن انتهاك حرمة الأعضاء الآخرين، عدم اتهام عضو لعضو آخــر أو تشويه سمعته، عدم التآمر ضد أحد أعضاء النقابة،
- المشاركة فى المآدب العامة والاحتفالات الدينية والعائلية والجنـــازات ففـــى حالة وفاة أى عضو من أعضاء النقابة، فعلى الجميع مشاركته فى أحزانـــه فكان قانون النقابة يشترط عليهم حلق رؤوسهم، وإقامة جنازة علـــى شـــرفه لمدة يوم واحد، ويساهم كل عضو من أعضاء النقابة بمقـــدار مـــن الطعـــام والمال لإقامة وليمة؛ وعلى كل عضو احترام جنازة المتـــوفى، وعليـــه أن يضع على قبره اكليلاً من الزهور.لذلك لا تعجب من أن أعضاء النقابة كانوا يدعون زملاءهم فى النقابة بالأخ.
- المشاركة فى الاحتفال بالعيد السنوى للنقابة وكان يتم فى اليوم الأول والثانى من شهر طوبة.

أما (**الطبقة الرابعـــة**) التـــى عاشـــت بمدينـــة الإســـكندرية فهـــى (**طبقـــة العامة**)، وكانت هذه الطبقـــة أحســـن حـــالاً مـــن فقـــراء الريـــف، إذ كانـــت تحصل علـــى الطعـــام والشـــراب بالمجـــان وتشـــاهد الملاهـــى والمســـارح بالمجان أيضًا.

الحياة الاجتماعية فى الريف :

الحياة الاجتماعية بالريف دارت أساسًا حول الفلاح المصرى، مع بدايـــة العصر البيزنطى بدأ الفلاح المصرى فى تملك الأرض بعد أن كان مســـتاجراً، وكانت غالبية الأرض موزعة فى ملكيات صغيرة، وكانت عقود الإيجار والبيع التى ترجع إلى العصر البيزنطى تشير إلى أن طرفى العقد أحرار فى تعـــاملهم،

فالفلاح له حق التأجير على قرون بضمان أرضه، وكانت عقود الإيجار تتضمن شروطاً لصالح المالك والمستأجر. وقد عاش الفلاح المصرى فى القرن الرابع الميلادى فى حالة يرثى لها، إذ وقع على عاتقه مجموعة كبيرة من الضرائب بالإضافة إلى أعمال السخرة المستمرة وعجز عن الوفاء بها للظروف الاقتصادية السيئة فى ذلك الحين والتى أدت إلى ظهور نظام الحماية. لذلك اعتاد الفلاح المصرى فى هذا العصر أن يحيا حياة الذل والاستكانة والخضوع، وذلك على عكس ما كان عليه الفلاح المصرى فى عصر البطالمة، فقد تمتع الفلاح فى العصر البطلمى بشخصية قوية ويظهر ذلك من خلال مخاطبة أحد الفلاحين لبطليموس الأول فى إحدى شكاواه والتى يقول فيها : " من انتيجونوس إلى الملك بطليموس، سلامًا . أن باترون رئيس الشرطة فى المركز الشمالى يتعسف معى " ويتضح من ذلك أن مقدم الشكوى إنما كان يخاطب الإمبراطور أو الملك كندا له، فهو يخاطبه بلا ذل أو هوان.

وعلى العكس من ذلك تمامًا نجد المخاطبات التى دارت فى العصر البيزنطى بين الفلاحين المصريين والسادة الاقطاعيين تمتلئ بأساليب الخضوع والذل والعطف وأبرز مثال على ذلك خطاب من أحد الفلاحين الأحرار إلى سيده أبيون، ويرجع هذا الخطاب إلى القرن السادس وجاء فيه.." إلى سيدى الخير، محب المسيح، محب الفقراء، أبيون شريف طيبة ودوقها الموقر الأفخم من "أنوب" عبدك البائس المقيم بضيعته " فاكرًا Phacra التابعة لك " .

أما عن الفلاح فعلى الرغم من أنه لم يكن فى بداية الأمر ثمة قوانين فى مصر البيزنطية تربط الفلاح بالأرض. فإن أفق الفلاح لم يتجاوز حدود قريته الضيقة، ولم يتعد تفكيره تلك الحدود وظل الأبناء يتوارثون حرفة الزراعة من الآباء فى الوقت الذى أضحت فيه حيازة الأرض وراثية. ولم يكن ارتباط الفلاح بقريته أمراً محتماً ودائماً. وإنما تسببت عوامل أحياناً فى انتقال الفلاحين إلى

أماكن أخرى، إذ تعرضت الأرض الواقعة علـى حافـة الصـحراء للإهمـال والخراب وهجرة السكان بسبب انخفاض النيل أو إهمال تطهير الترع او توالى رداءة المحصول. وأحياناً أخرى اجتذب النشاط الصناعى والتجـارى لـبعض المدن أعداداً كبيرة من سكان القرى، خاصة حين دخلت مصر فى محيط تجارة البحر المتوسط. ونمت بعض مدنها الصناعية والتجارية مثل الإسكندرية.

هذا وانقسم سكان الريف من الفلاحين إلى طبقتين هما :

١ – طبقة المزارعين الأحرار :

وهم أما ملاك لبعض الملكيات الصغيرة، وأما مستأجرون لـدى مـلاك متوسطى الحال، والفلاح الحر هو الذى نشأ بقريته وارتـبط بأرضـه وجـرى تسجيله فى تعداد الدولة سواء أكان مستقلاً بنفسه أو حاصلاً على حماية جـاره الأقوى. وهذا الفلاح يقوم بزراعة أرضه ويورثها لأبنائه لزراعتها أيضاً. وقد امتلأت وثائق مصر البيزنطية منذ أواخر القرن الخامس الميلادى بأخبار هـذه الفئة من الفلاحين الذين اسمتهم الفلاحين القراريين. وعلى الـرغم مـن تمتـع هؤلاء بالحرية من الناحية النظرية إلا أنهم كانوا مربوطين بالأرض، ويحظـر عليهم مغادرتها، حرصًا على مصلحة الدولة وحفاظًا على الإنتاج الزراعـى . فحين ضاقت الدولة بفرار الفلاحين من ضريبة الرأس، أصدرت القوانين التـى تحرم انتقال الفلاح من قريته وذلك حتى تضمن الدولة جمع ضرائبها، وبذلك فقد الفلاح حريته فى الحركة والانتقال وارتبط بالأرض .

٢ – طبقة أقنان الأرض أو مزارعو الضياع الكبيرة :

وتلتزم هذه الطبقة بزراعة أرض الدولة سواء أن كانت ملكا للحكومـة أو الإمبراطور بطريق السخرة، كما تقوم هذه الطبقة بخدمـة أصـحاب الضـياع الكبيرة، وهم مربوطين بالأرض، بأماكن معينة لا يغادرونها وبلـغ مـن شـدة

ارتباطهم بها، أنهم أصبحوا من مقوماتها بنسائهم وأطفالهم وماشيتهم ومتاعهم وليس بوسعهم أن يغادروها . وقد وصفهم المؤرخ بل (بارقاء الأرض).

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة التى ربطت بين الفلاحين القرارين–الذين – سعوا بمحض إرادتهم للحصول على حماية جيرانهم الأقوياء من (كبار الملاك) وبين هؤلاء السادة الأقوياء، جرت فى إطار عقد خاص يتمثل فى إعلان الفلاح ولاءه وخضوعه لسيده، وتعهده بالقيام بأعباء الزراعة، وأداء ما يتقرر عليه من ضرائب، وفى مقابل ذلك يقوم السيد بتسليمه أدوات الزراعة والبذور وغير ذلك كما يقرضه أحياناً أموالاً يتعهد الفلاح بتسديدها، فإذا لم يؤد الفلاح هذه الالتزامات تعرض لتوقيع الجزاء المنصوص عليه فى العقد، مع اعتباره مواطناً له كيانه وشخصيته المميزة التى أتاحت له حق التعاقد أو رهن أرضه أو تقديم ضمان يغطى تسديد ما هو مطلوب منه، ولهذا لم يقم دليل من هذا العصر على أن هذا الفلاح كان قناً أو عبداً بالمعنى المعروف. لذلك يرى المؤرخون أن هذه العلاقة بين الفلاح وسيده لم تكن تنقص كثيراً من شعور الفلاح بأنه عامل حر ولد حراً ونشأ حراً، ودرج على أن يكتب اسمه واسم أبيه وأمه.

وعلى هذا فإن وجود القنية والأقنان بالمعنى الدقيق فى مصر البيزنطية يحتاج إلى أدلة على الرغم من نمو الملكيات الخاصة على حساب أراضى الدولة، وازدياد اتساع هذه الملكيات الخاصة بمرور الزمن، مما أدى إلى وجود ملكيات كبيرة فى ذلك العصر. ويستشهد بعض المؤرخين على عدم وجود القنية فى مصر البيزنطية بانخفاض الضرائب العينية انخفاضاً محسوساً مما يدل على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما جعله يتصرف فيها بالبيع فى السوق الحرة. كما يستدلون على ذلك بنمو المسيحية وانتشار الرهبانية والديرانية التى ناهضت كل محاولات إنزال الناس إلى رتب العبودية أو إلحاق الأذى أو الظلم بهم، لأنه كلما تعرض الفلاح لنوع من العسف أو الجور وجد فى الكنيسة حامياً ونصيراً.

وضع المرأة فى العصر البيزنطى :

شاركت المراة مشاركة فعالة فى الحياة العامة، وتمتعت بحريـــة تامـــة، ونالت نساء الطبقة الارستقراطية اهتمامًا خاصًا فيذكر لنا التــاريخ المصــــرى أسماء نساء شهيرات سواء كن مسيحيات أم وثنيات لعبن دورًا هامًا فى مختلف الميادين وخاصة فى ميدان العلم والمعرفة، وعلى رأسهن " هيباشيا " وهى ابنه الفيلسوف وعالم الرياضة الوثنى " ثيون Theon " وكانت عالمـــة كابيهــا فـــى الرياضة والفلسفة ويبدو أنها تمتعت بشهرة علمية وخلقية كبيرة، وهيــأت لهـــا مكانتها وشهرتها من المكانة ما جعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الإسكندرية الذين أعجبهم ما اشتهرت به من الطهر والعفاف . وادت شهرتها إلى زيادة مريـــديها وطلابها .

وشاركت المرأة فى العصرالبيزنطى فى جميع أوجه النشاط الاقتصـــادى والاجتماعى والمالى فهناك العديد من الروايات الخاصة بعقــود بيـــع وشـــراء عقدتها المرأة، كذلك امتلكت بعض النساء مساحات من الأرض ووجد بينهن فى العصر البيزنطى صغار ملاك ومزارعات ومستأجرات سواء فى أراضى الدولة أو أراضى الكنيسة أو أراضى السادة الاقطاعيين.كما أن عدداً من نساء أســـرة أبيون الاقطاعية امتلكن ضياعا كبرى، بـــل تـــولين إدارة ضـــياع أزواجهـــن، واشرفن على جباية المحصول ودفع الضرائب إذ جاء فى رسالة وكيل أبيـــو ن لزوجته، "فلتعلم سيدتى أن أوامره لم نهملها ولكن نفذت..". كان التعامـــل يـــتم مباشرة بين المرأة ومستاجرى أرضها ودافعى الضرائب بدون تدخل أو وصاية.

وكثر عدد النساء اللاتى عملن كمزراعات بداية مـــن القـــرن الخـــامس الميلادى خاصة بعد أن أصبحت الحاجة ماسة إلى أيدى عاملة نتيجة لهـــروب الفلاحين من الأرض لكثرة الأعباء المفروضة عليهم مما ترتب عليه أن تحولت معظم الأرض الزراعية إلى أرض بور. كذلك تضمنت بعض سجلات دافعـــى

الضرائب أسماء عدد من النساء ممن يعملن كمزراعات . وقد تعرضت المـــرأة نتيجة لعملها بالزراعة لقسوة جامعى الضرائب شأنها فى ذلك شأن الرجل.

ومن المهن الأخرى التى احترفتها النساء كذلك فى مصر فـــى العصـــر البيزنطى التجارة فى الأسواق. وأبرمت المرأة – خاصة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين – عدداً من عقود البيع والشراء، كما كان للمرأة الحق فـــى التصرف فى ميراثها بالبيع والشراء بلا أى عائق، وفى حالة البيع إذ شـــاركت المرأة الرجل عقد البيع فلابد من توقيعها عليه شأنها فى ذلك شأن الرجل . ففى عقد بيع منزل من عصر جستنيان باع شخص يدعى يعقوب وزوجتـــه منـــزلاً بالاشتراك فوقع على عقد البيع كل منهما كمالك مستقل.

ولم يحرم على النساء الخروج فـــى شـــوارع الاســـكندرية والاخـــتلاط بالرجال، ولكن نتيجة لاسراف النساء وخاصـــة نساء الإسكندرية ومغالاتهم فى ملبسهن وزينتهن، أنبرى عدد من رجال الدين فى توجيه النصح والأرشاد لهـــن تارة واللوم عليهن تارة أخرى حتى يقللن من تبـــرجهن، وعلـــى رأس هـــؤلاء (كلمنت السكندرى) الذى وجه نقدًا شديدًا إلى نســـاء الإســـكندرية لـــرغبتهن الشديدة فى استخدام المساحيق، وفى ارتداء الملابس والأقمشة الحريرية والثياب الموشاة بالذهب، والثياب ذات الذيول الطويلة التى تهدئ مـــن الســـير، وتبـــدو وكأنها تكنس الأرض – على حد تعبيره – وكذلك لبس الملابس القصيرة التـــى تكاد تستر أجسادهن . وكذلك ارتداء الأحذية التى كتب على نعالهـــا عبـــارات الحب التى تثير غرائز من يقرأها من الرجال .

واشتد كلمنت فى لوم النساءلما يظهرنه من عناية بالغـــة واهتمـــام زائـــد بشعورهن وصباغتها واتخاذ الشعر المستعار، وحرصهن على أن يجعلن مـــن شعورهن تراكيب هندسية بالغة التعقيد، وامعن فى المحافظة عليها . ولذلك حمل كلمنت على الحلاق حملة شعواء، إذ أنه تفنن فى عمل الضفائر المثيـــرة التـــى

شغفت بها النساء، كما قام بتزين وجوههن وإزالة ما بها من شعر زائـد، ومـا يتبع ذلك من لمس الحلاق لوجوه النساء وخدودهن . غير أن صيحات كلمنـت ذهبت أدراج الرياح، فلم تسمع نساء الإسكندرية نصائحه، واستمرت في التزين والتمتع بكل ألوان الترف والأبهة .

وعلى الرغم من تمسك نساء الإسكندرية بمظاهر الترف والأبهة، إلا أنهن تمسكن أيضًا بالحفاظ على الأسرة وما يتبع ذلك من حقوق وواجبات ويبـدو أن الديانة المسيحية هي التي أضفت هذه العادة الطيبة على المجتمـع المصـرى . فعن طريق تعاليم الدين المسيحي، تم تحديد الواجبات التي يلتـزم بهـا الأزواج والزوجات، كما ساعدت على وجود نوع من الترابط الأسرى والاجتماعي .

وإذا كانت سيدات المجتمع قد تمتعت بحرية تامة في الاختلاط والمشاركة في الحياة العامة، فإن البنات العذارى لم يتمتعن بمثل الحرية التي تمتعت بهـا النساء المتزوجات، فكان الخجل يسيطر على تحركاتهن، وذلك حتى يتـزوجن ويشاركن في المجتمع مشاركة فعالة .

وإذا كانت الفرصة متاحة أمام نساء العاصـمة للمشـاركة فـي الحيـاة العامة، فإن الفلاحـات مـن نسـاء الريـف قضـين أوقـاتهن بـين الحقـل والمنزل، وشاركن أزواجهن مشاركة فعالـة فـي الحقـول إلـى جانـب مـا قمن به من أعمال منزلية كالطهي وإعداد الملابـس وغـزل الثيـاب الكتانيـة وغير ذلك .

وضع المرأة في الأسرة :

إذا كان القانون قد جعل الرجل صاحب السلطة العليا بمقتضى السلطة الأبوية سواء مع زوجته أو بناته إلا أن المرأة كانت تحظى باحترام كبير بين جميع الطبقات سواء بين الطبقات العليا ثم الدنيا، وإن كان الوضع قد اختلف بين

المرأة فى مصر وحياتها واهتماماتها وبين المرأة الرومانية ذات الأصل اليونانى، وبين حياة نساء العواصم وحياة نساء الريف" كما سبق أن ذكرنا.

وكانت لهجة التخاطب بين الأزواج والزوجات تتسم بالاحترام فيخاطب الرجل زوجته بأم أبنائه وبأخته والسيدة، ويخاطب الأبناء أمهاتهم بسيدتى الأم، كما كان الأخ يخاطب أخته بسيدتى الأخت، فقد طلب أخ من أخته أن تجمع المال الخاص به وترسله لزوجته قالاً لها "أنا أرغب أن تعرف سيدتى الأخت..." وكانت العلاقة بين أفراد الأسرة عامة تتصف بالترابط والتعاطف.

فالمرأة كانت تشرف على شئون المنزل وإدارته وتدبر أمور الأسرة ويعاونها الخدم. وكان على الرجل أن يطلع زوجته على جميع أمور المنزل ولا يخفى عنها شيئاً ولا يمنعها من الإشراف على أموره المالية ومخازن داره فهذه فى نظره مسئوليتها الخاصة، كذلك من حقها اختيار من يعاونها فى إدارة المنزل؛ كما لم يكن باستطاعة الزوج إجبار زوجته على مرافقته إذا نقل من مكان لآخر. كما كانت الأم تشرف على تعليم أبنائها وتربيتهم وتتابع تحصيلهم العلمى.

ونظراً لأن الزواج هو الرابطة الأساسية لقيام الأسرة وتحديد العلاقة بين الأم والأب والأبناء، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات تتمثل فى الميراث والوصاية وغيرها فلابد من التعرف على شكل الزواج فى مصر فى العصر البيزنطى.

نظرت المسيحية إلى العلاقة الزوجية سر مقدس فعلاقة الرجل بالمرأة كعلاقة المسيح بالكنيسة كما أنها علاقة ابدية كذلك اعتبرت القوانين الزواج كرابطة مقدسة إذ يذكر ثيودوسيوس فى قوانينه "أن الحياة كلها فى هذا الرباط، وكل الحقوق الآلهية والبشرية كذلك"وذكر جستنيان فى موسوعته "الزواج هو رباط بين اثنين رجل وأمرأة يسيران بمقتضاه فى طريق حياة بلا انفصال"،

فالزواج رضى بين طرفين ويضفى عليه صبغة الشرعية وذلك بإعلانه وبانتقال الزوجة إلى بيت الزوجية.

ويلاحظ أن الزواج بأكثر من واحدة كان مسموحًا به فى الأنظمة السابقة، ولكن المسيحية منعت تعدد الزوجات، ففى مجموعة الاوستراكا القبطية فى مصر، والتى شملت مواعظ رجال الدين للشعب المسيحى وتعود إلى الفترة البيزنطية، بنصح الأهالى بعدم تعدد الزوجات والاقتصار على زوجة واحدة وإلا تعرضوا لحرمان الكنيسة، مما يدل على أن التعدد كان موجوداً بين بعض أفراد المجتمع المسيحى.

وكان يسبق الزواج الخطبة فى حضور الأهل والأقارب ويحضر بعضهم الشهود وكانت علامة الخطبة هدايا للخطيبة وخاتم من الذهب أو الفضة. وكان فض الخطوبة معروفاً فى مصر فى العصر البيزنطى، وكان فض الخطبة معروفاً كذلك فهناك العديد من البرديات التى تشير إلى ذلك، وكان يتم أحياناً على يد محامى خاصة إذا بلغت الأب بعض التصرفات المشينة من الخطيب أو سوء اخلاقه وذلك خوفاً على ابنته ورغبته فى أن تحيا فى هدوء وسكينة.

أما عن شروط صحة الزواج فهى :

١- الحصول على موافقة الأب فإذا كان الأب فى سلطان أبيه وجب الحصول على موافقة الجد، ويستثنى رضا الأب فى حالات معينة كجنونه أو أسره لمدة ثلاثة أعوام.

٢- البلوغ : وقد حدده جستنيان فى قوانينه بأربعة عشر عاماً للولد واثنا عشر عاماً للفتاة.

٣- عدم زواج أو مصاهرة ذوى القربى. ففى تشريعات جستنيان الخاصة بالزواج يجب عدم الزواج بين أشخاص من الأصول والفروع مثل الزواج بين الأب وأبنته، وبين الجد وحفيدته وكذلك حرم زواج الأخوة، وأن يتزوج

الرجل ابنة زوجته أو زوجة أبيه، والأم وأبنها والأب وحفيدته فهذا جريمة يعاقب عليها القانون.

ومن المحرمات فى الزواج كذلك زواج الأشراف بالعامة، ولكن ما لبث أن أباحه جستين ليتزوج جستنيان من ثيودورا، ويحرم أيضاً زواج الحر بالمحرر، والخائنة بعشيقها.

أنواع الزواج :

أولاً : الزواج الرسمى أو القانونى ويتم ذلك الزواج بعقد رسمى يسجل فى مكتب العقود بالإسكندرية، وينص العقد على شروط معينة أهمها المهر وهو أما عقارى ولا يحق للزوج التصرف فيه وأما غير عقارى يمكن التصرف فيه كالملابس والأدوات المنزلية وغيرها، وكان الزوج يدفع ما يعادلها مادياً - أحياناً - عند الطلاق. ويذكر فى عقد الزواج حجم الممتلكات ونوعها وثمنها لسببين : تحديد الضرائب ولاعادتها عند الطلاق. وقد نصت جميع عقود الزواج الرسمى فى العصر البيزنطى على هذه الشروط. كما نصت كذلك على تعهدات من الزوج بالمحافظة على زوجته وحسن معاملتها، وامدادها بالطعام والكساء وأن يكون محباً لها، وألا يتخذ عليها زوجة، والا يسئ لها.

ثانياً: زواج التجربة : وهو ليس زواجاً رسمياً، وقد عرف المصريون هذا النوع من الزواج غير المكتوب ومع ذلك فقد كان يتضمن المهر وحقوقاً للزوجة، ولا يرتبط بفترة زمنية معينة، وكانت الزوجة تحظى فيه بالاحترام وعادة ما يتبع بالتسجيل الرسمى.

ثالثاً : زواج المتعة : وكان يحدد بفترة معينة وهو يختلف عن الزواج الشرعى فى عدم التزام الرجل تجاه محظيته، وأولاده منها كانوا لا يدخلون تحت سلطاته، وكذلك لم يكن من حق المرأة الحصول على مهر، ولكن تغير

الوضع وفقا لمراسيم جستنيان فاعترف بشـرعية الأبنـاء. كـذلك أكـد جستنيان فى مراسيمه على أنه على الرجل والمرأة أن يحددا ما بينهما إذا كان زواجاً أو معاشرة، والأبناء فى هذه الحالة يتبعون حالة الأم فيكونـوا أحراراً إذا كانت حرة، ويكونوا عبيداً إذا كانت أمة.

وخلال العصر البيزنطى كان الوضع القانونى بالنسبة للأبناء إذا تزوج الرجل بخليلته يخضع المولود لهما لسلطة أبيه، وذلك لتشجيع الوالـدين علـى تصـحيح علاقتهما. ولم تقبل النساء ذوات الأصل الطيب على هذا النوع من الزواج.

رابعاً : زواج العبيد : وكان فى حكم زواج المتعة، وفى ظل هذا الزواج فـأن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً لا يعتبر عقداً قانونياً بل تفقـد حريتهـا وتلحق بسيد العبد كجارية، ولو تزوجت الأمة حـراً لا يعتبـر زواجـاً قانونياً هو الأخر لأن القانون يشترط الزواج بـين أحـرار. والمـرأة المحررة تظل فى سلطان حاميها أى سيدها السابق إذ ليس لها اسـتقلال ذاتى، ويحق له الأرث فيها إذا لم يكن لها أبناء.

أما عن **الطلاق** : ففى بعض الأحيان كان من الصعب استمرار الزواج بل واستحالته لذا يسعى الزوجان للانفصال وقد حدد القانون الحالات التـى يسـمح فيها بالطلاق منها : عجز الزوج عن القيام بواجباته الزوجية أو عقم الزوجـة، وكذلك الخيانة، وأضاف جستنيان أسباباً أخرى منها : ذهاب الزوجة إلى الحمام العمومى أو إلى الملعب بصحبة رجل آخر وكانت الخيانة تفقد المـرأة مهرهـا وتذهب بها إلى الدير. وقد حاربت الكنيسة فى مصر الطلاق بكل الوسائل ويبدو أن هذا ما دفع جستنيان إلى إلغاء الطلاق فى بعض متجدادته. ويبدو أن ما دفع جستنيان إلى ذلك هو زيادة نسبة الطلاق فى القرن السادس. ولكن جستين الثانى مالبث أن أعاده ثانية لاعتراض الناس.

وكان الطلاق يوثق من موثقين محليين ويكتـب مـن نسـختين عليهمـا

توقيعات الشهود ويصبح بذلك سارى المفعول ومن حق الزوجين تسجيله فى المكتب الرسمى فى الإسكندرية. وفى بعض عقود الطلاق كان يكتب كل من الزوج والزوجة وثائق متبادلة عن تسلم كل منهما لما منحه للآخر سواء أن كان فى صورة مهر للزوجة أو هدايا للزوج. هذا فضلاً عن تحديد حقوق الأبناء ومع من يقيمون هل مع الزوج أو الزوجة حسب الاتفاق بينهما.

أما عن **الميراث** فقد كانت القوانين السابقة على جستنيان لا تعطى للمرأة الحق فى الميراث الدائم، فسوى جستنيان فى قانونه بين الذكر والأنثى فى الميراث. وكان للمرأة كذلك حق كتابة وصية منذ عهد ثيودوسيوس. ويبدو أن الارث كان يتم بالتساوى بين جميع أفراد الأسرة ففى إحدى الوثائق تم تقسيم الارث بين الأم وبناتها الثلاث لكل منهمن الربع، كما أن نصيب الذكر والأنثى كان متساويا تماماً ووفقاً للقانون. كما كان يحق للأب أن يرث الابنة فى حالة وفاتها بدون أولاد.

كذلك تمتعت المرأة بحق الرهن والتنازل والتصرف وإذا لم تستطع السداد فى حالة الرهن فإن ورثتها يتكفلوا بالسداد حتى ولو كانوا أناثاً.

الحياة الثقافية فى مصر فى العصر البيزنطى:-

اتخذت الحياة الثقافية فى مصر فى العصر البيزنطى مظهـرًا وطابعــًا جديدًا نتيجة لتغير الظروف العامة فى الإمبراطورية بأسرها، وهى سيادة الدين المسيحى، واتخاذه دينـًا رسميـًا للدولة . فمنذ أن أعلن ثيودوسيوس المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية فى القرن الرابع الميلادى، بدأت المســيحية تشــغل الناس، وتسيطر على النشاط الفكرى والثقافى فى الإمبراطورية . وكانت مصر والإسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد لــذلك لــم يكــن غريبـًا أن تساهم مصر والإسكندرية بنصيب كبير فى الحركة الثقافية الدينيــة الجديدة . وكان محور هذه الحركة هو الكتابة فى شرح الدين الجديــد ألا وهــو المسيحية . وتمجيد أبطاله الأول، وعندما انقسم المسيحيون فرق ومذاهب فــى القرن الرابع، صار أتباع كل مذهب وفرقه يكتبون ويؤلفون فى الدعاية لوجهــة نظرهم والدفاع عنها . مثال ذلك الصراع بين أريوس واثناسيوس .

واتسم أسلوب اثناسيوس فى الكتابة اليونانية بالبساطة والوضوح مع القوة فى التعبير، ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتاباته فى دحــض الــدعوة الأريوسية، ومن كتاباته التاريخية الهامة ما يتحدث فيه عــن مواقفــه الدينيــة وأعماله ويعتبر كتابه عن حياة القديس انطونيوس من أقدم وأهم الكتابات عــن نشأة الرهبانية المسيحية فى مصر .

اشتهرت الإسكندرية بأنها حاضرة العلم والفن والأدب، إذ كانت مركــزًا لحركة علمية قوية، ومقرًا لمدرسة كبيرة للثقافة، ونواة لنشاط عقلى ضخم منــذ قرون عديدة . فمنذ أيام البطالمة والإسكندرية مهدًا لدراســة العلــم وتحصــيل المعرفة، ومنطقة جذب للعديد من العلماء الذين سعوا إليها من شتى أنحاء العالم للدرس والإطلاع، وذلك بفضل مكتبتها ومدارسها .

المكتبات العامة والخاصة :

تأتى مكتبة الإسكندرية على رأس المكتبات العامة شرع فى بنائها بطليموس الأول، ثم جاء بعده بطليموس الثانى فيلادلفوس ليكمل ذلك الصرح العلمى العظيم وضمت المكتبة عدد كبير من الكتب، اختلف العلماء حول تقديره، ويذكر البعض أنه بلغ ما بين خمسمائة وسبعمائة ألف كتاب أو مخطوط، وكان بها كتالوجات مفهرسة فى ١٢٠ لفافة. وهذا عدد ضخم بالنسبة لهذا العصر الذى لم تعرف فيه الطباعة بعد، بل كان الاعتماد الأساسى على النسخ بالأيدى. وقد سلك البطالمة عدة وسائل للحصول على الكتب منها ما هو مشروع ومنها ما هو غير مشروع، ومن الطرق المشروعة الشراء أو الجمع من المعابد والإهداء . كذلك كلف ملوك البطالمة البحارة المصريين والإغريق أن يجمعوا الكتب ويأتون بها إلى الإسكندرية من مختلف أسواق الكتب خاصة فى أثينا ورودس، ومن بين المكتبات التى تم شرائها، مكتبة الفيلسوف الشهير أرسطو بأثينا، حيث تم شراؤها بثمن ضخم لتوضع فى مكتبة الإسكندرية.

ومن الاساليب غير المشروعة ما قرره بطليموس الثالث من أن كل من ينزل بالإسكندرية ومعه كتب يسلمها وتنسخ، ويأخذ صاحبها النسخ . كذلك أن بطليموس الثالث طلب من اثينا ان ترسل له نسخ من مسرحيات كبار شعراء الإغريق مثل (يوروبيدوس) و(وانتوخولوس) و(سوفوكليس) على ان يعيدها ثانية بعد نسخها، ولكنه احتفظ بالنسخ الاصلية وارسل النسخ المنقولة، وخسر بذلك مبلغ الضمان المالى الكبير من الفضة الذى دفعه لهذه النسخ الاصلية مما يدل على أن البطالمة بذلوا تضحيات كثيرة فى سبيل اقتناء المجموعات النادرة والأصلية من الكتب لضمها إلى مكتبة الإسكندرية.

وكانت هذه الكتب تفرز وتصنف بعد جمعها بواسطة أمناء المكتبة وكانوا من العلماء .

هذا واحترقت هذه المكتبة خلال الاضطرابات التى سادت مدينة الإسكندرية أثناء وجود قيصر بمصر فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد عام ٤٨ ق.م. وكان قد جاء إلى مصر لينضم إلى كليوباترا السابعة فى صراعها ضد أخيها بطليموس الثالث حول العرش، ولكن خصوم كليوباترا قد ناضلوا ضدها بشدة وضد حليفها يوليوس قيصر، وكادوا أن يحققوا النصر ويستولوا على السفن الموجودة بالميناء، لذلك سارع يوليوس قيصر بأشعال النيران فى هذه السفن حتى لا تقع فى أيدى أعدائه، ولكن النيران امتدت إلى الحى الملكى الذى احتوت عليه المكبتة فاحترقت، وأكلت النيران ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ كتاب من كتبها. ومع ذلك فقد أهدى القائد أنطونيوس كليوباترا مكتبة أخرى هى مكتبة برجاموس (برجامون)، التى اغتنمها اثناء حروبه فى اسيا الصغرى، وكانت تضم ٢٠٠،٠٠٠كتاب. ووضعت هذه المكتبة فى السيرابيوم، واستمرت الإسكندرية بذلك منارة للعلم والعلماء . وحدث بعد ظهور المسيحية بمصر أن حل الدمار بأجزاء من السيرابيوم أثناء الاضطرابات التى سادت مصر والإسكندرية، ثم دمر السيرابيوم – مقر الوثنية – تدميرا تاماً بعد أن قويت شوكة المسيحية فى مصر ودمر المسيحيون مكتبته وأحرقوها فى القرن الخامس الميلادى على أساس أنها تراث وثنى . فقد حدث أن قام البطريرك ثيوفيل والرهبان فى عام ٣٩١ م بمهاجمة السيرابيوم مستعينا بالجيش البيزنطى فى عهد ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥م) الذى جعل المسيحية دينا رسمياً للإمبراطورية، وامر ثيوفيل بتدمير المعبد واشعال النيران فيه، فأتت على مكتبته التى كانت تضم آلاف الكتب، مما أدى الى تدهور مركز الاسكندرية الثقافى. ويعلن سارتون فى كتابه "تاريخ العلم" بأن المسيحيين كانوا أعظم أعداء المكتبة فى تلك الفترة"، وأخذ تدهور المكتبة يتزايد بتزايد نفوذ الأساقفة المسيحيين فى الإسكندرية فقد كره هؤلاء المكتبة بشدة "لأنها كانت فى نظرهم معقل الكفر والخلاعة".

المكتبات الخاصة

أولاً : مكتبات الأفراد

على أن تدمير مكتبة الإسكندرية وحرقها، لا يعنى توقف الحركة العلمية بمصر والإسكندرية، فقد توفر لدى الكثير من الأفراد والأديرة المنتشـــرة فـــى سائر أنحاء الإسكندرية الكثير من أنواع الكتب المختلفة سواء كانت كتب دينيـــة أم فلسفية أم أدبية . فقد وجدت بالإسكندرية مكتبات خاصة يملكها أفـــراد ومـــن أمثلة هذه المكتبات، مكتبة كان يمتلكها العالم (كزماس) وكانت خيـــر مكتبـــة بالإسكندرية، وكان يعير من كتبها بسخاء لمن يحب أن يقرأ، وكان فقيرًا جـــدًا، فلم يكن فى بيته شىء من الأثاث إلا فراشه ومنضدة فى حين كانت الكتب تملأ البيت .وكان كزماس ذاته مكبا على القراءة والتصنيف، يجادل اليهـــود جـــدلا عنيفا ويرد على كتاباتهم.وقد استفاد من مكتبة كزماس المؤرخان حنا مســـكوس (ولد حوالى ٥٤٠ هـــ وقيل ٥٥٠م وتوفى ٦١٩ أو ٦٣٤م) وتلميذه صفرونيوس (٥٦٠-٦٣٨م) الذى صار بطريركاً لبيت المقدس (٦٣٤-٦٣٨م)(*).

ومن المكتبات الخاصة كذلك بالاسكندرية مكتبة مطران(آمـــد) التـــى ذاع ذكرها فى اوائل القرن السادس للميلاد،وقد استطاع هذا المطران ان يجمع قدرا كبيرا من الكتب اثناء اقامته بالاسكندرية،وبعد وفاته نقلت المكتبة الـــى مســـقط رأسه مدينة آمد ببلاد الجزيرة الفراتية. هذا عـــلاوة علـــى مكتبـــة فلافيـــوس ديسقورس، الذى عاش فى القرن السادس الميلادى، وله العديد مـــن القصـــائد الشعرية، وقد ألف معجماً إغريقياً قبطياً مما يدل على انتشار اللغة القبطية آنذاك

(*) ولد صفرونيوس فى دمشق فى عام ٥٦٠م، وتوفى بالقدس عام ٦٣٨م، وكان معلماً للخطابة، وصار راهباً واصطحب معلمه يوحنا موسكوس فى العديد من الرحلات لزيارة أديرة مصر وفلسطين وروما.

خاصة بين رجال الدين والطبقات الدنيا، وقد كان فلافيوس من أكثر الشعراء انتشاراً فى مصر فى تلك الفترة.

ثانياً : مكتبات الأديرة

ومن المكتبات الخاصة كذلك (مكتبات الأديرة) المنتشرة فى سائر أنحاء الإسكندرية فقد وجد بكل دير طائفة من النساخ والكتاب يقومون بنسخ المخطوطات بمكتبة الدير، ومن أهم هذه المخطوطات أسفار الكتاب المقدس، وسير الآباء البطاركة وخطابات، وترجمة لحياة الشهداء وأعمالهم وقوانين الكنيسة وغيرها . ولذلك استمرت الإسكندرية مقرًا للعلم والمعرفة .

ووجد بالإسكندرية العديد من المدارس من بينها :

أولاً : مدرسة المتحف (الموسيون) :

وهى مدرسة عريقة حوت العديد من كتب العلوم والمعارف المختلفة . ويقصد بالمتحف هنا (معهد للعلم والدراسة) أما معناها اللغوى فهو (معبد ربات الفنون والعلوم) . وأنشأ بطليموس الأول هذه المدرسة، وعين فيها مشرفاً على الدراسات العلمية، واختاره من كبار رجال العلم فى ذلك الوقت. وكان علماء المتحف يعيشون حياة مشتركة داخل المتحف أشبه بحياة الرهبان داخل الدير، وكانت الحكومة تتكفل بالإنفاق عليهم وعلى المدرسة كذلك، وكان يشرف على أمور هؤلاء العلماء كاهن يعينه الملك .

وكان المتحف مركزًا للبحث والدراسات العلمية، بل هو المركز الرسمى لها بالإسكندرية، وكان له تخصص دقيق وهو (علم الحيوان) بوجه عام (والبحوث الطبية) بوجه خاص ويمكن مقارنته بجامعاتنا الآن إلا أنه لم يكن يمنح شهادات و لا يضم فصولاً دراسية، بل كان عبارة عن مقر لعلماء

الإسكندرية وباحثيها، وملتقى للعلماء والباحثين من مختلف الأقطار يتجـادلون ويتناقشون ويتحدثون . لذلك احتوت مدرسة المتحف على قاعات بحث وأمـاكن لإقامة الأساتذة، وكان لكل فرع من فروع العلم قاعة. والتف حول كـل أسـتاذ منهم مجموعة من الطلبة للاستفادة من علمه، وكما سبق أن ذكرنـا لـم يكـن الطالب يحصل على شهادة. وقد لجأ أساتذة المتحـف للتـدريس فـى العصـر البيزنطى لأن المكافآت المالية لم تعد تكفيهم.

ولم يكن للدراسات الإنسانية مجال فى هذه المدرسة فى بدايـة عهـدها، ولكن المشرفين على هذا المعهد تنبهوا إلى أهمية هذه الدراسات، لذلك أنشـأوا مكتبة ملحقة بالمتحف خصصت للدراسات الإنسانية، ودرس بها فى البداية علوم اللغة والأدب والتاريخ ثم دخلت دراسة الفلسفة بعد ذلك .

وظلت هذه المدرسة قائمة حتى نهاية القرن الرابع الميلادى، ولم تنـدمج فى مدرسة السيرابيوم إلا بعد زمن الإمبراطور ثيودوسيوس، حيث أصبح كهنة السيرابيوم من رجال المتحف ومدرسته . على أن مدرسة المتحف وما لبث أن تداعت وانهارت لأسباب عدة من بينها :

(أ) أنها لم تؤد شيئـًا ذا قيمة للمسيحيين أو للوثنيين حتى بعد أن أدمجت فـى مدرسة السيرابيوم .

(ب) أصبح وجود مدرسة المتحف يعطل الإيمـان ويثير النزاع بين الوثنيين - الذين ارتبطوا ارتباطـًا وثيقـًا بالسيرابيوم الذى اشتهر حينئذ بفلاسـفته - وبين المسيحيين الذين التفوا حول الكرسى الأسقفى الذى تولاه بطاركـة متحمسون .

(جـ) تعرضت مدرسة المتحف لمنافسة مدارس بلاد اليونان وإيطاليـا وآسـيا الصغرى ومدرسة القسطنطينية، تلك المدارس التى هـرع إليهـا الشـبان المسيحيون والوثنيون على السواء خاصة وأنها أصبحت مراكـز رئيسـة للبلاغة والفلسفة والفقه والقانون .

ثانيـًا : مدرسة السيرابيوم :

ونتيجة للخلاف بين الفلاسفة المسيحيين والفلاسفة الوثنيين كان لابد مــن اتخاذ كل فريق منهم مدرسة تكون مقرًا له، ولا يشاركه فيها الفريــق الآخــر . وذلك للتقليل من النزاعات التى تنشأ من تواجدهم فى مكان واحد، ولذلك اتخـذ الفلاسفة الوثنيون السيرابيوم – الذى كان مقرًا لمكتبة الإسكندرية ذات الطــابع الوثنى، وكان السرابيوم أومعبد سيرابيس اشبه ما يكون بالقلعــة مبنيــا فــوق هضبة يرقى اليه بمائة درجة، واستمر السيرابيوم يؤدى دوره العلمى بفضــل ما أولاه السكان من تقدير، وظل باقيـًا حتى زمن ثيودوسيوس إذ عندما اشــتد النزاع بين الوثنيين والمسيحيين أمر الإمبراطور ثيودوسيوس فى عــام ٣٩١م بتدميره .

وإذا كان الوثنيون قد اتخذوا من السيرابيوم مقــرًا لهــم فــإن الفلاســفة المسيحيين التفوا حول كرسى الأسقف بالإسكندرية وأصبحت البطريركية مقــرًا للدراسات المسيحية .

واستمرت المدرسة الوثنية تتمتع بشهرة عالمية فى الفلســفة والرياضــة ويبدو أن هذا كان دافعــًا للكنيسة، لأن تنشأ مدرسة مســيحية قويــة تســتطيع مقاومة المدرسة الوثنية ومنافستها ولتجتذب المسيحية الشباب الجديد . فكثيرًا ما حضر الشباب إلى الإسكندرية لدراسة العلــوم الإنســانية أى الفلســفة الوثنيــة وآدابها، ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية، وحدث ذلك بصفة خاصة فى القرنين الرابع والخامس . وأبرز مثال على ذلك القديس سيفيروس الــذى جــاء مــن أنطاكية، ودرس العلوم الوثنية فى جامعة الإســكندرية ثم ذهب إلــى بيــروت، حيث أعلن اعتناقه للمسيحية، ودخل أحد الأديرة راهبــًا، ثم أصــبح أسقفــًا لكنيسة أنطاكية عام ٥١٢م .

ثالثـًا : مدرسة الإسكندرية المسيحية اللاهوتية التبشيرية :

نشأت هذه المدرسة فى الأيام الأولى للمسيحية، وهناك روايتـين حـول تأسيسها تذكر أحدهما – وهى رواية القديس جيـروم Jerome أبـو الكنيسـة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى– أن القديس مرقص هو الـذى أنشـأ هـذه المدرسة قبل استشهاده لنشر الثقافية المسيحية بين طلابها،وبتأسيس مرقص لهذه المدرسة "صارت الاسكندرية عقل المسيحية"على حد تعبير جيروم. فى حـين يرى البعض أن هذه رواية أسطورية، وأن هذه المدرسة أنشأت علـى أنقـاض مدرسة المتحف بالإسـكندرية، ثم انقلبت إلى مدرسـة لاهوتية، امتزجـت فيها الفلسفة بأمور الدين، وأن تأسيسها يرجع إلى نهاية القرن الثانى المـيلادى على يد الفيلسوف الاثينى المسيحى "اثيناجوراس"، أما عن رأى جيروم فلا يمكن التسليم به بداهة، فجيروم نفسه لم يذكر شيئا عن هذه المدرسة من قبـل، ولـم يتحدث عن أحد من أساتذتها الأوائل. يضاف إلى ذلك أن القديس مرقس جـاء إلى مصر قادما من ليبيا يحمل معه انجيله الذى كتبه "بناء على رغبة الأخـوة الرومان"، وبه بُشر؛ كما أن حنانيا (Annianus أنيانوس) الذى كـان أول مـن التقى به مرقس عند قدومه إلى الإسكندرية، وخلفه فى الأسقفية، لم يكن لـه أى حظ من العلم أو الثقافة.

وعليه يمكن القول بأن بانتين Pantaenus (١٧٩-٢١٦م) كان أول مـن ارتبط اسمه بمدرسة الاسكندرية رغم ما يـذكره بعـض المـؤرخين مـن أن اثيناجوراس الفيلسوف الاثينى المسيحى فى نهاية القرن الثانى، هو الذى وضـع أسس هذه المدرسة.

على أية حال فإن هذه المدرسة فى أساسها كانت مدرسة لتعليم الأطفـال الدين المسيحى على طريقة السؤال والجواب والمناقشة والحوار، ثم اتسع نطاقها لتشتغل بالعلوم والآداب والخطابة والقانون والفلسفة . ثم أصبحت الفلسفة أهـم

العلوم التى تدرس بهذه المدرسة أسوة بالمدراس اليونانية الموجودة فى ذلك الحين، كذلك اشتغلت هذه المدرسة بعلوم أخرى كالطب والكيمياء، والطبيعة، والحساب والهندسة، والفلك والجغرافيا والموسيقى والتاريخ ومن ثم لم تقتصر الدراسة فيها على اللاهوت المسيحى،كما كانت من قبل بل اتسع برنامجها التعليمى ليشمل مختلف العلوم والفنون .

وفتحت المدرسة أبوابها أمام الجميع من مختلف الديانات والجنسيات والثقافات،وذوى المراكز الاجتماعية المختلفة، والاعمار المتفاوتة، بل كانت تضم الجنسين نساء ورجال، سادة وعبيد، وكان المعلمون والتلاميذ يمارسون حياة التنسك والصوم والصلاة إذ يذكر المؤرخ اليهودى (فيلو) "كانوا جميعاً زاهدين فى الدنيا، لا يكترثون بشئ من حطامها، إنما كان يهتمون بالله فقط... ولم يكن بينهم فقير ولا غنى، لأن الأغنياء منهم اعطوا من أموالهم الفقراء... ولا يتناولون الطعام إلا مرة واحدة كل يوم بعد غروب الشمس... وطعامهم الخبز وشرابهم الماء لا غير". وكانت العلاقة بين الأساتذة والتلاميذ علاقة شخصية، لا تقيدها مبان او أماكن.

ومن أشهر علماء هذه المدرسة والذين تولوا رئاستها بنتاين – كلمنت – واوريجين – أما عن بانتينوس Pantaenus فقد ولد بالاسكندرية، وهو من اصل مصرى، ويرى بعض المؤرخين انه اثينيا، لاهتمامه بالفلسفة اليونانية، فى حين يرى فريق ثالث من المؤرخين انه من صقلية لان تلميذه كلمنت لقبه "بالنحلة الصقلية"، ولكن هذا الرأى لا يؤخذ به لان النحل الصقلى كانت له شهرته العالمية فى ذلك الوقت.وان هذه كانت مجرد اشارة الى "عذوبة تعليمه وما يحمله من قوت وغذاء للعقل. هناك من فسر وجود كلمة الصقلية على أنهم مجموعة من العلماء الصقليين تعرف عليهم كلمنت ورشحوا بانتين ليعلمه المسيحية الحقيقية فى الإسكندرية وعلى هذا الأساس ذهبوا إلى أن بانتينوس صقلى الأصل.

وترجع شهرة بانتينوس إلى أنه من أوائل من تولى رئاسة هذه المدرسة، ونال شهرة كبيرة حتى اعتبره المؤرخ يوسابيوس "أول رئيس لهذه المدرسة " فضلاً عن أنه قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة المصرية أو القبطية،وقد عاونه فى هذا العمل تلميذه كلمنت وكذلك اوريجين، ومن ثم فهو واضع الأبجدية القبطية.كذلك قام بانتينوس بشرح أسفار الكتاب المقدس شفويا وكتابة، حتى دعاه معاصروه "بشارح كلمة الله ". وتولى بانتينوس إدارة المدرسة المسيحية التبشيرية فى الفترة من (١٨١ - ١٩٠م) .وقد دعاه البطريرك ديمتريوس بطريرك الاسكندرية للخروج الى الهند والتبشير بالمسيحية هناك .

أما عن كلمنت فهو مواطن اثينى ولد فى بلاد اليونان، وفى أثينا على الأرجح خلال الفترة (١٥٠-١٥٥م) درس الفلسفة الرواقية والافلاطونية ثم طاف ببلاد اليونان وغيرها باحثا عن العلم والمعرفة، وأخيرا قصد مدرسة الاسكندرية اللاهوتية على عهد رئيسها بانتينوس ، واعتنق كلمنت المسيحية على يد يه، وعمره أربعون عاماً، ثم خلفه فى رئاسة المدرسة عام ١٩٠م وقيل أيضاً فى عام ٢٠٠م، اعتمادًا على أنه عمد فى عام ١٩٠م فكيف يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية فى نفس عام دخوله المسيحية؟

وقامت مبادىء كلمنت على أساس مزج ما اشتهرت به المسيحية الخالصة من التقوى بما انطوت عليه الثقافة اليونانية من الخير والمحبة .وترجع شهرة كلمنت إلى أنه يعتبر المؤسس الحقيقى لعلم اللاهوت المسيحى، كما أنه تولى إدراة المدرسة اللاهوتية أولاً حينما قام بانتينوس بزيارة إلى الهند على رأس بعثة تبشيرية، ثم أصبح مديرًا لها فى الفترة من (١٩٠ - ٢٠٢م)، ثم رحل بعد ذلك إلى فلسطين فى عام ٢٠٢م فراراً من اضطهاد سبتمبوس سفيروس، فى حين أن هناك رأى آخر يذكر أنه رحل فى عام ٢٠٤م وأنه حضر الاضطهاد فى مصر إذ أن كتاباته تحتوى على العديد من الإشارات عن الاضطهاد

والاستشهاد.

ومن أهم مؤلفاته مجموعة من الرسائل :-

١) "المدخل إلى المسيحية" وتوضح موقف الثقافة اليونانية من الديانة الجديدة.

٢) "حديث إلى اليونانيين" ويشير الى ما للمسيحية من جاذبية .

٣) "المؤدب" المعلم أو المربى وهى فى السلوك وأساليب الحياة التى تتلائم مع المسيحية .

٤) رسالة فى تفسير أنجيل مرقس بعنوان (من هو الغنى الذى سيخلص).

٥) كتاب مفقود بعنوان (المناظر) وقد أشار فيه إلى علاقته ببنتاين وفسر فيه الأسفار غير المعترف بها.

وجميع كتابات كلمنت بقيت باللغة اللاتينية أو اليونانية المعدلة، هذا وقد قام فوتيوس Photius بترجمة أعمال كلمنت إلى اللغة اليونانية.

وكانت العلاقة بين كلمنت وتلاميذه علاقة قوية اذ يذكر بـاردى(Bardy) صاحب كتاب "القديس كلمنت السكندرى" ان كلمنت رفع قلـوب طلابـه الـى الاعالى بصبره وابتسامته الدائمة ".

أما عن العلامة أوريجين فكان من تلاميذ كلمنت، وهـو أحـد عمالقـة المفكرين المسيحيين الأول، وقد سبق أن تحدثنا عن آرائه حول طبيعـة السـيد المسيح منها :

١) أن الله هو الجوهر الاول لجميع الاشياء .

٢) أن السيد المسيح ليس هو الإنسان الذى يصفه العهد الجديد بل هو العقل الذى ينظم العالم .

٣) أن لله أعين وأيدى وأعضاء جسدية .

وقد درس أوريجين الفلسفة على يد أستاذه كلمنت، واستشهد أبــوه فــي اضطهاد سفيروس للمسيحيين، واضطر أوريجين للرحيل عن الإسكندرية بعد أن أغلقت المدرسة اللاهوتية أبوابها، ورحل عنها أساتذتها . وقد تــأثر أوريجــين بأستاذه كلمنت، وحذ حذوه فى استخدام الفلسفة اليونانية فى خدمــة المســيحية. وفى حسن معاملته لطلابه،حتى قال عنه أحد تلاميذه: "كان اوريجانوس الشرارة المنيرة،التى القيت فى اعماق نفوسنا فأشتعل الحب فينا، وصار لهيبا حبــب العلوم الى نفوسنا ".لقد خطت علاقة اوريجانوس بطلابه حــدود الدراســة،فكان يلتقى بهم فى السجن،ويرافقهم فى ساحات القضاء،وفى ساحات الاستشهاد .مما يظهر مدى الارتباط الوثيق بين الاستاذ وطلابه .

ومن أهم أعمال العلامة أوريجين قيامه بتفسيــــر الكتاب المقـــدس لذلك أطلق عليه لقب (أمير الشراح) أو (أمير شراح الكتاب) كما كان أول أستاذ للنقد العلمى للتعاليم الدينية . كما اهتم بالكتاب المقدس ومقارنة نسخه وترجماتــه، ومــن كتبــه المشــهورة كتــاب (المبــادئ) وكتــاب (الصلاة).ومن مصنفاته كذلك كتاب جمع فيه ترجمــات الكتــاب المقــدس العبرية واليونانية وذلك بعد مراجعة الترجمة اليونانية .وظل اوريجين فى رئاسة المدرسة المسيحية حتى عام ٢٣٢م وتوفى عــام٢٥٣م علــى اثــر اضطهاد دكيوس .

وخرجت مدرسة الإسكندرية المسيحية اللاهوتية عدداً من آبــاء الكنيســة والديانة المسيحية مثل القديس اثناسيوس وكيرلس وغيرهم ممن وقفوا فى وجه الأباطرة البيزنطيين، وشهدوا عقد المجامع المسكونية الكبرى. ومــن أشــهر اساتذة هذه المدرسة (بيروس) الذى لقب باروبجانوس أو (أوريجــين الجديــد) لعمق علمه.وكان اساتذة هذه المدرسة مثالا يحتذى به،اذ امتاز غالبيتهم بحــبهم الشديد لحياة الزهد والرهبانية،ولم يكونوا مجرد محاضرين يلقنــون الطلبــة،بل

كانوا يهتمون بتقديم المشورة لهم فى البحث،مع المناقشة المستمرة .فقد كان المعلم أشبه بمرشد يعين تلاميذه على التعرف على المدارس الفلسفية بانفسهم، ويختارون ما فيها من حق ويرفعون ما دون ذلك

ولعبت المدرسة اللاهوتية دورًا كبيرًا فى نشر الدين المسيحى بالبلاد المصرية، ولكن بعد مجمع خلقدونيه عام ٤٥١م بدأ نجم هذه المدرسة فى الأفول، وأخذت تضعف تدريجيًا ثم ما لبثت أن أنهارت بسبب الخلافات والنزعات بين المسيحيين والوثنيين، وما دار بينهم من جدل فضلاً عن الاضطربات التى نشبت بينهم .

المدارس العامة:-

هذا وظهرت عدة مدارس أخرى لم تكن تابعة للكنيسة على الرغم من خضوعها لإدارة مسيحية من قبل الإمبراطور والمدينة، وكانت الدراسة فى تلك المدارس تشمل الفلسفة والنحو والطب والنقد، وتسرب الوثنيون إلى هذه المدارس إذ لم يكن هناك ما يمنع من انضمامهم إليها أو تلقى العلم بها . واجتمع بتلك المدارس عدد كبير من الطلاب المسيحيين والوثنيين على السواء إذ لم يحدث أى اعتراض على تردد الطلبة الوثنيين على هذه المدارس العامة، ولذلك اشتدت المنافسة العلمية بين الفريقين مما أدى إلى اشتداد الحركة العلمية وازدهارها بمدينة الإسكندرية . هذا فضلاً عن المدارس التى ألحقت بالكنائس والأديرة وفيما يتعلق بمدارس الدير، كان بعضها مدارس لتعليم أفراد الشعب والبعض الآخر خاص بتعليم الرهبان أنفسهم .

ويلاحظ أن العنصر المصرى انتشر فى الدوائر العلمية فى مدينة الإسكندرية فلم يعد علماء الإسكندرية قاصرين على مواطنى الإسكندرية أو الإغريق فحسب ن بل أصبح هناك علماء من صعيد مصر، مثال ذلك شخصية الفيلسوف هور أبوللو الذى كان رئيسًا للمدرسة الوثنية فى الإسكندرية، فهو

ينتسب إلى أسرة من صعيد مصر، وعمل والده أستاذًا فى الإسكندرية كذلك شغل أفراد أخرين من أسرته هذه المهنة .

أهم العلوم التى درست فى مدراس الإسكندرية (الفلسفة) :

ومن أشهر فلاسفة الإسكندرية ثيون Theon وابنته هيباشيا، وكان ثيون عالمـًا فى الرياضة، وذاع صيت ابنته كذلك فى الرياضة والفلسفة خاصة فلسفة أفلاطون وأفلوطين (٢١٥-٢٧٠م)(*) واشتهرت هيباشيا بالعلم إلى جانب الخلق الفاضل، كما كانت تمثل ذروة الجمال والوداعة والرقة النسائية، مما جعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الإسكندرية وأهلها، ولذلك صارت تتردد على مجالس الرجال وفى المجتمعات العامة دون حرج أو خجل مما أثار عليها المسيحيين، فقد ظهر اتجاه خاصة فى عهد البطريرك ثيوفيل (٣٨٥ - ٤١٢م)، وكذلك كيرلس يهدف إلى جعل الإسكندرية مدينة مسيحية الطابع والصبغة وذلك بالقضاء على أى صفة وثنية فيها، وراحت هيباشيا ضحية هذا الاتجاه، ففى أثناء سيرها فى عجلتها فى أحد شوارع الإسكندرية بعد الانتهاء من درس فى الرياضة جروها على الأرض حتى كنيسة قيصر وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها أربا واحرقوها فى أحد الأفران،وذلك فى عام ٤١٥م. ويرجع سبب ما حل بها إلى تحمسها الشديد للتبشير بالوثنية فضلاً عن الصداقة التى ربطتها بالوالى البيزنطى ويدعى أورستس Orestes وكان وثنيـًا ومتحمسًا للوثنية أيضًا.

وعلى الرغم من مقتل هيباشيا إلا أن الدراسات الفلسفية والرياضية

(*) هو فيلسوف مصرى من قلب الصعيد، ودخل فى خدمة الإمبراطور جاللينوس الذى استدعاه ليؤسس مدينة افلاطون، وهو صاحب المدرسة المعروفة بالافلاطونية الجديدة، وهى تمزج بين الفلسفات القديمة كالرواقية والفيثاغورثية والتوفيق بينها وذلك من خلال كتابه المعروف باسم (التاسوعات).

بمدرسة الإسكندرية، لم تتوقف، بل استمرت تؤدى دورهـا بالكامـل، وهـرع الطلاب من سائر أنحاء الشرق لا سيما من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى إلى مدينة الإسكندرية. كما وفد إليها علماء من كافة الأنحاء . ويرجع ازدهار دراسة الفلسفة ونشاطها فى القرن السادس إلى ما قام به جستنيان من إغلاق مـدارس أثينا الوثنية، والإبقاء على مدارس الإسكندرية مما أدى إلى رحيل الكثيـر مـن العلماء إلى مدرسة الإسكندرية، وانتعاش الحركة العلمية بها . ويكفى أن نقـرأ بعض رسائل سنيسيوس أسقف كنيسة قورينة (مدينة الشحات الحالية على بعـد ١٦٥ ك.م من بنغازى)، والذى يعد من أشهر الشخصيات التى تلقت العلم على يد الفيلسوفة هيباشيا لندرك مكانة الإسكندرية، كمركز للعلم والتعليم فـى ذلـك الوقت وأنها كانت لا تزال منافسـاً قويـاً لأثينا، وجاء فى واحدة من رسـائل سنيسيوس ما يلى : « لم يبق لأثينا شيء رفيع سوى أسماء الـبلاد المشـهورة فاليوم قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيباشيا، قديمـاً كانـت أثينـا موطن الحكمة، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها » .

واشتهرت الإسكندرية فى القرنين الخامس والسادس بوجود عدد كبير من العلماء المرموقين من أمثالهم ثيودوت الإسكندرى Theodote وهو من رجـال النحو، وأوريون Orion من رجال المعاجم، هزيكيوس Hesychios من الشراح، وأسطفان الفيلسوف وغيرهم .

واشتهرت مدرسة الطب أيضـاً بالإسكندرية شـأنها فـى ذلـك شـأن مدرسة الفلسفة، وشـهدت الإسـكندرية مجموعـة مـن الأطبـاء البـارعين، وهرع إليها الطلاب من كل صوب وحدب . ومـن بـين أطبـاء الإسـكندرية البارزين بازيليكوس . ومن الجـدير بالـذكر أن هنـاك مـن الأطبـاء مـن جمع بين الطب والتفقه فى الدين، ومن بـين هـؤلاء سـرجيوس وأتيكيـوس. ويتحدث القديس أوغسطين مـن براعـة الأطبـاء المصـريين فيذكـر أن

طبيباً سكندرياً كـان موضـع احتـرام فـى قرطاجـة لأنـه جـراح مـاهر ومدهش.

ومن بين العلوم والدراسات الأخرى التى درست بالإسكندرية إلى جانـب الفلسفة والطب، الفقه فى علوم الـدين المسـيحى، والأدب والشـعر، والفلـك والتنجيم، وعلم البلدان الذى كان ضرويـاً للتجـار والرحالـة . كـذلك نالـت الدراسات التاريخية قدرًا كبيرًا من الاهتمام، ووجد بالإسكندرية عدد كبير من المؤرخين فى العصر البيزنطى ومنهم علـى سـبيل المثـال يوحنـا النقيوسى.

هذا وقد لعبت الكنيسة المسيحية والأديرة دورًا هامـاً وكبيرًا فى نشـاط الحركة العلمية إذ امتلأت الكنائس والأديرة بالكتب والمكتبات، وأثرت المسيحية فى مفاهيم عامة الشعب وتفكيرهم، وأدت إلى ظهور نـوع جديـد مـن الأدب الدينى، وهو الأدب القبطى الذى كتب باللغة القبطية تعبيراً عن رفض الشـعب لكل ما هو يونانى. وقد تناول هذا الأدب بطبيعة الحـال موضـوعات انجيليـة ولاهوتية، ولكنه لا يرقى إلى الأدب اليونانى ومن أهم ما كتـب فـى العصـر البيزنطى كتابات يوسيبيوس القيصرى، مؤرخ قسـطنطين العظـيم، وأسـقف قيصرية بآسيا الصغرى، وتاريخ اثناسيوس، وكيرلس السكندرى. كذلك هنـاك أدب العظات الذى اتخذ شكل مواعظ تتعلق بالأمور الدنيوية فيما يعرف باسـم "أدب الحكمة".

هذا فضلاً عن أن الأدب القبطى حفل بقصص القديسين أو شرح الأناجيل أو برديات شهداء، كتب عدد منها بأسلوب ركيك، وخاصة فى الفترة الأخيـرة كتبها عدد من رجال الدين، وكان الغرض منها العظة والحث علـى الفضـائل أكثر من أى شئ آخر.

اللغة والأدب فى مصر فى العصر البيزنطى

أولاً اللغة :

استخدمت اللغة المصرية القديمة "الديموطيقية" كلغة تخاطب وكتابة فى مصر منذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين أى منذ حوالى سنة ٧٠٠ ق.م. حتى أواخر عصر الرومان ربما إلى سنة ٤٧٠م، لأن آخر نص كتب بالديموطيقية إنما يرجع إلى سنة ٤٧٠م، أى أن الديموطيقية ظلت تستخدم كلغة تخاطب وكتابة طوال العصرين البطلمى والرومانى فى مصر رغم انتشار اللغة اليونانية منذ بداية عهد البطالمة، وهى التى أصبحت اللغة الرسمية للبلاد فى العصرين البطلمى والرومانى.

وبمرور الوقت دخلت إلى اللغة الديموطيقية المكتوبة بالحروف اليونانية كلمات وتعبيرات جديدة من اليونانية، خاصة بعد ظهور المسيحية وترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغة الجديدة، فتطورت اللغة الديموطيقية، وخرج منها ما عرف باللهجة القبطية، وأخذت هذه اللغة الجديدة، التى اعتبرت لغة دراجة من الديموطيقية تحل رويداً رويداً محل اللغة الديموطيقية وتستخدم فى التخاطب وفى الكتابة، أى أن المصريين حينما أحسوا بأهميتهم وحسهم القومى ابتكروا كتابة جديدة للتعبير عن ذاتيتهم واعتزازهم بروحهم القومية، لأن أغلبية المصريين كانوا لا يعرفون اليونانية ولا يميلون إلى استخدامها، ويفضلون عليها اللغة المصرية التى أصبحت فى صورتها الجديدة تعرف بالقبطية، والتى ظلت لفترة طويلة لغة تخاطب وكتابة فى مصر البيزنطية.

معنى ذلك أن القبطية هى اللغة المصرية القديمة فى صورتها الأخيرة أو المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة، ثم جرى وضع أبجدية لهذه اللغة الجديدة أى القبطية حافظ المصريون من خلالها على سبعة حروف من الخط الديموطيقى تعبر عن أصوات ليس لها مقابل فى اللغة

اليونانية، وأكملوا الأبجدية بالحروف اليونانية، وذلك لرفع القبطية إلى مصـــاف اللغات الأدبية، حتى تصبح أداة تعبير أدبى وتستطيع أن تنهض به. ولهذا فقــد أخذت القبطية تنهض بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادى خاصة بعد انتشار المسيحية، واستخدام القبطية فى التبشير بهذه الديانة الجديدة، وترجمة الإنجيـل منذ زمن مبكر إلى هذه اللغة، ثم جرى التأليف بالقبطية لاسيما فـــى الكتابـــات الدينية وتراجم حياة القديسين.

وبعبارة أخرى قام المصريون بتدوين لغتهم القبطية بحروف يونانية مـــع الحفاظ على بعض الحروف الديموطيقية، التى لا نظير لها فى اليونانية، وكتبوا بهذه اللغة نصوصاً قبطية لازال بعضها محفوظاً فى متحفى باريس ولندن، لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض الحروف الديموطيقية. ولاشك أن انتشـــار المسيحية فى مصر انتشاراً حثيثاً، مع ازدياد التصادم مع الســلطات الحاكمـــة الأجنبية فى مصر، وشعور المصريين بأهميتهم وذاتهم القومية، قد جعلهم أكثر إصراراً على استخدام لغتهم القومية، خاصة فى التبشير بهذه العقيدة الجديـــدة، لتبلغ إلى سائر الناس وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القومية لتحقيـــق هـــذه الغاية. فإذا أضفنا إلى ذلك اضطرار رجال الدين لاستخدام القبطية فـــى شـــرح العقيدة وتفسير مفاهيمها للغالبية العظمى من المصريين، الذين كـــانوا يجهلـــون اللغة اليونانية أو يكرهونها، فضلاً عن جهل بعض هؤلاء الأساقفة أنفسهم باللغة اليونانية، لذا أصبح لزاماً أن يجرى التأليف والكتابة بالقبطية خاصة فى الكتابـــة الدينية من أجل صالح المصريين.

ونظراً لانتشار هذه اللغة الجديدة فى مناطق متســـعة وتـــوالى العصـــور عليها، فقد ظهرت فيها لهجات متعددة ومختلفة سادت فى مصـــر العليـــا وفـــى مصر السفلى متشعبة عن اللغة الأم، فعرفت لهجـــة مصـــر الســـفلى باللهجـــة البحيرية نسبة إلى البحر، أى لهجات الأراضـــى المجـــاورة للبحـــر أو ربمـــا

المنسوبة إلى إقليم البحيرة، وكانت أهم لهجات اللغة القبطية، لأنها كانت لهجة مدينة الإسكندرية من ناحية، ولأنها وصلت إلى درجة اللغة الأدبية من ناحية أخرى، بينما عرفت مصر العليا عدة لهجات منها الصعيدية والفيومية والاخميمية. ويرجع سبب ذلك إلى أن اللغة المصرية القديمة التى ارتكزت عليها القبطية كانت تتميز ببعض الاختلافات فى جهات متعددة من مصر القديمة، أصبحت أساساً لما ظهر فى القبطية من لهجات متعددة.

وفى نفس الوقت أخذت القبطية بلهجاتها المتعددة تتباعد شيئاً فشيئاً عن اللغة المصرية القديمة منذ أن بدأت كتابتها بالحروف اليونانية، لاسيما وقد دخل عليها مفردات وتعبيرات يونانية من ناحية، وجرى كتاباتها بالحروف الصامتة والمتحركة من ناحية أخرى، فتباعدت رويداً رويداً عن اللغة المصرية القديمة والخط القديم، الذى كان يكتب بالحروف الصامتة فقط، وبدأت تزخر بكلمات جديدة لا وجود لها فى اللغة المصرية القديمة وتعبيرات لم تكن معروفة فى هذه اللغة من قبل.

وعاشت القبطية فى مصر فترة طويلة حتى بعد أن جرى فتح مصر على أيدى العرب المسلمين إلى جانب اللغة اليونانية القائمة فى مصر فعلا واللغة العربية، التى بدأت تتقدم على ما عداها منذ ذلك الفتح، إذ كانت القبطية هى لغة التخاطب بين عامة الناس فى مصر، بينما كانت اللغة اليونانية هى لغة الكتابة، ولهذا استمرت اللغة العربية الجديدة أن تعيش إلى جانب هاتين اللغتين لفترة، حتى أسهمت بعض العوامل فى إعطاء العربية تفوقاً على ما عداها، أهمها انتشار الإسلام انتشاراً واسعاً بين المصريين، واستخدام العربية فى إقامة الشعائر الدينية وقراءة القرآن الكريم، والتعامل مع الحكام العرب المسلمين، فضلاً عن تعريب الدواوين، الذى جرى فى عهد الدولة الأموية وعلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الذى هيأ الفرصة للعربية لتصبح لغة الكتابة

والدواوين، ولتحل محل اليونانية فى مصر فى هذه الناحية.

وبعبارة أخرى أخذت القبطية تنكمش شيئاً فشيئاً فى مصر بعد الفتح العربى مع انتشار الإسلام انتشاراً حثيثاً بين المصريين، وبدأت تضعف كثيراً وتتلاشى حتى بين الأقباط أنفسهم، ومن لم يتحول منهم إلى الإسلام، فلم ينته القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)، إلا وكانت اللغة العربية قد أصبحت هى السائدة بين أهالى مصر، لتصبح كل من القبطية واليونانية هى لغة الأقليات، ولتتفوق العربية على هاتين اللغتين وتسود فى كل أنحاء مصر فى القرون الأولى التى تلت فتح مصر على أيدى المسلمين، ويدل ذلك على مدى اختلاط العرب بالأقباط، كما يدل على تأثر الأقباط بالعرب تأثراً كبيراً، وكان هذا التأثر أسرع فى الوجه البحرى منه فى الوجه القبلى. إذ ظلت القبطية معروفة فى بعض جهات مصر العليا عدة قرون أخرى، وظل بعض الناس يتخاطبون بها فترة أخرى فى جهات مختلفة من صعيد مصر.

والدليل على ذلك ما أشار إليه المؤرخ الكبير "المقريزى" فى القرن الخامس عشر الميلادى فى حديثه عن أحد الأديرة يقول : "والأغلب على نصارى هذه الاديرة معرفة القبطى الصعيدى، وهو أصل القبطية، وبعدها اللغة القبطية البحيرية" فقد ظل رهبان الأديرة وبعض رجال الدين يتمسكون بالقبطية فترة أخرى من الزمن، ويضيف المقريزى : "ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية"، وأيضاً ما أشار إليه ماسبيرو إذ يقول: "ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون بالقبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر".

والواقع أن القبطية انكمشت كثيراً، ثم اقتصرت على كونها لغة الكنيسة وبعض رجال الدين، واستخدمت فى الصلوات وقراءة الكتب المقدسة، كما اقتصرت معرفتها على بعض الأفراد من الأقباط فى الأديرة والمدن عن طريق

هذه الصلوات، فضلاً عن المهتمين بدراسة هذه اللغة والمعنيين بها من العلماء والدارسين فى الشرق وفى الغرب على حد سواء، وكان لها أثر فى بعض اللغات التى تسربت إليها كلمات من القبطية ومنها اللغة العربية ذاتها التى تسللت إليها كثير من الكلمات القبطية ومن اللغة المصرية القديمة أيضاً لازالت تستخدم فى العربية حتى يومنا هذا، أورد الكتاب والمؤرخون بعضها أو نماذج منها مركزة فى الأسماء والأفعال وبعض التعبيرات مثال ذلك :

أردب – تندة – حلق– رقاق – كعك – قلة – ماجور – ريم - كحلة – برسيم – بلح – بصارة – بقوطى – سمان – شونة – شوش – شوربة – شبورة – شوطة – شرش – نونو – ننوس – نبوت – تاتا (أمشى) – أمبو (ماء) – بيبة (برغوث) – لقمة – لبشة – خن .

ومنها أيضاً الأفعال مثل : فرفر – نكت – نط – هوش – هلوس – دمس.

وبعض التعبيرات أيضاً مثل : ورور (للفجل) – بح (انتهى أو خلص) – كانى مانى (سمن وعسل).

هذا فضلاً عما زخرت به البرديات العربية من كلمات قبطية، وما حفلت به النصوص التى كتبت فى تلك الفترة، من كلمات ومصطلحات وتعبيرات قبطية أو مصرية قديمة، أى أن تأثير القبطية فى العربية لم يكن قاصراً على لغة الحديث والتخاطب، وإنما تعدى ذلك إلى اللغة المكتوبة التى ضمت كلمات وألفاظ قبطية حفظتها البرديات التى ترجع إلى تلك الفترة فضلاً عما دخل العربية من ألفاظ وكلمات يونانية ولاتينية، دخلت إليها عن طريق القبطية ومعظمها من ألفاظ الإدارة، بالإضافة إلى أسماء الشهور القبطية فى البرديات العربية بطريقة نطقها القديم، كما عرفه المصريون القدماء، والتى لازال الفلاح يعرفها ويحفظها حتى الآن لارتباطها بالمواسم والفصول الزراعية.

ثانياً : الأدب القبطى :

واكب ظهور الادب القبطى ظهور الفن الوطنى فى مصـــر البيزنطيـــة، وزاد نموه كثيراً بعد أحداث مجمع خلقدونية ٤٥١م، وتعصب مصر لمـــذهبها المونوفيزيتى، واستخدام القبطية بدلاً من اليونانية خاصة فـــى الكنيســـة، علـــى الرغم من أن معظم المصريين - باستثناء أهل الإسكندرية - لم يكونوا شغوفين كثيراً بالادب، لأن معظم كتاباتهم كانت كتابات دينية وتراجم لحيـــاة القديســـين والرجال الاتقياء الصالحين، إلا أننا لم نعدم وجود كتابات أدبية، وقصائد شعرية وصل إلينا منها مختارات ونماذج لهذا الأدب القبطى، منها : قصص مشـــاهير الزهاد والرهبان، وسير الشهداء، وقصص الرجال الصالحين، وكلهـــا نمـــاذج لأدب شعبى حافل بالمعجزات الخيالية والكرامات الخارقة، وبكل ما يســـتهوى خيال القراء المصريين.

ويقرر الدارسون لهذه الآداب القبطية أنها لم تكن جيدة، ولم ترتفـــع إلـــى مصاف الآداب التى شهدتها مصر فى عصور أخرى، على الرغم من وفرتهـــا وغزارة إنتاجها، ومع ذلك كان لها أهمية خاصة، لما يمكن أن يستخلص منهـــا من أفكار مصر المسيحية، واتجاه الفكر المسيحى فى ذلك العصر، فضلاً عمـــا يمكن أن يستنتج منها من نتائج تتعلق بحياة المصريين إذ ذاك، لأنهـــا تعكـــس صوراً من تلك الحياة فى مصر البيزنطية.

وأبرز تلك النتائج ما حدث من تقلص وانحسار المؤثرات الهللينية وظهور الأمة المصرية واضطراد تقدمها فى العصر البيزنطى، فقد أظهرت تلك الآداب أن العنصر الوطنى لم يكف عن إظهار كراهيته للهللينية، وإعـــلان معارضـــته للسيادة البيزنطية، وزادت كراهيته لهذه السيادة بعد اعتناقـــه المســـيحية علـــى المذهب المونوفيزيتى المخالف لمذهب بيزنطة، مما عرض الشـــعب المصـــرى لنقمة البيزنطيين واضطهادهم، الأمر الذى جعلهم ينظرون للغزو الفارسى الذى

حدث على عهد الإمبراطور هرقل، ثم الفتح العربى لمصر على أنه تحرير لهم من ظلم الإمبراطورية البيزنطية واستبدادها.

ومن تلك النتائج أيضاً، أنه كان للمسيحية اثر عميق فى حياة المصـــريين فى ذلك العصر، وأهمية كبيرة فى تطور تاريخ مصر البيزنطيـــة، لمـــا بثتـــه المسيحية فى نفوس المصريين من حماسة وثقة، جعلـــتهم يلفظـــون الهللينيـــة ويقاومون كل ما هو يونانى بيزنطى، ولما بذلته المسيحية من تشـــجيع لإثـــارة الروح القومية فى مصر بالصورة التى عكستها تلك النماذج من الآداب القبطية.

وثمة نتيجة أخرى أمكن استخلاصها من تلك النمـــاذج الأدبيـــة الـــوفيرة المنتمية إلى العصر البيزنطى فى مصر. لا تقل أهمية عن النتائج المشار إليهـــا والمستخلصة من هذه الآداب القبطية . ذلك أنه صحب ظهور القومية المصرية، وانبعاث الروح الجديدة فى مصر تدهور اقتصادى وقصور فكرى فى مجـــالات أخرى متعددة، إذ اضمحلت أحوال البلاد الاقتصادية، وعانت مشكلات فى هـــذه الناحية انعكست على نماذج الأدب فى ذلك العصر، وظهرت واضحة فى تلـــك الصور الأدبية، فضلاً عن ضعف مستوى الفن وتداعى الثقافة بصفة عامة فـــى مصر البيزنطية - باستثناء الإسكندرية - ووضح ذلك وعكسته تلـــك النمـــاذج والصور الأدبية المنتمية إلى تلك الفترة، ولم يكن هذا التدهور الفكرى قاصـــراً على المصريين، بل شاركهم فيه البيزنطيون، كما أشار إلى ذلك آخر الشـــعراء اليونانيين فى مصر ويدعى ديوسقورس Dioscore.

وقد لاحظ المؤرخون أن ظهور تلك الروح القومية فى مصر البيزنطية لم يصاحبه ظهور أحد من الأدباء أو الشعراء، يستطيع أن يصور تلك الروح وذلك الشعور الوطنى، ويستطيع أيضاً أن يتولى الدفاع عن قضايا الأمة تجاه الصلف البيزنطى وتحكم الإمبراطورية واستبدادها، وذلك عـــن طريـــق الأدب :نثـــره وشعره، وهو الذى يلهب الحماس ويذكى روح المقاومة ضد الحكـــم الأجنبـــى،

على الرغم من أن مقاومة المصريين وكراهيتهم لذلك الحكم كان لابد وأن تؤدى إلى زوال هذه السيادة البيزنطية.

وإذا استعرضنا بعض النماذج الأدبية المؤلفة بالنثر فى مصر البيزنطية، وجدنا منها الكثير ومن هذه النماذج ترجمة الكتاب المقدس، وهى بالدرجة الأولى من آداب اللغة القبطية وقد ترجمت عن اليونانية؛ ربما فى القرن الثانى الميلادى، واعتبارها الدراسون من أدق الترجمات، نظراً لإلمام الذين تولوا القيام بها باللغتين اليونانية والقبطية إلماماً تاماً، ولم يحل القرن الرابع والقرن الخامس الميلاديين، إلا وكان الكتاب المقدس كله مترجماً إلى بعض اللهجات القبطية الشمالية والجنوبية، بسبب ما أظهره المترجمون من حماسة دينية بالغة.

ومن هذه النماذج الأدبية أيضاً، أقوال المتنسكين ومعلمى الرهبانية وأقوال آباء الكنيسة المسيحيين، وتدور هذه النماذج حول التنسك والزهد، وتحث عليه وتدعو إلى التجرد من الماديات وترويض النفس على الفضيلة، والطهر والنقاء. ومن أمثلتها الرسائل العشرون التى أرسلها القديس انطونيوس إلى تلاميذه. وكذلك الأنظمة الديرية التى وضعها القديس باخوم لتنظيم حياة الرهبان، ومنها أيضا المواعظ والخطب الدينية التى كان تلقى فى أيام الآحاد أو الأعياد أو فى بعض المناسبات الدينية الأخرى، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة الادريبى أثناء كفاحه ضد الوثنية وخلال نشره لتعاليم المسيحية.

ومنها أيضاً سير القديسين والأتقياء السائحين، وهى كثيرة جداً تتحدث عن جهاد من استشهد منهم فى سبيل العقيدة، وتصف حياة الرهبان العظام والزهاد وبعض البطارقة ورجال الدين، ولم تكن مجرد تاريخ مسرود، وإنما وضعت فى أسلوب أدبى مميز بالغ الأثر، لحث الناس على السير فى الحياة الفاضلة، والاقتداء بحياة أولئك الصالحين من الشهداء والرهبان ورجال الدين المخلصين ومن أشهرها سيرة حياة الأنبا شنودة التى كتبها تلميذه (ويصا).

ثم هناك أيضاً القصص، ومعظمه قصص دينى ولكنه شمل أيضاً القصص الوطنى، وتميز القصص الدينى بخصب الخيال وحسن التصور، ومن أمثلته قصة ملكة سبأ ومقابلتها للنبى سليمان الحكيم، بينما اتسم القصص الوطنى بصدق المشاعر القومية وبأنه كان وسيلة نفس به المصريون عما فى أنفسهم من مشاعر ظلت مكبوتة فترة طويلة، تحت ضغط المستعمر البيزنطى، ومن أمثلته رواية الإسكندر الأكبر التى عكست الروح القومية والحس الوطنى المصرى، ووجدت لها ترجمة باللهجة القبطية الجنوبية محفوظة فى الدير الأبيض، وكذلك من أمثلته رواية قمبيز وغزو مصر التى عبرت عن اتجاهات أدبية خاصة ونوازع قومية، أعطت صورة واضحة عن هذا النوع من القصص فى مصر البيزنطية.

ومن هذه النماذج أيضاً ذلك الأدب الذى اتصف بالإصلاح الاجتماعى وعكس روح المصلحين الاجتماعيين. مثل خطب الأنبا شنودة التى أنكر فيها البدع والسحر والشعوذة وانتشار الدجل واستخدامه فى العلاج، والموالد وما يحدث فيها من فوضى وتسيب، وبناء الهياكل على رفاة الشهداء، وغير ذلك من السلوك المرفوض، ومنها أيضاً الآداب الكنيسة وطقوس العبادة، فضلاً عن نصوص سرد التاريخ ومواد القانون وشرح القوانين.

هذا عن الأعمال الأدبية المؤلفة بالنثر، أما عن المنظرمات الشعرية، فلم يصل إلينا شعر من ذلك العصر يتناول الأغراض الدنيوية إلا القليل، وما وصل من ذلك الشعر المنتمى إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين غلبت على طابعه الروح الدينية وعلى اتجاهات المصريين فى قرض هذا النوع من الشعر، فلم يولوا الأغراض الدنيوية كبير اهتمام، إذ مدحوا العذراء مريم والملائكة والأنبياء والقديسين والشهداء، ومجدوا بالنظم هذه النماذج التى تحتل فى نفوسهم مكانة سامية، وعلى الرغم من هذا الاتجاه الدينى فى الشعر فإن ما عثر عليه

من مقطوعات شعرية فى الأديرة والكنائس، دلت على مواهب كثيرة فى قرض الشعر فى تلك الآداب القبطية، ولازالت نماذج كبيرة من هذه المنظومات الشعرية محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة المتحف البريطانى.

كما خلف لنا ذلك العصر القصص الشعرية، التى نظمها المصريون فى قصائد طويلة، كقصة راهب رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة قط، وهى قصيدة طويلة نظمت فى شكل حوار يمس ناحية حساسة فى المشاعر الإنسانية ويصور براعة الشاعر وموهبته فى إدارة هذا الحوار بما فيه من قوة التأثير والقدرة الفائقة فى التمثيل، ويعطى صورة دقيقة لهذا النوع من المنظومات والقصص الشعرية.

ثم هناك أيضاً الأشعار الكنسية التى تعبر عن موضوعات اخذت من المزامير أو الإنجيل وجرت على شكل تسبيح فى بعض الاحيان، إذ نظموا لكل يوم تسبيحة خاصة جرى تلحينها بلحن مميز وقراءتها بصورة غنائية خاصة، وسجلت فى بعض الكتب لتعطى صورة واضحة عن هذا النوع من الشعر الذى صبغ فى قالب مسيحى وطبع بطابع دينى.

وبجانب كل ذلك وصلت إلينا نماذج من الآداب الشعبية المنتمية إلى هذه الفترة، وإن كانت متأثرة أيضاً بموروثات مصر من عصورها الغابرة، لاسيما الآداب الشعبية الخاصة بالمناسبات الجنائزية. وندب الميت وتعديد مآثره ومزاياه، والتى جرى نظمها نظماً خاصاً يناسب المفاهيم والأذواق الشعبية. وسجلوه فى أحيان أخرى ونقشوه على الرخام كشواهد القبور، وعثر على كثير من منظومات الندب القبطية التى نظمت فى قصائد تهدف إلى تعديد محاسن الميت وندبه وتصور الهلع الذى أحدثه فقده، كتلك المنظومة التى تقول : "أيتها النساء يا كافة من أنجبن أبناء تجمعن وأبكين معى" وكانت هذه المنظومات الشعبية محل اهتمام الدارسين لنماذج الأدب باعتبارها أدباً شعبياً يعبر عن

تراث وموروث قومى.

وعلى هذا فآداب مصر البيزنطية تركزت فى كتابات أنطونيوس وباخوم ومواعظ شنودة الذين لم يعرفوا إلا القبطية، والذين لم يكتبوا إلا بالقبطية، رغم معرفة بعضهم باليونانية. وتركز هذا الأدب المصرى فى الأديرة وخاصة أديرة وادى النطرون باللهجة البحيرية أو الشمالية، وفى الدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد باللهجة الجنوبية أو الصعيدية، وهكذا تحولت أديرة الرهبان إلى معاقل للأدب القبطى ومراكز لنشر هذا الأدب المصرى الصميم، وأمام هذه التقدم الأدبى أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذى انتشرت به المسيحية بين المصريين، وتعصبهم لمذهبهم المونوفيزيتى وبعدول الناس عن استخدام اللغة اليونانية وتحولهم إلى القبطية كلغة أدب.

الفن القبطى فى العصر البيزنطى :-

ظهر بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م فن جديد فى مصر البيزنطية له شخصيته المستقلة عن الفن البيزنطى، فاذا كان الفن القبطى قد تأثر لفترة زمنية وجيزة بالفن البيزنطى الا أنه سرعان ما تخلى عن وصاية الفن البيزنطى عليه .فلم يعد المصريون يرضون عن الفن البيزنطى،الذى تأثروا به لفترة محدودة،وكان من الضرورى أن ينشئوا لهم مدرسة فنية جديدة،خاصة بهم تشبع ميولهم وتتناسب مع عقيدتهم،ومن هنا ظهر الفن القبطى المصرى،الذى يختلف عن الفنون السابقة عليه .أما عن خصائص هذا الفن فهى :-

أولا:-الفن القبطى المصرى فن شعبى:-

يعد الفن القبطى المصرى،الفن الاول من نوعه فى الشرق،الذى تميز بصفة الشعبية،فهو لم يخضع لتوجيه الحاكم أو لاشرافه أو لسيطرته،ولم يقم تحت نفوذه بل قام على اكتاف الشعب،فقد كانت الفنون السابقة عليه تنشأ فى

كنف الحكام ورجال البلاط،لتكون تحت رعايتهم،وتكتسب توجيهاتهم، ويقومون بالتالى بالانفاق عليها،ولقاء ذلك كان الحاكم يختار الفنان ويأمره بتنفيذ ما يريده.

هذا فى حين أن الفن القبطى المصرى فى العصر البيزنطى،كان يمول من جانب الشعب،الذى ينفق عليه بلا ادنى مساهمة أو اشراف من الحاكم،وليس ادل على ذلك من أنه صور مناظر الحياة اليومية ومنها:"منظر لفلاح يجمع عناقيد العنب ".كما يتضح من الافاريز الحجرية فى المتحف القبطى،والمسارج المعدنية،التى شكلها الفنان على هيئة طيور أو حيوانات،كذلك لادوات المنزلية والطبية وغيرها،التى تعبر عن أن الفن القبطى نابع من البيئة،على عكس الفن الرومانى مثلا الذى كان يهتم بتصوير مناظر الحروب والانتصارت وتماثيل الاباطرة والاحكام .

ثانيا:-الفن القبطى فن دينى :-

نشأ الفن القبطى فى صعيد مصر حيث الدير الابيض على مقربة من سوهاج ودير الانبا سمعان فى اسوان، ثم نشأ فى كنائس مصر القديمة . هذا الى جانب ان الفن القبطى يعبر عن مناظر دينية مستوحاة من الكتاب المقدس، كذلك يظهرفى الايقونات أى الصور المقدسة، التى تصور السيد المسيح والعذراء مريم والقديسين والشهداء،كذلك يظهر فى المنسوجات ممثلة فى الملابس الدينية، التى يرتديها رجال الدين وقت تأدية الشعائر الدينية . وايضا فى الاخشاب حيث نجد الفنان المصرى القبطى يجسم موضوعا باكمله من حياة السيد المسيح وخير مثال على ذلك لوحة دخول السيد المسيح اورشليم، ويتضح كذلك فى العتبة العليا لباب الكنيسة المعلقة وهى موجودة الان بالمتحف القبطى .

كذلك لم ينس الفنان القبطى المصرى فى العصر البيزنطى أن يصور القصص الدينية والموضوعات المستوحاة من الكتاب المقدس، ونجد على صخرة واحدة ثلاثة عشر منظرا، تمثل حياة السيد المسيح، هذا فضلا عن الزخارف

الكتابية بالحروف القبطية فى التحف المعدنية مثل أغلفة الاناجيل، التى شملت بعض الآيات من الكتاب المقدس .

ثالثا:-الفن القبطى المصرى فن رمزى :-

تعد الرمزية من أهم خصائص الفن القبطى، وترجع نشأتها إلى الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التى شهدتها مصر فى مرحلة ما قبل انتشار المسيحية فى منتصف القرن الأول الميلادى. فلم يكن الدين المسيحى يهدف بأى حال من الأحوال إلى ابتداع رموز للتعبير عنه، وإنما نشأت رموز هذا الفن بشكل عفوى نابع من الثقافة الشعبية المصرية آنذاك. وعلى الرغم من أن الفن القبطى لم تكتمل ملامحه ليصير طورًا فنياً له خصائص مميزة إلا فى القرن الرابع، إلا أن شيوع الرمزية فى هذا الفن بدأ منذ القرن الثانى الميلادى ليستمر كملمح رئيسى للفن القبطى بشكل عام، فقد استخلص المصريون من الموروث الشعبى الدينى والأسطورى – خاصة المتعلق بالطقوس الجنائزية – رموزاً تعبر عن مفاهيم العقيدة المسيحية وبخاصة مفاهيم الخلاص والتطلع إلى الملكوت.

وهناك أسباب ساهمت فى شيوع استخدام الرموز بين العامة تتلخص فى استخدام هذه الرموز كعلامة سرية فيما بين المؤمنين خلال عصور الاضطهاد الرومانى الذى عانى منه المسيحيون الأول، كما أن هذه الرموز كانت الوسيلة الأكثر مثالية لتعليم وشرح حقائق الكتاب المقدس بشكل أكثر تجسيدًا فى زمن شاعت فيه الأمية. علاوة على أن الرموز لعبت دوراً هامًا فى تمصير المسيحية، إذ أن هذه الرموز كانت مصحوبة بشروح وتفاسير مستوحاة من الموروث المصرى واليونانى وذلك لتبسيط ماهية العقيدة الجديدة خاصة فى العصور الباكرة لانتشار المسيحية، كذلك ساهمت الرموز فى تأصيل مدرسة فنية محلية مصرية متميزة عن باقى الأفكار التى أمنت المسيحية.

ولم تقتصر رموز الفن القبطى على الموروث الحضارى المصرى

واليونانى فقط، ولكنها اعتمدت أيضاً بشكل واسع على الكتاب المقدس،خاصة بعد الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً فى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وعلى الرغم من قلة الرموز المستوحاة من الكتاب المقدس إلا أنها أصبحت منهلاً لا غنى عنه للفنان القبطى، فصارت قصص الأنبياء المدونة فى التوراة موضوعات لها أهمية كبيرة فى الفن القبطى باعتبارها رموز لمفاهيم مسيحية مثل مفاهيم الخلاص، العقاب، الخلود أو باعتبارها نبوءات لمقدم المسيح المخلص، ومن أبرز هذه القصص قصة أضحية إبراهيم لابنه اسحاق، ويوسف وأخوته، والنبى يونس والحوت، وخطيئة آدم وحواء.

أما فى القرن السادس الميلادى فقد تراجعت موضوعات العهد القديم لتحل محلها تدريجيًا صور القديسين والشهداء كنوع من البحث عن تأصيل جذور المسيحية بعيدًا عن اليهودية، وكذلك تأصيل المدرسة المسيحية الأرثوذكسية ونضالها فى مواجهة الكنيسة البيزنطية خاصة بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م.

أماعن الرموز التى أستخدمت فى الفن القبطى المصـــرى فـــى العصـــر البيزنطى فهى كثيرة ومتعددة ولكل منها مغزاه الدينى ومنها على سبيل المثال : استخدام السمكة وعناقيد العنب، ورموز على شكل طيور مثل الحمامة والنســر وطائر العنقاء والاسد . وهذه الرموز لم تستخدم من قبيل الصدفة،ولكنها ذكرت فى الكتاب المقدس، ولها دلالات ومعان روحية .

فن التصوير والرسم وفن النحت والعمارة :-

برع أهل الاسكندرية فى فن التصوير وكذلك فى فن النحت .أما عن فـــن التصوير فقد نشأ هذا الفن فى خدمة الكنيسة،وقام على اساس الفن الهلينســتى، ومن ابرز الامثلة على ذلك الفن تلك الصور التى وجدت بمقابر الاسكندرية فى القرن الرابع.

وما لبثت الاسكندرية أن احتلت مركز الصدارة فى فن التصوير، وذاعت شهرتها فى هذا الفن،وقبلت كنيستها عن طيب خاطر ان تزين اضرحتها ومشاهدها، بتلك الوحدات الزخرفية الجذابة، التى ابتدعها اهل الاسكندرية . وحفلت العمائر الدينية فى القرن الرابع والخامس الميلاديين بصور الفسيفساء، التى تحتوى على الرسوم والمناظر الدينية كالطيور والازهار ومناظر الصيد والقنص .

وقد ترك الاثر الهلليني بصماته على فن التصوير المصرى فى العصر البيزنطى،ويتضح ذلك من خلال ما عثر عليه بالفيوم من صور مصرية تنبض بالحياة والتعبير .وكذلك يظهر من خلال صور الايقونات المكتشفة فى سيناء وغيرها .

ويبدو ان تصوير المخطوطات كان يعتبر فنا من الفنون الشائعة فى مصر، والراجح أن هذا الفن،خلق فى الاسكندرية مهنة تصوير بعض الكتب المسيحية الهامة .فالصور الدقيقة التى يزدان بها كتاب المزامير المخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس،انما يدل على ان تصوير مزامير داود حدث بالاسكندرية،وذلك لاحتوائها على العديد من الرموز والعمائر ذات الالوان الزاهية البراقة .

أما عن الفن الاسكندرى بصفة خاصة، فهو فن زخرفى، اتسم بدقة التفاصيل والواقعية فى التصوير، ويرجع سبب ذلك الى ما اتصف به أهل الاسكندرية من صفات منها الميل الى اللهو والمرح والسرور، لذلك توافرت فى الفن الزخرفى جميع العناصر التى تشبع ذوق أهلها ومن أمثلة ذلك الفن : تصوير المحبين وهما يلعبان ويقطفان عناقيد العنب، ويحصدان الزرع، كذلك تصوير المناظر الطبيعية الخلابة، ومناظر الازهار والحدائق والحقول وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن الفنان المصرى استخدم ملكتى الخيال والابتكار

بالإضافة إلى ما ورد فى الكتاب المقدس وفى المصادر الدينيـة الأخـرى فـى تصوير موضوعات من حياة السيد المسيح فيما وراء الطبيعة المرئيـة، وهـذه غالباً ما كانت تحتوى على كائنات خرافية مكونة من أجزاء من كائنـات حيـة كمحاولة منه لأعطاء التصوير بعدًا يميل إلى المصداقية. ومن أمثلة ذلك الرسم الجدارى الجصى الموجود على جدران أجدى القلايات فى دير القديس أبوللو فى باويط، وهو يمثل قصة استطاع الفنان أن يعبر فيها عن كل ألوان الشـر مـن خلال ملئ الخلفية بكائنات حية بعضها خرافى ترمز للشر ومن أمثلتها : كـائن خرافى مركب جاء النصف العلوى منه جسم آدمى مجنح والنصف السفلى ذيـل ثعبان، وكائن خرافى آخر نصفه العلوى آدمى والسفلى جسم جواد.

ومن أمثلة الموضوعات الدينية ذات السمات التخيلية فى مصر موضوع "التجلى" وأروع نماذجه فسيفساء دير سانت كاترين، وأيضاً موضوع "الصعود" وقد تم التعبير عن الكون بدائرة يجلس فى وسطها السيد المسيح على العـرش، وتحمل الدائرة المخلوقات الأربعة. وكذلك التعبير عن "الملائكة" فـى صـورة شكل آدمى كامل الهيئة له رأس وجذع وأطراف وذراعين وساقين، ولكن يخرج من خلف الظهر جناحان. وقد استقى الفنان المصرى هذه الصورة من المصرى القديم، فالجناحان يدلان عند الأخير على الحماية التى تفرضها بعـض الآلهـة المعبودة التى تسكن السماء، مثال الآلهة "نوت" التى تبسـط جناحيهـا لتحمـى أوزوريس. وكانت تصور على هيئة جسم آدمى لأنثى لها جناحين. وهكذا جمع فن التصوير فى مصر فى العصر البيزنطى بين الكائنات الخرافية وبين السمات التخيلية.

أما عن **فن الرسم القبطى** فقد ظهر من رد الفعل القومى للأقبـاط إزاءا محتليهم البيزنطيين. فمواطنوا الاسكندرية من الأثرياء المتأغرقين مـالوا للفـن الرومانى المتأخر الذى كان مزدهراً فى كافة أنحاء الإمبراطورية الشرقية، بينما

أنشأ باقى المواطنين فى الأقاليم الأخرى مدرسة وطنية خاصة بهم. وبـــرغم أن طراز الرسم القبطى يذكرنا لأول وهلة بالفن البيزنطى إلا أنه يتشابه مع الطراز المصرى القديم فى نواح عديدة.

وفى العصر القبطى المبكر ساد الطراز الاسكندرى ولكن بعـــد انفصـــال أصحاب الطبيعة الواحدة فى مصر عن بقية المسيحيين الـــذين اتبعـــوا مـــذهب الطبيعتين الصادر فى مجمع خلقدونية ٤٥١م، تطور الطراز الوطنى الإقليمـــى وازدادت أهميته، ولكن الطرازين كليهما لم ينفصلا عن الديانة المســـيحية لأن كافة الأعمال الفنية كانت تنفذ لأغراض دينية.

وقد كان الطراز القبطى نمطياً ولكنه شديد التأثير، اتصف بالبساطة فـــى تحديد الخطوط، وقد ظل منتشراً من القرن الخامس حتى القرن السابع الميلادى.

وتوجد غالبية الرسومات القبطية فى الكنائس والأديـــرة، وموضـــوعاتها دينية بطبيعة الحال هذا إلى جانب المناظر التى تمثل أحـــداث العهـــدين القـــديم والجديد مثل: آدم وحواء، نوح والفلك، يـــونس والحـــوت، يعقـــوب وإبـــراهيم وإسحاق، الخروج، الهروب إلى مصر، وغيرها. أما عن المناظر الخاصة بحياة السيد المسيح فهى نادرة.

ومن أكثر المناظر الشعبية صورة العذراء حاملة الطفل يســـوع محاطـــة أحياناً بالتلاميذ، وكذلك مناظر تصور هروب العائلة المقدسة إلى مصر، وعماد السيد المسيح فى نهر الأردن ثم دخولها أورشليم بالإضافة على العشاء الأخيـــر والصلب ثم القيامة وأخيراً صعود السيد المسيح، وصورة العذراء المثيرة للانتباه فى أثناء البشارة والميلاد، كما أن بعض الكنائس كانت تصور القـــديس الـــذى تجعله شفيعاً لها مثل القادة العسكريين ومنهم مارجرجس مع مشاهير الرهبـــان والنساك.

وقد وصف الكتاب العرب فى مصر أثناء العصور الوسطى لوحات فنيـــة

عظيمة منها تلك اللوحة الشهيرة فى ضريح القديس مينا بالقاهرة، ولكــن هــذه النماذج العظيمة للفن القبطى قد اختفت. ومن المؤسف أن ما يعرض حالياً مـــن فن الرسم القبطى ما هى الا النماذج الرديئة الموجودة فى الكنائس المغمورة التى لم تصل إليها يد التخريب والتدمير.

العمارة :

كانت العمارة القبطية تنفذ عن طريق فريق عمل يشارك فيــه المجتمــع ككل. ويدل على هذا العمل المشترك ما نراه من عمــارة الكنــائس والأديــرة، بالرغم من غموض بداية العمارة المسيحية القبطية.

استفاد المسيحيون الأول من العمائر المصرية القديمة، وذلــك بتحويــل المعابد أو بعض أجزائها على سبيل المثال إلى كنائس، ولكن هذا لم يمنع مـــن بناء كنائس خلال القرون الأولى لانتشار المسيحية ومنها كنيستين بالإســكندرية باسم العذراء مريم كذلك اقيمت كنائس أخرى فى الإسكندرية. ومصر القديمــة (الآن) ما زال بها خمس كنائس قديمة أهمها : كنيسة أبــى ســرجة (القــديس سرجيوس) التى بنيت فى القرن الخامس الميلادى، وكرست على اسم اثنين من الجنود الشهداء هما سرجيوس وواخس اللذين استشهدا فى أوائل القرن الرابــع الميلادى، وكان السرداب الموجود داخلها هو المكان الذى استراحت فيه العائلة المقدسة حينما جاءت إلى مصر.

أما الكنيسة المعلقة : فهى واحدة من أجمل كنائس مصر القديمة بنيت فى القرن الخامس الميلادى ويطلق عليها اسم المعلقة لأنها بنيت فــوق حصن بابليون وتحديداً فوق الباب الجنوبى للحصن وعلى الحوائط التى تحدد قلعة بابليون القديمة، وكانت مقراً لبطاركة الكنيسة القبطية خلال الفترة من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر.

أما الكنائس الأخرى بالمنطقة فهى كنيسة القديسة بربارة وبنيت كذلك فى القرن الخامس الميلادى (إحياء لذكرى شهيدة من شهداء المسيحية) وتقــع فــى الجانب الشرقى من حصن بابليون، كما تقع بالقرب مــن معبــد ابــن عــزرا اليهودى. وقد أعيد بنائها فى القرن العاشر مع احتفاظها ببابها الخشبى الذى يعد آية من آيات الفن الرفيع. أما كنيسة مار جرجس فقد شيدت على أحــد برجــى بوابة الحصن، وأخذت شكله العام فى استدارة بنائها، كما أقيمــت فوقهــا قبــة كبيرة، وهدمت فى القرن الثامن للميلاد وجددت فى القرن العاشــر. ويبــدو أن عمارة هذه الكنائس كانت هى النموذج الذى اتبع فى بناء كافة الكنائس اللاحقــة بما فيها الكنائس الحالية.

فن النحت

تتكون نماذج النحت القبطى المبكر من بقايا أعمال وجدت فى كــل مــن البهنسا واهناسيا وغيرها، ترجع إلى القرن الرابع الميلادى. وقــد نقلــت إلــى المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية وإلى المتحف القبطى بمصر القديمــة. ومعظم هذه القطع أخذت من مبان غير مسيحية إذ أنها عبــارة عــن أجــزاء معمارية مثل تيجان الأعمدة والحنيات والمحاريب التى زخرفت بشرائط ملتفــة من أوراق الأزهار وأوراق العنب وقــد اختلطــت أحيانــاً بصــور الطيــور والحيوانات والأشكال الهندسية. هذا إلى جانب أن معظم نماذج النحت الموجودة ترجع إلى ما بين القرنين الخامس والتاسع الميلاديين.

ويتكون النحت القبطى من الأعمال الحجرية المنحوتة التى توجــد فــى الأديرة والكنائس على شكل قطع معمارية خاصة المحاريب والأفاريز وتيجــان الأعمدة، وأكثر نماذجها اثارة للانتباه هى تلك المحفورة على شكل سلال تحتوى على أرغفة وأسماك من الحجر. أما المادة المستخدمة فى صنعها فهى الحجــر الجيرى أو الحجر الرملى.

وقد استخدم فن النحت لزخرفة المبانى المسيحية ومع ذلك فإن الوحـــدات الزخرفية مازالت هى الوحدات التقليدية الموجودة فى البهنسا واهناسيا بالإضافة إلى الصليب القبطى المأخوذ عن علامة الحياة عند المصريين القـــدماء والتـــى تسمى (العنخ) وهى الأثر الوحيد من فنون مصر الفرعونية الموجـــودة فـــى أعمال الحفر القبطية، وقد اتخذ شعاراً للمسيحيين مع بدايـــة القـــرن الســـادس الميلادى .

ومن نماذج النحت القبطى أيضا أعداد كبيرة من شواهد القبـــور القبطيـــة التى ما زالت موجودة ويرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن الميلاديـــين. والشاهد منها يتكون من عمود حجرى محفور على سطح مستو مـــع صـــورة للمتوفى هو واقف رافعاً ذراعيه فى وضع المتضرع لله، ويحفر عليهـــا أيضـــا صور للطيور والصلبان، التى تعتبر هى الوحدات الزخرفية الشـــعبية. وكانـــت شواهد القبور حتى القرن السادس الميلادى محفور عليها زهريـــات أو حـــدات نباتية أو علامة العنخ، ولكن بعد هذه الفترة تحولت الشواهد إلى ألواح مستطيلة كبيرة بها أحياناً حليات مثلثة الشكل أو صغيرة لها قمم مستديرة. وقد تضـــمنت معظم شواهد القبور نقوشاً بسيطة تبين اسم ومكان المتـــوفى، ومعهـــا عبـــارة جنائزية مسيحية أحياناً، وأحياناً تتضمن تاريخ الوفاة مدوناً حسب الفترة الزمنية (كانت الفترة الزمنية تتكون من١٥ سنة تدور فى شكل دورات متتاليـــة حســـب النظام الذى وضعه دقلديانوس ليسهل الشئون الإدارية).

ومن المعروف أن الاسكندرية صنعت التوابيت الرائعة،ومن اشهرها تابوت القديسة كونستانس، والتابوت المنسوب الى القديسة هيلانة، وهذه التوابيت محفوظة فى الفاتيكان، وتحمل هذه التوابيت رسوم تتكون من أكاليل الازهار، ومن أطفال يرقصون بين اغصان الاشجار .

كذلك يشهد بعظمة فن النحت بالاسكندرية وبراعة اهلها فيه تلك الادوات

المصنوعة من العاج،التى كان لها باسواق الاسكندرية أهمية تجارية .وقد عثـر فى مقابر الاسكندرية على بعضها،وقد ظلت محتفظة برونقها وجمالهـا طيلـة العصر البيزنطى. ومن أشهر التحف العاجية تحفة "بربرينى "المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس وهى تمثل الامبراطور قسطنطين،حامى المسـيحية فـى هيئـة الفارس المنتصر، وهى الهيئة التى يحبها المصريون .هذا الى جانـب قطعـة آخرى من العاج محفوظة فى نفس المتحف،وهى عبارة عن رسم يمثل القـديس مرقس بين خلفائه من البطاركة .

النسيج :

يظهر الفن القبطى كأحسن ما يكون فى النسيج، ويعود الفضل فـى ذلـك إلى عادات أقباط القرن الرابع الميلادى وما تلاه خاصة فيما يتعلق بالدفن لأنها حفظت نماذج نسيج هذه الفترة. إذا كان الموتى يدفنون وهم يرتدون الملابـس التى كانوا يرتدونها فى حياتهم اليومية ممثلة فى الجلاليب، والعباءات، وأغطية الرأس، والجوارب، والصنادل والأحزمة. وكان الجسم أحياناً يلـف فـى كفـن مصنوع من النسيج الذى يستخدم فى الستائر التى تعلق على الجدران، وقد ظلت المنسوجات فى القبر ولم تتحلل، بل حفظت فى حالتها الأصلية، وظهـر ذلـك بجلاء فى مقبرتين قبطيتين رئيسيتين فى أخميم والشيخ عبادة.

ويمكن التعرف كذلك على أنواع الثياب والمنسوجات من خلال البرديات الخاصة بعقود الزواج، والتى يتضح من خلالها أن الثوب الرئيسى فى العصـر الرومانى والبيزنطى كان يتكون من قميص يصنع غالباً من الكتان وأحياناً مـن الصوف، ويزخرف عادة من الأمام والخلف بأشرطة على الأكتاف. أما ثيـاب رجال الدين فكانت تصنع من نسيج الكتان المزين برسوم هندسية رقيقة. وكانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة (القباطى) وهى أقـدم المنســوجات المزخرفـة، والزخرفة هنا نسيجية مكونة من لونين أو أكثر، وغالبية الثـوب كـان اللـون

الأبيض أو الكحلى أو الأرجوانى، أما الزخارف فبألوان متعددة.

وتظهر آلاف النماذج المتوفرة من النسيج القبطـى أن لوحـات النسـيج الصوفى كانت واسعة الانتشار وكانت تعلق على الحوائط، والسـتائر وأغطيـة المذبح وغيرها. وكانت تصنع من الصوف الملون والخيوط غيـر المصـبوغة المنسوجة على التيل. وكان الصوف المستخدم فى لوحات النسيج الصوفى ملونا بالصبغات النباتية، هذا وقد انتشر فيها استخدام اللون الواحد كذلك كالقرمزى أو الأحمر بداية من القرن السادس فصاعداً.

أما عن زخرفة النسيج القبطى فكانت مشابهة لزخرفة الأعمال الحجرية، إذ استخدم فى الزخرفة أوراق الأشجار والأسماك والحيوانات خاصة الأرانـب البرية والأسود، وسيقان الكرمه التى تبرز من السلال.

استيلاء الفرس على مصر (٦١٦ - ٦١٩ م) :

بعد أن تمكن الفرس من الاستيلاء على مدن الشام كان لابد وأن يتممـوا فتوحاتهم بالاستيلاء على مصر . لذلك بعد أن أكمل الفرس استعداداتهم الحربية حوالى نهاية خريف أو شتاء عام ٦١٦م بدأوا فى المسير نحو مصر عن طريق غزة والصحراء، فاستولوا أولاً عن العريش (رينوقولورا Rhinokulura ثم على بلوزيوم (الفرما) بدون عناء ولا مشقة، وخرب الفرس كنائسـها وأديرتها، ثم استولوا على ممفيس وأخذوا طريقهم إلى بابليون، غير أنه لم يـرد ذكـر فـى المصادر عن إخضاع الفرس لهذه المدينة الحصينة أو لاستيلائهم عليهم .

ولسوء الحظ فإن المعلومات الخاصة بهذه الحملة قليلة، حتى أن اسم قائد تلك الحملة موضع خلاف بين المؤرخين فمنهم مـن يـذكر أنـه شـهرباراز Sharbaraz ومنهم من يذكر أنه شاهين، ويضاف إلى ذلك أن الجـزء المتعلـق بتاريخ هذه الفترة مفقود فى مخطوطة يوحنا النقيوسى .

سار جيش الفرس برّا بعد فتح ممفيس، يساعده أسطول عظيم فــى نهــر النيل واتجه الفرس نحو مدينة الإسكندرية متتبعين الشاطىء الغربى للنيل عــن طريق الفرع الكانوبى حتى وصلوا إلى بوابات الإسكندرية، وشاع الاضــطراب والفزع فى المدينة عند سماع نبأ اقتراب الفرس منها، غير أن مدينة الإسكندرية كانت من المناعة والحصانة ما جعلها تصمد فى مقاومتها للفرس، فقــد كانــت المدينة محاطة بالأسوار وكان لها أبواب حصينة .

وتحتم على الفرس حصار تلك المدينة الحصينة، التى لا يجــدون فيهــا مطمعــاً، وفى أثناء الحصار كان الفرس يهاجمون المناطق المحيطة بالمدينــة من الريف، ولا سيما ما فيه من الأديرة، ويشفون بذلك ما فى نفوسهم من الغيظ لفشلهم أمام مناعتها وصمودها . فيذكر ساويرس ابن المقفع أنه كان بــأطراف المدينة ستمائة دير عامرة ... يعيش فيها الرهبان فى أمن وبلا خــوف ولكــن أحاط بهم الفرس، وقتلوهم جميعــاً بالسيف إلا عددًا قليلاً منهم، ونهب الفــرس ما حوته هذه الأديرة من أموال وانية، ثم هدموا تلك الأديرة، وتركوها خاويــة على عروشها .

تم للفرس الاستيلاء على مدينة الإسكندرية بالخيانة والخديعــة إذ يــروى صاحب التاريخ السريانى المجهول أن الفرس حاصروا المدينة لمدة طويلة، ولم يستطيعوا فتحها، وعندئذ خرج لهم المدعو بطرس وكان قد قدم إلى الإسكندرية منذ طفولته للدراسة ووعد قائد الفرس بأن يسلمه هذه المدينة وكان بطرس هــذا قد وجد فى أحد الكتب ما يلى :

« إذا ما اشتد الضيق فى الإسكندرية فسوف تسقط مــن البــاب الغربــى المطل عل البحر » ويبدو أن بطرس دل الفرس على ذلك، فاســتعدوا وركبــوا مراكب الصيد وفى الفجر والظلام لازال مخيمــاً، استتروا فى مراكب الصــيد هذه، واختلطوا بالصيادين، ودخلوا المدينة، وذبحوا حرس الأبــواب وفتحوهــا

لزملائهم . وحاول بعض أهل الإسكندرية الهروب من المدينة عن طريق البحر، ولكن الرياح دفعت بالسفن، التى كانت تحمل كنوز الكنيسة وأموال أهل المدينة، إلى معسكر الفرس، فأرسلوها إلى كسرى مع مفاتيح المدينة، وذلك فى السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى (٦١٨ - ٦١٩م)، ويتضح من هذه الرواية أن مدينة الإسكندرية فتحت عنوة وبالخديعة والخيانة.

عامل الفرس أهل الإسكندرية بقسوة وعنف، فيذكر ساويرس أن الوالى الفارسى نائب كسرى ومقدم الحرب . أمر كل شاب فى مدينة الإسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٥٠ عامًا أن يخرجوا ليأخذوا عشرين دينارًا، وعندما اجتمع شباب المدينة، كتب أسماءهم، وهم يظنون أنهم يأخذون العطية التى وعدهم بها، ولكن عندما علم بخروجهم جميعًا، أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعًا بالسيف، وبلغ عدد من قتلهم ثمانية ألاف رجل .

ويرى بتلر أن الفرس كانوا قساة، فإن شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت لهم بغير قتال، ويرى كذلك أنه من المضحك ما جاء فى رواية ساويرس من ذكر الوعد، الذى وعده القائد بإعطاء المال، وكذلك كتابة أسماء ألاف من الشباب تمهيدًا لقتلهم، ويستبعد بتلر فى نفس الوقت أن يكون ساويرس ذلك المؤرخ المصرى مخطئًا، وهو الذى يقيم فى مصر ويعرف أخبارها .

حقيقة أن رواية ساويرس تنم عن روح القسوة والعنف التى عامل بها الفرس أهل الإسكندرية كما تظهر مدى كراهية ساويرس للفرس، غير أن ما جاء بها بشأن كتابة أسماء ثمانية آلاف تمهيدًا لقتلهم ليس بالأمر المضحك كما ذهل بتلر بل من المحتمل أن الفرس لجأوا إلى هذه الوسيلة كنوع من الحيلة والخديعة، هذا وأن كانت تلك المقتلة، التى ذكرها ساويرس مبالغًا فيها، ولم يرد لها ذكر فى الرواية السريانية عن فتح الإسكندرية ولكن هذا لا يمنع أن

الفرس تصرفوا بوحشية خلال السنوات الأولى من الاحتلال .

أما نيقتاس حاكم مصر، فما أن علم بسقوط الإسكندرية فى يد الفرس حتى خارت شجاعته، وعزم على الفرار، وسلم الإدارة إلى قائد الجيش إسحق وأبحر على ظهر سفينة، كما اكتشف بطريرك الإسكندرية يوحنا المتصدق مؤامرة لاغتياله فقرر بدوره أن يذهب بعيدًا، وقد تبع هذا السلوك السيىء عدد كبير من الموظفين الرسميين، الذين شحنوا ثرواتهم فى السفن، ولكن الفرس نجحوا فى الاستيلاء على هذه السفن بما فيها، وما كان منهم إلا أن أرسلوا الموظفين بكنوزهم وثرواتهم إلى كسرى .

أبحر نيقتاس ومعه يوحنا المتصدق بطريرك الإسكندرية إلى القسطنطينية ولكن عندما وصلا إلى جزيرة رودس سقط يوحنا فريسة للمرض، فعاد ثانية إلى قبرص، حيث مات فى نفس المكان الذى ولد فيه وهو اماثوس . والواقع أنه لم يكن أمام نيقتاس سوى الهرب، فلم يكن لديه سوى قليل من الرجال، فضلاً عن كونهم غير مدربين، وليس لديهم خبرة بفنون الحرب والقتال ومن ناحية أخرى لم يكن أهل الإسكندرية على استعداد لمد يد العون له لمواجهة الفرس نظرًا لكراهيتهم لكل ما هو بيزنطى، ورغبتهم فى التخلص من الحكم البيزنطى، فضلاً عن أن القمح لم يعد يصل إلى مدينة الإسكندرية من ريف مصر، ولهذا لجأ يوحنا المتصدق إلى استيراد القمح من صقلية، غير أن ذلك لم يكن كافيًا فلما طال أمد الحصار ونفدت الأقوات، ولم يأت المدد من قبل هرقل أيقن الناس أنه لابد لهم من الاستسلام، ولم يستطيع نيقتاس أن يفعل شيئًا أمام ذلك سوى الرحيل .

تابع الفرس تقدمهم، فاستولوا على صعيد مصر دون مقاومة تذكر، وبلغوا بفتوحاتهم أطراف وادى النيل وحتى أسوان،غير أنهم لم يتخلوا عن سياسة العنف والقسوة تجاه المصريين، فعندما وصل القائد الفارسى مدينة نقيوس

(ابشادى مركز تلا بمحافظة المنوفية) أخبره قوم بالمدينة عن جماعة من الرهبان، يعيشون فى الجبال، يقدر عددهم بسبعمائة راهب، وأن لديهم أموالاً كثيرة، وأنهم يحتمون فى حصن، فأرسل القائد الفارسى جيشه، فأحاط بهم وحاصرهم فى الليل، وما أن أشرقت شمس الصباح حتى أقتحم عليهم الحصن وقتلهم جميعاً ولم يبق أحد منهم .

أحدث فتح الفرس لمصر والإسكندرية أثرًا بالغاً فى العالم أنذاك فقد عادت مصر إلى ظل السيطرة الفارسية، بعد فترة تزيد على التسعة قرون، وكان الملوك الساسانيون يطمعون دائماً فى أن يمدوا حدود إيران إلى ما كانت عليه أيام الهخامنشيين، ومن ثم زادت حملة الفرس هذه على مصر والإسكندرية من النفوذ الفارسى بدرجة كبيرة . كما كان سقوط الإسكندرية والاستيلاء على مصر ذا وقع شديد على البيزنطيين، فالإسكندرية كانت مركزًا ثقافياً كبيرًا، فضلاً عن كونها ميناء عظيماً على البحر المتوسط، كما أن مصر كانت مخزن غلال القسطنطينية وبضياعها توقفت امدادات القمح المصرى، مما كان له أبلغ الأثر على الأحوال الاقتصادية فى العاصمة البيزنطية.

استعادة مصر والشام من أيدى الفرس :

كادت الإمبراطورية البيزنطية تهوى أمام اتساع الخطر الفارسى، وابتلاعه للولايات البيزنطية الكبرى ممثلة فى (ما بين النهرين) Mesopotamia وسوريا وفلسطين ومصر وخلقدونية، بل وتهديده القسطنطينية نفسها، وخرج الفرس من قتالهم مع الدولة البيزنطية محملين بأعداد لا تحصى من الأسرى، ومحملين بالثروات وبأعمدة الرخام والمرمر، وبأونى النحاس وبلوحات وشارات عديدة من آسيا الصغرى ومن بلاد الشام.

لم تكن القسطنطينية فى ذلك الوقت موضع تهديد من جانب الفرس فحسب

بل ومن جانب الأفار Avars كذلك - الذين عبروا تراقيا، وهـددوا العاصـمة البيزنطية من ناحية البر ووصلت حالة الدولة البيزنطية السيئة فى ذلك الوقـت إلى درجة أن فكر الإمبراطور هرقل فى ترك عاصمته والذهاب إلى قرطاجـة فى أفريقية، لولا أهل القسطنطينية، وضغطهم مع البطريرك عليه ليقسم يمينـاً فى كنيسة آيا صوفيا بأنه لن يترك عاصمته .

حاول سـرجيوس Sergius بطريـرك القسـطنطينية أن يعيـد الهـدوء للإمبراطور، وأن يصرف شكوكه وخيبة أمله، على أن هرقل أخبر البطريـرك بأن المشورة والنصيحة والعظات ليست كافية وأنه يحتاج إلـى الوسـائل فالإمبراطورية لا يمكنها مواجهة ذلك العدد من الأعداء دون تجهيـز جـيش، ودون دبلوماسية وكلاهما يحتاج إلى المال الذى لا يمتلكه، وأدرك سـرجيوس الذى لم يكن رجل دين وراع كنيسة فحسب بل كان شخصـاً ذا أفق واسـع أن الإمبراطور على صواب، وأن القرارات الكبيرة ضرورية فى وقت الأزمـات، فشرع فى اتخاذ قرار بنفسه، وأظهر بعد نظره، وذلك بأن وضع بشعور وطنى حقيقى كنوز الكنيسة تحت تصرف الإمبراطور . وتمثلت كنوز الكنيسة فى تلك الأموال المخصصة لأعمال الخير، وفى الشمعدانات وأطباق الكنيسـة وأنيتهـا المصنوعة من الذهب والفضة، وكانت ثروة الكنيسة هائلة فقدمها كلها للدولـة، أرسلت كلها إلى دار سك العملة لتحول إلى عملات جديدة يمكن بها دفع رواتب للجند وشراء السلام .

غير أن هذه التضحية من جانب الكنيسة، كان لها صفة القرض مع التزام من جانب الدولة ممثلة فى شخص الإمبراطور برد قيمة هذا القرض عقب نهاية الحرب، ويبدو أن ذلك القرض تم فيما بين عامى ٦١٩ - ٦٢٠م عندما بدأ سك العملات الجديدة، وفى الوقت الذى بدأ فيه هرقل يعد لحملة عسكرية جديدة .

وفى نفس الوقت اتخذت إجراءات أخرى للحد من النفقات ممثلة فى إلغاء

توزيع الحصة المجانية من القمح، الذى كان يتسلمه سكان العاصمة منـذ أيـام الإمبراطور قسطنطين العظيم وتحمل الأهالى الحرمان بدون اعتراض، ولا شك فى أن هذا الإجراء كان ضروريًا، وخاصة بعد أن فقدت الإمبراطورية مصـر مزرعة الغلال الإمبراطورية فى عام ٦١٦م . كما فرضت الضرائب الباهظـة على رجال الدين . وجرى تخفيض ٥% من رواتب الموظفين، وذلك كله لملء الخزانة الإمبراطورية الخاوية وحتـى يتيسـر للإمبراطـور اتخـاذ الوسـائل الضرورية لخوض غمار حرب ضروس ضد الفرس .

وإذا كانت مشكلة المال قد حلـت، فقـد بقيـت مشـكلة أخـرى وهـى إعداد الجيش، لقد أدرك هرقل أن تنظيم الجـيش البيزنطـى ضـرورة لابـد منها وأنه طالما يتحتم عليه مواجهـة الفـرس فعليـه أن يسـتوعب دراسـة الطرق العسكرية عند الفرس وجوانب القـوة فـى جيشـهم . وأيقـن هرقـل أن العنصر الأساسى فـى الجـيش الفارسـى، هـو سـلاح الفرسـان الـذى يتكون من الطبقة الأرستقراطية فـى الدولـة، وكانـت لـه المكانـة الأولـى دائمـًا فى الميدان وقصب السبق فى ساحة القتـال، وكـان سـلاح الفرسـان الفارسى مجهزًا تجهيزًا عاليـًا، ولذا كان يعول عليـه فـى إحـراز النصـر فقد كان خيالة الفرس رماة مهـرة، وعلـى أعلـى مسـتوى مـن التـدريب والخبرة، يضاف إلى ذلـك أن الجـيش الفارسـى كـان يعمـل بـه جنـود وطنيون وليس جنود مرتزقة . هذا فى حين كـان عمـاد الجـيش البيزنطـى سلاح المشاة الثقيلـة، أمـا سـلاح الفرسـان فكـان يمثـل قـوة صـغيرة للاستطلاع والإغارات السـريعة، وكـان الجـيش البيزنطـى يعتمـد علـى مرتزقة أجانب، وثبت عدم جدوى هـذا النظـام عنـدما أصـبحت الخزانـة الإمبراطورية خاوية .

كان إصلاح الجيش أمرًا حيويـًا وجوهريـًا، ولذلك انسحب الإمبراطور

هرقل – قبل بداية حربه مع الفرس فى شتاء عـام ٦٢١م – خـارج أسـوار القسطنطينية وأقام فى قصر هيريا على الشاطىء الأسيوى حيث تفرغ تمامـاً لدراسة الخطط العسكرية والإمكانيات العسكرية الموجودة لديه . وطرح خططه للحرب، وحاول تنظيم حملته وعكف هرقل خلال عزلته، التى استمرت حتـى عيد الفصح ٦٢٢م على إعداد كتيب إرشادات للخطـط الحربيـة والتكتيكيـة، يسترشد به ضباطه وجنوده وقادته . وبعد انتهاء هرقل من إعداد هذا الكتيـب، قضى عدة أشهر فى تدريب جنوده، وكان يدير تلك التدريبات بنفسه . وبـذلك أعطى هرقل المعركة قبل المعركة .

قرر الإمبراطور قيادة الجيش بنفسه، وسار بذلك على نهج الإمبراطـور موريس (٥٨٣ – ٦٠٢م) الذى قاد الحرب بنفسه ضـد الإفـار وكـان مـن الطبيعى أن يواجه هرقل نفس المعارضة الشرسة، التى واجهها مـوريس مـن جانب مستشاريه وذلك لأنه منذ عصر ثيودوسيوس الأول (٤٩١ – ٥١٨م) لم يكن هناك إمبراطور قبل موريس قد نزل إلى ميدان القتال، وقاد جيشه بنفسـه، وهذا ولم تؤثر المناقشات الطويلة والنصائح من جانب مستشاريه علـى قـراره هذا .

ونظراً لأن الإمبراطور هرقل كان يخشى جانب الأفار فقد أرسل خطابـاً إلى خاقانهم يذكره بالمعاهدة التى تربطهما سويـاً، ومدحه بكثير من المبالغـة وذكر أنه يعتبر كوصى وأب للإمبراطور الشاب قسطنطين ابنه، وذلك طبقـاً للعادة التى كانت سائدة فى تلك الأيام، ووعده بمبلغ كبير من المال وذلـك حتى يستطيع أن ينقل قواته من أوربا إلى آسيا بدون أن يعوقها عائق .

وفى الرابع من إبريل ٦٢٢م وبعـد الاحتفـال بعيـد الفصـح، ذهـب الإمبراطور إلى الكنيسة فى اليوم التالى – أى كنيسة آيا صوفيـا – ودعا إليـه كل من البطريرك سرجيوس والحاكم بونوس ورجال السناتو وكبار المـوظفين

والوجهاء والأعيان وأعلن ابنه قسطنطين كخليفة وشريك له فى العرش، ونائبـًا عنه أثناء غيابه عن العاصمة، ونظرًا لأنه قاصرًا إذ لم يتجاوز العاشـرة مـن عمره، فقد عهد الإمبراطور إلى البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس بتـولى شئون الإمبراطورية، وكان بونوس رجلاً كريمـًا له خبرة ودرايـة بالشـئون الإدارية .

وبعد الصلاة والإبتهال والتوسل، امسك الإمبراطـور بايقونـة المسـيح المخلص، وجعلها لواء له، وتقدم بهـا نحـو الميـناء، وهنـاك ودع عائلتـه والبطريرك وأصدقاءه، ثم ركب السفينة وأبحر فى حملته التاريخية . وبعـد أن عبر البوسفور أبحر إلى خلقدونية، وأخذ منها الطريق الإمبراطورى الكبير عبر أسيا الصغرى، والذى يؤدى إلى قيصرية قبادوقيا وكان قد أمر جنوده بـالتجمع هناك . وعلى طول هذا الطريق أقيمت الحصون، التى شكلت نظامـًا دفاعيـًا ممتازًا، والتى استطاع هـرقل أن يجمع منها فرقـًا جديدة لجيشه، هذا وما أن وصل الإمبراطور إلى قيصرية، حتى استخدم حصنها كمقر أساسى للإمـدادات خلال فترة الحرب، وقضى هناك الصيف كله إلى جوار جيشه ليدرب القـوات الجديدة، وعكف على دراسة الخطط الحربية، وابتكر أساليب جديدة، من ذلك أنه قسم الجيش إلى قسمين وأعطى الجنود الدروع والخوذ والأبواق، وأمـر بـأن يهاجم كل قسم القسم الآخر وأن يشتبكا سويـًا، ولكن بدون سـفك أو أراقـة دماء بل يكتفوا بأحداث الضجيج والصراخ وكأنهم فى ميدان القتال . وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى أن يشجعهم على مواجهة العد وبـدون جهـد ومشقة، وأن يهاجموه بجرأة وإقدام وثبات.

ويبدو أن الفرس كانوا على علم بالاستعدادات البيزنطية ففى خـلال نفـس الصيف، الذى أخذ فيه هرقل جيشه إلى أسيا احكم كسرى قبضته على المسيحيين الأرثوذكس فى مملكته، وفرض ضرائب جديدة من أجل تجهيز جيشه .

كانت خطة الإمبراطور هرقل تهدف إلى استعادة المناطق التى أغتصبها الفرس وإجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف، ولكن نظرًا لأنه كـان مـن العيسر الاتجاه نحو سوريا وفلسطين ومصر لاستعادتها، لذلك كـان علـى هرقل أن يضرب الفرس أولاً فى عقر دارهم وفى قلب فارس ذاتها .

ونجحت خطة هرقل بالفعل بعد قتال دام ست سـنوات، انتهـى بهزيمـة الفرس هزيمة ساحقة فى معركة نينوى عام ٦٢٧م وكان الانتصار الذى حققـه البيزنطيون فى نينوى عظيمـاً إذ فتح الطريق أمامهم إلى طيسيفون عاصـمة الفرس، وأصبحوا على مقربة منها .

ومع أن هرقل كان فى مركز القوة إذ كان هو المنتصر إلا إنـه عـرض على كسرى الصلح وعقد اتفاقية سلام وكتب إليه يقول :

« لندع السلاح، ونسعى إلى الصلح، ونطفأ النيران قبل أن يحتـرق كـل شىء » غير أن كسرى رفض بنود الصلح التى تمثلت فى العودة إلى حدود عام ٦٠٢م وإطلاق سراح الأسرى . وكان رفض كسرى عروض الصـلح مـدعاة لاحتقار أتباعه له، ولنقمه شعبه عليه . وفى ربيع عام ٦٢٨م قامت ثورة ضـد كسرى انتهت بعزلة، وتتويج ابنه شيرويه ملكـاً على الفرس فـى ٢٥ فبرايـر ٦٢٨م . وعقد شيرويه معاهدة صلح وسلام مع البيزنطيين، وتمثلت شروط الصـلح فى إعادة الحدود إلى ما كانت عليه فى عام ٥٩١م وهذا يعنى جلاء الفرس عن جميع الأراضى التى احتلوها، وإطلاق سراح الأسرى .

وبذلك عادت مصر والشام مرة ثانية إلى حظيرة الدولة البيزنطية .

الفتح العربى لمصر :

واكب ظهور الإسلام السنوات الأولى لحكم الإمبراطـور هرقـل، وفـى الوقت الذى شرع فيه هرقل لقتال الفرس، هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة

فى عام ٦٢٢م حيث وضع أسس وقواعد الدولة العربية الجديدة، وما أن فـرغ من ذلك حتى شرع فى توسيع نطاق الدعوة الإسلامية، فولى وجهه شطر بـلاد العرب وخارجها، وبعث ﷺ فى ٧هـ/٦٢٨م رسلاً من أصحابه بكتب إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام والإيمان برسالته، ويقـال أن الرسول ﷺ صنع لنفسه خاتمـاً من الفضة، ونقش عليه عبارة « محمد رسـول الله » وختم به رسائله إليهم .

وكان من بين هؤلاء الملوك والأمراء قيصـر الـروم أو الإمبراطـور البيزنطى هرقل، وقيرس أوكيروس (المقوقس) حاكم مصر من قبله، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل هرقل على الشام .

وكان سفير الرسول ﷺ إلى الإمبراطور هرقل هو دحية بن خليفة الكلبـى وكتب له الرسول الكريم كتابـاً، وأمره أن يسلمه إلى حاكم بصرى ومنه إلـى هرقل، وكان أن تلقى حاكم بصرى الكتاب من دحية وسلمه بدوره لهرقل، الذى قرأه، وكان قد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم يؤتك أجرك مرتين، فإن توليـت فإن عليك إثم الأريسيين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننـا وبيـنكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئـاً، ولا يتخذ بعضـاً بعـض أربابـاً مـن دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وتروى المصادر العربية أن هرقل تلقى كتاب الرسول الكريم بقبول حسن واستقبل سفيره بأدب وحفاوة، وأنه حاول استطلاع أمر هـذا الـدين الجديـد . وتحكى بعض الروايات العربية أيضًا بأن هرقل كاد يسلم، ولكنه مـا لبـث أن تراجع خشية أن يقتله رعاياه أو أن يفقد تاجه . بل ويعلن اليعقـوبى صـراحة

إسلام هرقل ولكنه بلا شك مبالغ فى ذلك ايما مبالغة شأنه فى ذلك شأن ســائر الروايات العربية .

ولم تهتم المصادر البيزنطية بالإسلام فى هذا الوقت المبكر فلم يرد بهــا أى شيء عن كتاب الرسول الكريم إلى هرقل، ويذهب بعضها إلى أن الرســول ﷺ هوالذى ذهب بنفسه إلى هرقل للتفاوض معه، وهو فى طريقه إلى حمص فى الرحلة التى قام بها إلى بيت المقدس عند عودته منتصرًا من فارس وأن محمدًا عقد مع البيزنطيين اتفاقــًا يكفل لهم حرية الانتقال والتجــارة بــين الجزيــرة العربية والأقاليم البيزنطية، وأنه بمقتضى هذا الاتفاق أصبح محمد سيدًا علــى دومة الجندل . هذا فى حين أن الاتفاق مع صاحب دومة الجندل كان – علــى نحو ما تذكره الروايات العربية – بعد معركة تبوك على نحو ما سنرى .

وبعث الرسول ﷺ سفارة أخرى إلى كيــروس Cyrus المعــروف باســم «المقوقس » نائب هرقل على مصر، وكان على رأس هذه السفارة حاطب بــن أبى بلتعة. ويبدو أن حاطبــًا غادر المدينة المنورة فى ذى الحجة عــام ٧هــــ إبريل ٦٢٨م، وفى نفس الوقت الذى غادرها فيه دحية بن خليفة الكلبى ســفير الرسول الكريم إلى هرقل. ووصل حاطب مصــر، والتقــى بــالمقوقس فــى الإسكندرية، وأحسن المقوقس استقبال حاطب ابن أبى بلتعة وأكرمه، وأخذ منــه كتاب الرسول ﷺ إليه الذى استهله الرسول الكريم بعبارة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلــى المقــوقس عظــيم القبط... » ونص هذا الكتاب هو نص كتاب النبى إلــى هرقــل، وفــى نفــس عباراته، وفيه يدعو النبى الكريم المقوقس إلى الإسلام مثلما دعا هرقل من قبل. ويقال أن المقوقس بعد أن قرأ الكتاب، جعله فى حق من عاج وختم عليــه، ثــم دعا كاتبــًا بالعربية، فكتب إلى الرسول ﷺ :

« لمحمد بن عبد الله من مقوقس عظيم القبط سلام »

أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجـاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، واهديت لك بغلة لتركبها والسلام» . وجاء فى رواية أخرى أن المقوقس أهدى الرسول ﷺ بغلة شهباء وحمارًا أشهب وثيابـًا مـن قباطى مصر، وعسلا وعسل بنها وبعث إليه بمال صدقة .

وهكذا كانت النتائج التى انتهت إليها الكتـب والسـفارات النبويـة إلـى الإمبراطور هرقل والى عامليه على الشام ومصر نتائج سلبية . ولم تكن حاسمة فى شىء بيد أنها كانت بلا ريب ذات أثر معنوى عميق فى الـبلاط البيزنطـى وفى الكنيسة البيزنطية .

ويبدو أن البيزنطيين، لم يدركوا أهمية الدين الإسلامى ولا التطور الـذى بدأ يحدث فى بلاد العرب فى المرحلة الأولى من العهد الإسلامى، وكـذلك لـم يقدر البيزنطيون تلك الدعوة التى وصلتهم، ولم يدركوا ما انطوت عليـه مـن عقيدة جديدة، سوف تزلزل أركانهم، وتنتزع أرضهم وذلك أن الدولة البيزنطيـة نظرت إلى الإسلام والعقيدة الإسلامية على أنها ضرب من ضروب الأريوسية، أى اعتبروا الإسلام مذهبـًا مشابهـًا لمذهب الطبيعة الواحدة أو المونوفيزتية . ونهج المؤرخون البيزنطيون نهجًا مماثلاً، فلم يكترثوا لظهور النبـى العربـى، وكان ثيوفانيس Theophanis الذى كتب فى بداية القرن التاسـع، هو المؤرخ البيزنطى الأول الذى سجل بعض الحقائق عن حياة الرسول وعن العرب . أما المصادر البيزنطية التى كتبت بعد ثيوفانيس وعلى رأسها زانـوراس Zanoras فهو يتحامل على المسلمين، ويقدم معلومات مشوشـة وغامضـة عـن محمـد ودعوته بل ويصل به الأمر إلى حد السباب.

اتسعت حركة الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق ثـم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ونجح المسلمون فى فتح بلاد الشام

فيما عدا قيسارية، ثم شرعوا يفكرون فى فتح مصر . وكانت الضرورة تقتضى بفتح مصر بعد أن تم فتح بلاد الشام لأسباب من بينها :

أولاً : أن مصر كانت محور ارتكاز القوات البيزنطية فى شرق البحر المتوسط، كما كانت القاعدة التى يمكن عن طريقها استعادة الشام مرة ثانية والقضاء على الفتوحات الإسلامية هناك فعن طريق مصــر كـان يمكـن إمـداد الموانىء التى لم تسقط فى بلاد الشام وخاصة قيسارية بالمؤن والرجـال والعداد خاصة وأن مصر كانت أقرب قاعدة بيزنطية بالنسبة لبلاد الشـام ومحور ارتكاز القوات البيزنطية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

ثانيًا : كانت مصر ذات مركزًا استراتيجى يهيىء موقعه الجغرافى للبيـزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أى على المدينة المنـورة – مركز الدولة العربية الإسلامية وذلك حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

ثالثًا : رأى المسـلمون فـى الاسـتيلاء علـى مصـر حرمـان الأسـطول البيزنطى من قاعدة يستطيع أن يعمل فيها ضـد المسـلمين سـواء فـى مياه البحر المتوسط قرب سواحل الشام أو فـى ميـاه البحـر الأحمـر قرب الحجاز .

رابعًا : يحقق المسلمون بفتح مصر أهم غرض لهـم مـن حركـة الفتوحـات الإسلامية وهو تبليغ الدعوة الإسلامية إلى بقاع جديدة من الإمبراطوريـة البيزنطية، وتأمن من يؤمن بالإسلام .

خامسًا : الاستفادة من خيرات مصر ومواردها الطبيعية .

هذه الأسباب مجتمعة جعلت فتح مصر بعد فتح الشام ضرورة عسـكرية هامة .

أما عن الفاتح فهو كما نعلم – عمرو بن العاص، وتختلف الروايات حول

مسير عمرو بن العاص لفتح مصر فمنها ما يذهب إلى أن عمرو بـن العـاص أستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى الخروج لفتح مصر، وأنه حسن له فكـرة الفتح، وما يعود على المسلمين من نتائج من وراء هذا الفتح، وأخذ يلـح عليـه ويهون عليه الفتح، حتى أذن له الخليفة بفتح مصر، وأمره بالمسير إليها علـى أنه سوف يرسل له كتاب إذا وصله ولم يدخل مصر أو شيئًا من أرضها فعليـه أن يعود من حيث أتى، وأن دخلها قبل أن يأتيه الكتاب فعليه أن يستمر فى فتح مصر .

وهناك روايات أخرى تذكران عمر بن الخطاب هو الذى كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بفتح مصر بعد أن تم فتح الشام ثم عرض الخليفة قراره هـذا على أهل المشورة ومنهم عثمان بن عفان فخوفه عثمان من أمر فـتح مصـر، فشعر الخليفة عمر بالقلق من أمر فتح مصر لأسباب منها :

١ - إشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل خاصة وأن القوات الإسـلامية كانت متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس لقتال البيزنطيين والفرس.

٢ - أن الخليفة عمر كان يخشى من التوسع فى الفتوحات خاصـة وأن إقـدام المسلمين لم ترسخ بعد فى البلاد التى فتحوها .

٣ - أن توسع المسلمين السريع فى بلا البحر المتوسط يتطلب أسطولاً للـدفاع عن شواطىء البلاد التى استقروا فيها ضد هجمات البيزنطيين وكان العرب يهابون ركوب البحر .

وعلى هذا فقد تردد الخليفة ثانية وتخوف من فتح عمـرو بـن العـاص لمصر بعد أن أرسل إليه يطلب منه فتحها للأسباب السابقة .

وهناك روايات أخرى تذكر أن عمرو بن العاص خرج لفتح مصر سـرًا وبدون استئذان الخليفة عمر، وأنه مضى لفتح مصر بجيش صغير مـن تلقـاء

نفسه، وأن الخليفة غضب منه لذلك، وكتب إليه يوبخه قائلاً له : إلى العاص ابن العاص .... « على أنه لا يعقل أن فتح مصر تـم بهـذا الاسـتخفاف وبهـذه السهولة، ولا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر سرًا وبدون اسـتئذان الخليفـة، خاصة وأن فتح مصر لم يكن مجرد فكرة طارئة عنـت لعمـرو، وأنـه كـان ضرورة عسكرية حتمية بعد فتح الشام لتأمين الفتوحات بها أى بالشام ولطـرد البيزنطيين من مصر والقضاء على قواتهم العسكرية بها .

أما عن مراحل الفتح فتبدأ بفتح عمرو بن العاص لمدينة (العريش) بـلا عناء ودون أية مقاومة وذلك لسببين الأول : عدم وجود حاميات بيزنطية بهـا تقوم بالدفاع عنها والثانى : لم تكن حصون هذه المدينة من المناعة بحيث تقف فى وجه المسلمين .

وبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح العـريش اتجـه نحـو (الفرمـا أو بلوزيوم) وهى مفتاح مصر من ناحية الشرق، وتعد من الحصون الأمامية فـى خط الدفاع عن مصر، وحاصر عمرو الفرما لمدة شهر وذلـك لمنعتهـا رغـم إهمال البيزنطيين إصلاح ما تخرب من حصونها على يد الجيش الفارسى الذى فتح مصر (٦١٦ - ٦١٩م) وبعد شهر من الحصار استسلمت الفرما للمسلمين وذلك لما يلى :

- استبسال المسلمين فى القتال وقوة إيمانهم وصدق عزيمتهم .
- لم يرسل البيزنطيون أى مساعدات أو نجدات لأهل الفرما حتى تقوى المدينة على مقاومة حصار المسلمين .
- مساعدة القبط الذين كانوا بالفرما لعمرو رغبة منهم فى تحرير بلادهـم مـن النفوذ البيزنطى . وهكذا كان القبط بالفرما أعوانـًا للمسـلمين كمـا تـذكر المصادر .

ولهذه الأسباب استسلمت مدينة الفرما للمسلمين، وقد ترتب على ذلك نتائج منها :

١ – فقد البيزنطيون قاعدة هامة من قواعد وجودهم فى مصر، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم .

٢ – أصبح فى أيدى المسلمين معقلاً يؤمن ظهورهم، ويؤمن لهم الطرق المؤدية إلى بلادهم أى ترتب على استيلاء المسلمين على الفرما تأمين خطوط مواصلاتهم مع بلاد العرب، وتأمين طريق العودة إذا ما حلت بهم الهزيمة.

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على الفرما قام بهدم أسوار هذه المدينة وحصونها حتى لا ينتفع بها البيزنطيون إذا ما عادوا إليها، ودفع عمرو إلى القيام بهذا العمل أيضاً عدم توافر القوات معه والتى يمكن أن يتركها لحراسة هذه المدينة .

وبعد الاستيلاء على الفرما سار عمرو بن العاص نحو الجنوب الغربى حتى وصل إلى (بلبيس) وهى من أعمال محافظة الشرقية واصطدم هناك بشخصيتين هما : الأرطبون حاكم بيت المقدس الذى فر إلى مصر، بعد أن استولى المسلمون على بيت المقدس على أمل أن يتخذها قاعدة لقتال المسلمين، وكان يعرف الأرطبون (بداهية الروم) وأراد أن يوقع بداهية المسلمين أى عمرو بن العاص، ولكنه لم يفلح فى ذلك، ولم تجد مقاومته.

أما الشخصية الثانية التى اصطدم بها عمرو بن العاص فى بلبيس فهى (أرمانوسة) ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى هرقل، وكان ابوها قد جهزها وأرسلها إلى بلبيس، لتذهب عن طريقها إلى قيسارية حيث يوجد زوجها قسطنطين بن هرقل هناك . ولكنها ما لبثت أن علمت وهى فى الطريق إليه أنه رحل إلى القسطنطينية، فعادت إلى بلبيس وعندئذ وقعت أسيرة فى أيدى قوات عمرو هى ورجالها وأموالها وجواريها، غير أن عمرو ما

لبث أن أعادها هى وجميع أموالها إلى أبيها معززة مكرمة . وكسب عمـــرو بذلك محبة المصريين وحفظ له المقوقس هذا الجميل .

وبعد استيلاء المسلمين على بلبيس، اتجهوا نحو (أم دنين) شمال حصن بابليون (وموقعها اليوم مكان حديقة الأزبكية) وعند أم دنين دار قتال عنيـف بين عمـرو وبين البيزنطيين الذين تحصنوا فى هذه المدينة واحتشـدوا بهـا، واستمر هذا القتال عدة أسابيع خاصة وأن البيزنطيين كانوا قد أعدوا له عدتهم، وأصبح مركز عمرو وقواته حرجا، وبدأ اليأس يدب فى صفوف جنوده خاصة وأنه لم يعهد بمثل هذه المقاومة من جانب البيزنطيين من قبل . ولذلك أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب طالبـًا المدد، وضاعف جهوده فى نفس الوقت حتـى تمكن من إحراز النصر على البيزنطيين فى أم دنين . وقد ترتـب علـى هـذا الانتصار نتائج من بينها : أن عمرو ضمن حصنًا هامًا يقع فى شـمال حصـن بابليون، كما ضمن موقعـًا استراتيجيـًا هامـًا على النيل وأصبح تحت إمرته الكثير من السفن .

اختلف المؤرخون بعد فتح أم دنين فى ترتيب وقـائع الفـتح الإسـلامى لمصر، وجوهر الخلاف بينهم وهو غزو إقليم الفيوم فالمصادر العربية ترتـب وقائع الفتح على النحو التالى : العريش، الفرما، بلبيس، أم دنين، بـابليون ثـم الفيوم بعد عام من فتح مصر والحصن، أما المؤرخ المصرى يوحنا النقيوسـى فهو لا يذكر وقائع الفتح الأولى بل يبدأ مباشرة بغزو إقليم الفيوم ثم وقعه عـين شمس ثم حصار حصن بابليون . والحقيقة أنه لا يمكن الاتفاق مع رواية يوحنا النقيوسى لأن فتح إقليم الفيوم قبل فتح حصن بابليون أمر غير ممكن لأسـباب من بينها :

١ - أن عمرو بن العاص أثناء قتاله البيزنطيين فى أم دنين طلب الإمدادات من الخليفة، وهذا يعنى أنه لم يكن لديه القوات اللازمة لمواصلة الفتح وغـزو

إقليم الفيوم .

٢ - أن مسير عمرو بن العاص إلى الفيوم كان يتـيح للبيـزنطيين الفرصـة لاسترداد ما استولى عليه عمرو بن العاص من مدن كـالعريش والفرمـا وبلبيس وأم دنين، ويقطعون عليه بذلك طريق العودة إلى بلاده .

٣ - أن مسير عمرو فـي النيل الذى يشرف عليه حصن بابليون سوف يجعـل من السهل على البيزنطيين أن يلحقوا بالمسـلمين خسـارة فادحـة أثنـاء مرورهم من النيل، فمما لا شك فيه أنهم كانوا سيهاجمونه .

٤ - أن العرب كانوا يجهلون جغرافية مصر، ولا سيما إقليم الفيوم الذى يعتبر بمثابة واحة كبيرة فى الصحراء الغربية، وليس هناك ما يدعو إلى أن يبدد الجيش الإسلامى قوته ليفتح أقليمًا بعيدًا مثل إقليم الفيوم، وخاصة وأنه لـم تكن لهـذا الإقلـيم قيمـة عسـكرية حقيقيـة لتـأمين الوجـود الإسـلامى فى مصر .

على أية حال أرسـل الخليفة عمر بن الخطاب الإمـدادات لعمـرو بـن العاص وكانت تتألف من أربعة الآف على رأسهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، وعبادة من الصامت، ومسلمة بن مخلد وقيل خارجة بن حذافة ووصلت هذه الإمدادات إلى عين شمس (هليوبوليس) وما أن علم ثيودور قائد الجيوش البيزنطية فى مصر بوصول هذه الإمدادات حتـى اسـتدعى جميـع الجنـود البيزنطيين من كافة أنحاء مصر ليعزز حامية حصن بابليون، وهرع ثيـودور والمقوقس إلى الحصن حيث قام الأول بتعبئة الجيش وإعداده لقتال المسـلمين . غير أن عمرو نجح فى إخراج البيزنطيين من الحصن والاشتباك معهم بعيـدًا عنه، وبالفعل استعد البيزنطيون لقتال المسلمين عند عين شمس، وعنـدما علـم عمرو بذلك قام بتقسيم جيشه إلى ثلاث كتائب : التقت إحداها بقوات ثيودور فى المكان المعروف اليوم (بالعباسية) ونشب القتال بين الفريقين، وتصور ثيودور

أن تلك الكتيبة تمثــل الجيش الإسلامى بأكمله، ولكن عندما اشتد القتال، انقضت الكتيبة الثانية على البيزنطيين فاختلت صفوفهم، واضطروا للإنسحاب نحــو أم دنين، وهناك انقضت عليهم الكتيبة الثالثة للجيش الإســلامى، فانهارت قــواهم وتشتت شملهم، وقتل عدد كبير منهم، وفر عدد أخر على ظهور السفن متجهين نحو حصن بابليون . أما ثيودور القائد العام للجيش فقد فر إلى الإسكندرية فــى حين احتمى المقوقس بالحصن .

وبانتصار عمرو بن العاص فى عين شمس أصبح سيدًا علــى المنطقــة الإستراتجية المحيطة بحصن بابليون، كما اتخذ عمرو من عين شــمس مقــرًا لقيادته الحربية، ولم يعد أمام عمرو سوى حصن بابليون .

وقام عمرو بنقل معسكره من عين شمس إلى شمال شرقى حصن بابليون، وفى المكان الذى أنشئت فيه مدينة الفسطاط – فيما بعد – وكان مكانا ممتــازًا تحيط به الكنائس والبساتين مما أتاح الفرصة لعمرو لــيحكم الحصــار علــى الحصن. وبدأ عمرو من هذا المكان يعد العدة لحصار الحصــن، وكــان هــذا الحصن على درجة كبيرة من المناعة، ويرجع ذلك إلى أسوراه المتينة وأبراجه العالية، وتوافر الكثير من المعدات والمؤن والذخائر والجند بداخله، وكان علــى رأس حاميته قائد يعرف بجورج وتسميه المصادر العربية الأعيرج إلى جانــب المقوقس . وزاد فى مناعة هذا الحصن أن حفر البيزنطيون حــوله خندق .

مع ذلك فقد صف عمرو جنوده حول الخندق، وشــدد الحصــار علــى الحصن، وضربه بالمنجنيق، ولكن طال امد الحصار فقد استمر لمدة شهر وذلك لأن الفيضان كان مرتفعــًا فملأ الخندق المحيط بالحصن فزاد فى مناعته، هــذا إلى جانب أن البيزنطيين جعلوا للخندق أبواب ورموا فيها حسك الحديد، لــذلك عجز المسلمون عن الاقتراب من أسوار الحصن واكتفوا بالحصار .

ولإصرار المسلمين على حصار الحصن، حاول المقوقس التفاوض معهم

بعد أن رأى تصميمهم على اقتحام الحصن، غير أن المفاوضات باءت بالفشل لأن المقوقس رفض فى بداية الأمر أن يختار واحدة من ثلاث : الدخول فى الإسلام، دفع الجزية أو القتال .

وشدد المسلمون الحصار على الحصن وضربوه بالمنجنيقات وعجز البيزنطيون عن صد هجمات المسلمين على الحصن، ونجح المسلمون فى قتل عدد كبير منهم وأسر عدد آخر، وعندما أدرك البيزنطيون عدم استطاعتهم مواجهة المسلمين طلبوا من المقوقس أن يتفاوض معهم بشأن الصلح، واتصل المقوقس بالفعل بعمرو ليبحث معه أمر الصلح وكانت شروط الصلح على النحو التالى :

١ - يفرض المسلمون على جميع من بالديار المصرية من المسيحيين دينارين عن كل نفس يستثنى من ذلك الشيوخ والأطفال والنساء .

٢ - للمسلمين على البيزنطيين حق الضيافة فإذا نزل عليهم ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليهم ضيافته لمدة ثلاثة أيام .

٣ - أن يبقى للروم أرضهم وأموالهم على ما هى ولا يتعرض لهم المسلمون بشىء .

واشترط المقوقس شرطين هما :

(أ) أن يخير البيزنطيين بين قبول شروط الصلح وبين الخروج من أرض مصر .

(ب) أن تبقى الكلمة الأخيرة فى قبول شروط الصلح للإمبراطور هرقل فإذا لم يقبلها الإمبراطور يعودوا إلى القتال ثانية لذلك اتفق الطرفان على أن تظل جيوشهما فى مواقعها حتى ترد موافقة الإمبراطور هرقل على الصلح .

وترك المقوقس حصن بابليون، وذهب إلى الإسكندرية ومن هناك أرسـل إلى القسطنطينية نص الاتفاق الذى عقده مع عمرو بن العاص، والظروف التى حتمت عليه عقد الصلح معه وطلب من الحكومة الإمبراطورية إقرار الصـلح . وتلقى هرقل خطاب المقوقس لقاء بالغ السوء، وكتب إليه يطلـب منـه قتـال المسلمين بالروم أن رفض المصريون القتال، وأصدر أوامره لقـادة مصـر أن يبذلوا محاولة أخيرة لتخليص الحصن غير أنهم فشلوا فى ذلك لأسباب من بينها:

- أن المياه انخفضت فى الخندق لإنخفاض النيل، وضعفت لذلك آمال المدافعين عن الحصن، كذلك رفض السكان إطاعة أوامر القيادة البيزنطية بل وانضموا إلى المسلمين وساعدوهم فى مهاجمة جانب من الحصن وهو الجانب المطل على النيل، إذ كانوا يغيرون ليلاً على جزيرة الروضة وينقضـون علـى السـفن البيزنطية، التى تتوجه نحو الحصن .
- يضاف إلى مـا سبق أن الإمبراطور لم يرسل إليهم أية إمدادات ثم أنهـم علموا أخيرًا بموت الإمبراطور هرقل، مما كان له أكبر الأثر فـى وهـنهم وضعفهم . لهذه الأسباب جميعـاً عرض جورج (الأعيرج) قائـد حاميـة الحصن على عمرو بن العاص بعد أن تشاور مع قادة الروم – أمر الصـلح وتسليم الحصن له على أن يأمن الجند على أنفسهم، ورحب عمرو بذلك، وتم الاتفاق على أن يخرج الجنود من الحصن خلال ثلاثة أيام، ويحملون معهـم ما يلزمهم من المؤن لبضعة أيام، وأن يأخذ المسلمون الحصن بما فيه مـن ذخائر وآلات حربية وأموال، أن يؤدى السكان الجزية للمسلمين .

وبعد أن خرج الجند البيزنطيون من الحصن تسلمه عمرو بـن العـاص، وبإتمام فتح حصن بابليون انجز عمرو الجزء الأكبر من فتح مصر، وأصـبح الطريق مفتوحـاً أمامه إلى الوجه البحرى والإسكندرية، فما كان من عمرو إلا أن اتجه نحو الإسكندرية وفتحها بسهولة وذلك للفوضى والاضـطراب الـذى

شهدته القسطنطينية على أثر وفاة الإمبراطور هرقل ٢١هـــ/٦٤١م والنـــزاع الذى دار حول العرش البيزنطى، وأحكم عمرو بن العاص سيطرته على بقيـــة أنحاء القطر المصرى وصارت مصر بأكملها فى قبضة المسلمين ·

وبهذا ينتهى الوجود البيزنطى على أرض مصر وتزول الصفة البيزنطية عنها وتتحول إلى ولاية إسلامية بعد أن كانت تابعة لبيزنطة ·

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية، اربعة اجزاء.

٢. أبو صالح الارمنى : كنائس مصر واديرتها .

٣. إبراهيم الجندى : دراسات فى تاريخ مصر إبان العصر الرومانى المتأخر (البيزنطى) ٢٨٤-٦٤٢م، القاهرة ٢٠٠٤م.

٤. اثناسيوس (القدس) : سيرة حياة القدس انطونيوس الكبير،نقلها الى العربية عن اليونانية الاب ميشال نجم .

٥. أحمد عيسى : ألقاب ووظائف القبط فى مصر الإسلامية، آداب قنا ١٩٧٧م.

٦. اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية.

٧. اسد رستم : الروم، جزءان، بيروت، بدون تاريخ.

٨. أمير نصر : مار مرقس الرسول ومدرسته بالاسكندرية، بدون تاريخ.

٩. أمين حكيم : دراسات فى تاريخ الرهبنة والديرية المصرية .

١٠. بربارة واترسون : أقباط مصر، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١١. بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى، ترجمة محمد عواد حسين، القاهرة، ١٩٥٤م .

١٢. تادرس يعقوب ملطى : القدس يوحنا الذهبى الفم .

١٣. حامد زيان غانم : تاريخ أوربا فى مطلع العصور الوسطى، القاهرة ٢٠٠٤-٢٠٠٥م.

١٤. دورليان (بول شينو) القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى اسكندر ومريام جميل سليمان، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٥. رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، أربعة اجزاء.

- تاريخ الفكر الكنسي، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٦. روستوفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانيـــة الاجتمـــاعى والاقتصـــادى، ترجمة زكى على ومحمد سليم، القاهرة ١٩٥٧م .

١٧. روفينوس : تاريخ الرهبنة، تعريب بولا البراموسى، بنى سويف ١٩٨٠م.

١٨. زكى شنودة : موسوعة تاريخ الاقباط، الجزاء الاول.

- مدرسة الاسكندرية اللاهوتية (اوريجانوس).

- قبطى فى عصر مسيحى، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٩. زبيدة عطا : الفلاح المصرى فى القرنين السادس والسابع الميلاديين،القاهرة، ١٩٧٨م .

- وضع المرأة فى مصر البيزنطية فى ضوء القانون الرومـــانى وأوراق البردى.
- إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى.
- الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية .
- قبطى فى عصر مسيحى، القاهرة ٢٠٠٣م.

٢٠. سمير فوزى : القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاســكندرية، ترجمـــة نســيم مجلى، القاهرة ١٩٩٩م.

٢١. سهير محمد إبراهيم : دور المرأة فى مصر البيزنطية، بحث قدم لنـــدوة دور المرأة عبر عصور التاريخ، التى عقدها قسم التاريخ – جامعة القاهرة فـــى مارس ٢٠٠١م.

٢٢. سيد الناصرى وسيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر منذ اقدم العصور حتى الفتح العربى لمصر،القاهرة،١٩٧٧م .

٢٣. سيد الناصرى : تاريخ الامبراطورية الرومانية .

– الناس والحياة فى مصر زمن الرومان.

٢٤. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية، القاهرة،١٩٦١م .

٢٥. شنودة ماهر اسحق : الادب القبطى.

٢٦. صموئيل زكى : المسيحية والوظائف الكنسية، القاهرة ١٩٩٦م.

٢٧. طارق منصور : قطوف الفكر البيزنطى، الجزء الأول، الأدب.

– تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، ٢٨٤-٦٤٠م.

٢٨. عائشة سعيد أبو الجدائل : واقع الأديرة الشرقية فى الإمبراطورية البيزنطية. بحث منشور فى مجلة عين شمس ، مركز الدراسات البردية والنقوش، العدد ١٩، القاهرة ٢٠٠٢م.

٢٩. عبد الحافظ عبد الخالق البنا، تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، الزقـازيق ١٩٩٧م.

٣٠. عبد اللطيف أحمد على : مصادر التاريخ الرومانى، بيروت ١٩٧٠م.

٣١. عمر طوسون : وادى النطرون،رهبانه واديرته،الاسكندرية،١٩٣٥م .

٣٢. عمنوئيل البعيدانى : تاريخ الرهبنة الانطونية .

٣٣. عزيز سوريال عطيه : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقـوانين القـديس باخوميوس، الاسكندرية ١٩٤٨م .

– "الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى " العدد الأول من مجلة الجمعية التاريخية، ١٩٥٠م.

– تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافـة،

القاهرة ٢٠٠٥.

٣٤. فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة .

٣٥. كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس، القاهرة ١٩٨٩م.

- تاريخ الامة القبطية .

٣٦. كيرس الانطونى : عصر المجامع.

٣٧. ليلى عبد الجواد : الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين (٦١٠-٦٤١م)، القاهرة ١٩٨٥م.

٣٨. محمد عثمان عبد الجليل : "الرهبنة النسائية فى مصر البيزنطية من القرن الرابع حتى القرن السابع الميلادى"، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب – بقنا – جامعة جنوب الوادى، العدد العاشر، سنة ٢٠٠٠م، ص ٣٤٧-٣٧٧.

٣٩. متى المسكين (الاب) : القديس اثناسيوس الرسول (٢٩٦-٣٧٣م).

٤٠. مجدى جرجس : القضاء القبطى فى مصر.

٤١. محمد عبد الفتاح السيد : "ملاحظات فى أسباب هجرة كل من كلمنت واوريجنيس من مصر إلى فلسطين فى القرن الثالث الميلادى". بحث منشور فى ندوة فلسطين فى ضوء أوراق البردى التى نظمتها جامعة عين شمس عام ١٩٩٨م. ونشرت فى القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ١٠٩-١٣٣.

٤٢. محمد عثمان عبد الجليل، "الرهبنة النسائية فى مصر البيزنطية من القرن الرابع الميلادى حتى القرن السابع الميلادى"، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادى، العدد العاشر، سنة ٢٠٠٠م، ص ٣٤٧-٣٧٧.

٤٣. محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية، اسكندرية، بدون تاريخ.

٤٤. مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٥. مصطفى العبادى : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى.

٤٦. ملاك إبراهيم يوسف : دور وعلاقات الكنيسة القبطية خلال العصر القبطى، جزءان، القاهرة ٢٠٠٠م.

٤٧. ميخائيل مكسى اسكندر : عذارى حكيمات من سير القديسات والشهيدات والخادمات الحكيمات، القاهرة ١٩٩٣م.

٤٨. يوسابيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، بيروت، ١٩٦٠م.

- حياة قسطنطين.

المراجع الأجنبية

- Bury, History of the Later Roman Empire.
- Diehl, L'Egypte Byzantine.
  - L'Egypte Chretienne.
- Hardy, Chirstian Egypt.
  - The Large Estates of Byzantine Egypt.
- Johnson, Egypt and The Roman Empire.
- Maspero, Organization Militaire de l'Egypte.
- Ostroyrosky, History of the Byzantine Empire.
- Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantine- 2 tomes.

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة	٣
مصر فى عصر الرومان	٥
مصر ولاية بيزنطية	٥
الحياة الدينية	٢٧
انتشار المسيحية فى مصر	٢٧
الاضطهادات الدينية	٣٧
مراسيم التسامح	٤٣
الاضطهاد زمن دقلديانوس	٤٥
اضطهاد دقلديانوس فى مصر	٤٨
مرسوم ميلان	٥٢
كنيسة الإسكندرية والجدل حول طبيعة السيد المسيح	٥٦
الرهبانية والديرانية	٦٨
الانقسام المذهبى بين بطريركيتى الإسكندرية والقسطنطينية	١٢٣
سياسة الإمبراطورية البيزنطية الدينية فى مصر بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م.	١٣٩
النظام الإدارى فى مصر فى العصر البيزنطى	١٤٨
الوحدات الإدارية	١٤٩
التنظيمات الإدراية بمصر وفقًا لقانون ١٣	١٥٢
النظام المالى فى مصر فى العصر البيزنطى	١٦٣

التنظيمات المالية بمصر وفقـًا لقانون (١٣)	١٧٥
- العقوبات المتعلقة بالإدارة المالية	١٨١
- ضريبة القمح	١٨٢
التنظيمات الحربية	١٨٧
التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان	١٩٤
الشرطة	١٩٩
الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية	٢٠١
الصناعات الغذائية	٢١١
الحياة الاجتماعية	٢١٨
الحياة الثقافية	٢٤٤
اللغة والأدب فى مصر فى العصر البيزنطى	٢٦٠
أولاً : اللغة	٢٦٠
ثانياً : الأدب القبطى	٢٦٥
الفن القبطى فى العصر البيزنطى	٢٧٠
فن التصوير والرسم	٢٧٣
فن النحت والعمارة	٢٧٨
النسيج	٢٨٠
استيلاء الفرس على مصر (٦١٦ - ٦١٩م)	٢٨١
الفتح العربى لمصر	٢٩٠
قائمة المصادر والمراجع	٣٠٤